سلسلة قصص روحية قصيرة وهادفة

المجموعة الأولى



اجراء وابناء

مراجعة مكاريوس

نيافة الأنبا أرسانيوس الاسقف العام

إنطلاق

كعادته فى كل يوم،خرج أبونا سيرابيون إلى البرية ليصرف بعضاً من وقته عند الغروب....

آناً متمشياً فوق الرمال..وآونة جالساً يداعب الحصى مستغرقاً فى تأمل غائر..إلى وقفة فيها ذبيحة التسبيح لا تلبث أن تتحول إلى صلاة عميقة تنتهى إلى ما يسميه المختبرون دهشاً....ثم إلى الإختطاف....

نعم وأبونا سيرابيون من النوع البسيط جداً..حتى فى علاقته بأخوته فى المجمع..لا يجادل ولايخاصم..لا يحقد وليست له رغبات خاصة فى الدير أو حتى فى قلايته ..فقلايته لا تختلف فى شيىء عن قلاية أى أخ جديد فى انتظار تزكية الدير له للرهبنة.

وعلى الرغم من أنه يحب الكل..فلا دالة له مع أحد فإذا مدحته علت وجهه حمرة الخجل دون تعليق ، وإذا أسى إليه عفواً أوحتى عمداً ،شعر وكأن الإساءة موجهة إلى شخص آخر ، يشفق هو عليه ويتعاطف معه.

هكذا عاش هانىء البال ومستقر الحال ..الكل مقدس وطاهر فى عينيه..كان يشعر أنه هو الوحيد الذى يحتاج إلى نقاوة قلب وحب متدفق.

روى راهب عنه فقال إذا دخل الكنيسة ..فضلاً عن الخشوع الذى يقف به فإنه لا يلاحظ غالباً من يصلى؟ ...وهل طال الوقت فى الصلاة أم لا...وعند توزيع السرائر المقدسة كان يدخل فى هدوء إلى الهيكل دون أن تفارقه إشراقة وجهه،والإنحناءة الخفيفة التى ألفها فيه الآباء فى الدير.

وإذا مشى تحس وكأنه يعرج عرجة خفيفة كأن شيىء ما ألمّ برجله اليسرى وكلما صادف راهباً فى الطريق إنحنى ويده على صدره قائلاً "سلام لك يا أبونا".

وأما جسده العفيف فلم يتذمر عليه بسبب ملابسه الرثة وشاله الضارب إلى الاخضرار من فرط قدمه..

كان يحب قلايته جداً ويشعر أنها أمه ، فى حضنها يرتمى ، سره فيها..أنها المعمل الروحى فى نظره..نادراً ما يغادرها، وإذا حدث عاد إليها سريعاً .. أنها المكان الذى شهد كل اختباره الروحية وسمع كل تأوهاته وملامته الشديدة لنفسه..ونعمِ بالنور الخارج من يديه وتشرف بزيارة العديد من القديسين القدامى الذين زاروه..

وعن الحجر الكبير الذى فى ركن القلاية ..فقد كان يجلس عليه وأمامه طبق صارخ فى القدم بداخله حفنة من نقى الزيتون يتناولها أبونا واحدة واحدة ..يسويها من الجانبين، ثم يثقبها ليدخلها فى الخيط الذى أعده لذلك.

فإذا انتهى من عمل (سبحة)أهداها إلى آخر- وهو فى هذا له طريق غاية فى اللطف.

أمام البئر الأثرى قابل الأخ يوسف..فسأله فى رقته المعتادة "هل عندك سبحة ؟" فقال أبونا "لا بل عندى واحدة زيادة عن حاجتى هى إذن لك وأنا واثق أنك ستصلى لأجلى كلما داعبت أصابعك المقدسه حباتها الخشنة"، أو يتركها معلقة فى مقبض باب ويرفق بها ورقة صغيرة كتب عليها هذة السبحة خاصة بالأب- فلان – زذلك خشية أن يتركها الشخص المهداة له ظاناً أنها أخطأت الطريق إلى صاحبها.

وإذا فتشته عن أفكاره وجدته عجيباُ فى منهجه فهو خبير فى الدفاع عن الآخرين والتماس الأعذار لهم . ويعتبر أن المستوى الطبيعى هو أن نغفر للآخرين لا يكذب ولا يبالغ أو يحمل الأمور أكثر مما تحتمل .. ولكنه يبحث عن النقاط الجيدة فى شخصية المدان ومن ثم يسلط عليها الأضواء أو يذكر احتمالات كثيرة لتبرير ما المدان ومن ثم يسلط عليها الأضواء أو يذكر احتمالات كثيرة لتبرير ما وقع فيه..وفى كل هذا لا يتوانى فى أن يتعلم من أخطاء الاخرين

وعن تدبيره فى السلام فإنه لم يكن يحب أن يكون طرفاً فى نزاع ..أو سبباً فى آلام الآخرين.

يحكى عنه أن فأراً صغيراً استطاع أن يتسلل إلى داخل قلايته..ورأه ومع ذلك فلم يفكر فى طرده ..وأما الفأر فقد طابت له المعيشة هناك .. يأكل من أكله ..ويشاركه مكانه ..ويجرى مسروراً هنا وهناك...وكبر الفأر وبدأ فى إيذاء أبونا ..ونصحه الأب بقطر بأن يقتله أو على الأقل يطرده من القلاية ..ولكنه احتج فى بساطة قائلاً..كيف اسىء إليه بينما حياتى وحياته فى يد الله؟(1)

وبالجملة فقد كان أبونا سيرابيون يسلك وكأنه غريب نزل فى ضيافة آخرين..

وأحبه الآباء جداً واعتبره أكثرهم مثلهم الأعلى يحاولون أن يرجعوا إليه كلما وضعوا فى موقف غير عادى ...ولكى يأنسوا برأيه ولكن المغبوط غالباً ما كان يركن إلى الصمت و إلى الإعتذار وحرك الشيطان بعض الأخوة المتهاونين ليشيعوا أن أبونا سيرابيون به لوثة عقلية ! وإلا فكيف بينما يتكلم طبيعياً ينقطع عن الكلام ، شاخصاً بعينيه إلى أعلى أو جانباً وفاغراً فاه ويظل هكذا بضع دقائق قد تصل إلى بعض الساعة وأحياناً إلى أكثر ..ثم يعود معتذراً وهو يمسح بعض قطرات الدموع من على لحيته الحمراء . بأنه شرد فى أمر ما أو يختلق سبباً صحياً ليبرر به ما حدث ..؟؟

وكان ذلك بتدبير من الله لكى يرد عن أبونا ما يأتى عليه من ضربات يمينية ولكى يكون هناك (موازنة) بين ما يتمتع به من هبات روحية وما يأتيه من محقرات لكى ينقذه من المجد الباطل.

وأما الآباء الحاقدون فى الدير فقد عرفوا حقيقة هذا السرحان ، وعللوه تعليلاً سليماً ،ولكن سراً فيما بينهم لأن مثل هذه الأمور من الحكمة الاتذاع خوفاً عليه ..وقيل أن الفضيلة إذا اشتهرت فقدت ..

واتفقوا أيضاً أن يتركوه وينسحبوا فى هدوء كلما عاوده هذا الإختطاف عدا الأخ ثيئودوروس الذى من النوبة.

نحن الآن فى 13 بؤونة سنة 1462ش

فى قلايته روى الأخ ثيئودوروس لأحد الرهبان ، أنه بالأمس خرج من قلايته عندما قارب الليل على الإنتصاف متمشياً وعندما مرّ بقلاية الأب سيرابيون وإذا خافت إنبثقت أشعته عبر ألواح الباب الخشبية فوجد أبونا قد همّ بالقيام من مرقده ، وبدأ يطوى الحصير البالى التى كان ينام فوقها، وعلى ضوء السراج الزيتى الخافت ظهرت

الحصير متهدئة تتدلى منها الخيوط من كل مكان ، وقد تناثر القش حولها- وبعد أن

طواه ووضعه جانباً ..

ومن ثم صار يحدث نفسه بصوت غير مسموع ، ما لبث أن

صار الصوت طرفاً فى حديث ثنائى ..ولكنه لم يبصر الشخص الآخر...وأمعن السمع وفرك أذنيه مراراً حاثاً إياهما متوسلاً أن تساعداه وبالكاد استطاع تمييز بعض كلمات متفرقة...مثل:

غروب..ماء..المسيح يرحمنى ...لا..لا..الكل هنا أفضل منى..

ثم أشرق وجهه ..وارتعب الأخ ثيئودوروس من المنظر وهرع إلى قلايته يبكى قارعاً صدره..

وعندما تقابل مع أبونا فى الصباح ..عند البئر وجده على سابق عادته مبتسما منحنياً ،ويده على صدره،وبعذوبة يقول (سلام لك يا أخ ثيئودوروس).وتعجب الراهب الجالس معه من الحديث وانصرف...

واعتاد الأخ ثيئودوروس على مراقبة أبونا..وفى كل مرة كان يلوم نفسه أنه لم يصر بعد راهباً..

إلى أن جاء يوم 21بشنس من العام التالى سنة 1463ش حين قام أبونا سيرابيون مبكراً فوق العادة وقبل أن يدق ناقوس الدير ليعلن بدء تسبحة نصف الليل..فقد اعتاد أن يستيقظ مبكراً فى كل يوم منذ إثنى عشر عاماً حين دخل الدير وهو ابن ستة وعشرين سنة..

---

(1)الهدف الأساسى من سرد هذة الواقعه هو إبراز فضيلة المسالمة فى حياة هذا الأب بيد أن التخلص من الحشرات والقوارض لا سيما ما ينقل منها الأمراض ويؤثر على نظافة المكان، لا يتنافى مع لطف الإنسان ولا يعتبر خطيئة يدان عليها.

وخرج من القلاية ..ومضى لفوره غرب الدير من الناحية القبلية ، حيث وقف أمام طافوس(1) الدير، وهناك صلى صلاة قصيرة .

مشى برفق بعدها إلى بحرى قليلاً حيث الكينوبيون (2) وخرج منه بخبرات قليلة وضعها فى جيبه . فقد كانت العادة وقتها أن يترك مفتوحاً ليأخذ منه الآباء إحتياجهم ، وعاد أدراجه إلى القلاية . وفى

كل ذلك لم يلحظ الأخ الذى كان يتبعه من بعد بحذر شديد . وبنفس الحذر ، ساقته محبته لأبونا وسعيه للمنفعة الروحية إلى قلايته حيث (الثقب المقدس) الذى يتطلع منه على سفير من السماء ، لا يستحق العالم وطئة قدمه فوجده جالساً يحصى على أصابعه أسماء الآباء الموجودين فى الدير .. أبونا ساويرس .. أبونا برصنوفيوس .. أبونا شنودة .. أبونا دومتيانوس .. أبونا إبراهيم .. أبونا تكلا .. أبونا ..أبونا..الأخ..

ثم همّ بعد ذلك بالخروج من القلاية ..فأسرع ثيئودوروس إلى الاختفاء خشية أن يراه ، ويحزن بسبب كشف تدبيره.

فلما خرج مشى الهوينة حتى وصل إلى مبنى الضيافة الكائن إلى جوار الكنيسة شرقاً ..ومضى إلى داخله ، ثم خرج بنفس الهدوء ولكن بدون اللفافة التى كان يحملها قبل أن يدخل.

ولما ابتعد قليلاً جلس القرفصاء عند آخر مبنى القلالى القديمة المتاخم لسور الدير من ناحية الباب البحرى ، وكان يراقب الآباء وهم يسيرون كا لأشباح فى الظلام ، فى طريقهم إلى الكنيسة فقد كان جرس نصف الليل قد دق وهو خارج من مبنى الضيافة .. فإذا تأكد أن الرهبان جميعاً قد خرجوا من مبنى الضيافة .. فإذا تأكد أن الرهبان جميعاً قد خرجوا من قلاليهم . تسلل إلى داخل الممر وصار يقبل أبواب القلالى فى نهم وسرور مع تمتمة خفيفة، لم يتمكن ثيئودوروس من استيضاح شيىء منها.

---

(1) طافوس كلمة يونانية معناها مدفن.

(2) كينوبيون كلمة يونانية معناها حياة شركة و أصبحت تطلق على المجمع (مخبز– مطبخ – مائدة–بيتل

ثم دخل إلى الكنيسة .هناك كلما تقابل مع راهب أمسك يده بكلتا يديه ويقبلها فى فرح ممزوج بالخشوع ، وفى أثناء القداس بدا وكأنه يريد أن يخفى شيئاً فوقف مستنداً إلى الحائط ، يفرك فى عينيه ..تارة .. ويمسح على وجهه ولحيته تارة ، ولكن الأخ ثيئودوروس كان يتبعه .

وانتهى القداس الإلهى ..وسرحت الكنيسة ، ولكن أبونا لم يمضى إلى قلايته كباقى الآباء ...بل

جلس على سور الحديقة التى توسطت الدير ، والتى لا تزيد مساحتها عن قيراط واحد ، ثم ما لبث أن صار يتنقل بين نخلاتها السبعة يتحسسها ..ذلك دون أن يطأ ما زرع من الفول ..والخضر..إلى أن عاد أيضاً إلى جلسته الأولى على السور .. يخطط حيناً – بجريدة كانت ملقاة بجانبه – على الأرض ..

وحيناً يداعب الحصى الذى افترش الأرض تحت قدماه .

وعلى السور بدا قلقاً بعض الشيىء ..يفرك فى يديه تارة ثم يحكها فى السور تارة أخرى ..إلى أن قام فى تثاقل يجر رجليه جراً ..مغادراً المكان ..

وهنا توقف الأخ عن متابعته فقد كان من الواجب عليه أن يمضى إلى عمله فى المجمع ليساعد أبونا ثيئوفان ..

وعند الغروب من ذلك اليوم ..وبعد أن انتهت تسبحة عشية للاحتفال بعيد نياحة الأنبا ارسانيوس معلم أولاد الملوك ..خرج الآباء كعادتهم من الكنيسة إلى الباب القبلى للدير متجهين إلى البرية فى نزهة روحية كل فى ناحية ..ما لبثوا بعد دقائق معدودة أن تفرقوا مبتعدين عن الدير ..

واتجه أبونا سيرابيون شرقاً ، وغاب مثل الذين غابوا ولكنه ابتعد أكثر و أكثر .. وكان أبونا ثيئوبترس آخر من رآه ..فقد رآه يجد فى المسير بينما يقاوم الهواء ثيابه الرثة وشاله المتهرىء فى عناد وصفير مسموع .

وعندما نزل الظلام وكسا الأرض بحلته المهيبة .عاد الآباء أدراجهم إلى باب الدير ..ثم إلى قلاليهم ..ولكن أبونا لم يعد ..ولم ينتبه الآباء إلى ذلك إلا عند ظهر اليوم التالى حين راح الأخ ثيئودوروس يوزع عليهم النبأ الغريب فى دهشة وانزعاج ..نعم فقد ذهب كعادته كل ليلة إلى قلاية المغبوط ، لينال متعته اليومية عبر ثقب الباب ولكنه لم يجد أبونا مثل سابق عادته ، وانتظر حتى الصباح ولكنه لم يعد ، وحتى الظهر فلم يحتمل واعلن ملاحظته على الكل ..

+++

فى لهجة آمرة ولكن بأدب رهبانى سليم ..أفرز الأب شيشوى سبعة من الرهبان للبحث عن أبونا ..قال لهم بمرارة : أصلى وتصلون معى ألا تكون الوحوش قد افترسته أو أن مكروهاً ما قد ألمّ به ..ورد الآباء فى تمتمه ووجوهم مطرقة إلى أسفل ..(..)..

وعند الغروب أمر رئيس الدير بضرب ناقوس الدير بلا انقطاع،

على أن يتناوب عليه بقية الآباء طوال الليل، علّ أبونا يهتدى إلى الدير عن طريق الصوت.

وأما العجوز يوساب فقد كان يجلس بجوار الباب من الخارج بعد أن توسل إلى الأخ فليمون أن يصحبه إلى هناك نظراً لكونه محروماً من نعمة البصر .. جلس ليراقب ما يحدث ولكى يقف – أولاً بأول – على نتائج البحث ..

وطال غياب الآباء السبعة، وعاقت الرياح مصابيحهم الزيتية وبدأوا فى العودة إلى الدير نحو العاشرة مساءاً وهم حاسرين الوجوه.. ونظر إليهم رئيس الدير وفهم .. وصمت.

وأستمر البحث طيلة شهر كامل دون جدوى وبدا الوجوم واضحاً على كل الوجوه فى الدير .. وأقيمت صلوات وأصوام خاصة لأجل ذلك .. ولكنه لم يعد..!

ولم يفت رئيس الدير أن يسأل أب اعتراف أبونا سيرابيون فيما بينهما علّه يعرف تعليلاً لما حدث .. ولكن الأخير اعتذر فى لطف قائلاً : كل ما أعرفه أنه كان يؤخذ كثيراً .. وكان فى كل مرّة يقول لى، عدا هذه المرة فقط لم يقل لى شيئاً.

وانصرفت سنوات طويلة على هذه الحادثة دون أن يوجد لها تفسير شاف ..سوى مرات ثلاث ظهر فيها أبونا سيرابيون فى رؤى .. الأولى لرئيس الدير والثانية لأبونا ثيئوفان والثالثة للأخ ثيئودوروس .. (وكان قد ترهب باسم الراهب ببنودة) .

نفس أشراقة وجهه .. ولحيته الحمراء المتوسطة الطول والكثافة وانحناءته الخفيفة .. ولكن الثلاث لا يذكرون ماذا قال لهم بالضبط .. أو شيئاً عن الحديث الذى دار بينهم .. بل أجمعوا على شئ واحد وهو إحساسهم القوى بأن أبونا لا يزال حياً ..

وصارت قصة أبونا سيرابيون تتناقل من جيل إلى جيل يرويها الآباء للأخوة الجدد ويشيرون

بأيديهم إلى قلايته .. وبالتحديد إلى العبارة المنقوشة على الحائط .. (أبونا سيرابيون خرج ولم يعد ..) .

ومع الوقت، صارت أشبه بالإسطورة من فرط غرابتها فقد لوحظ أن الأجيال الجديدة ما كانت تصدق بسهولة أن مثل ذلك يمكن أن يحدث .. ربما لنقص الايمان أو لقدم القصة أو لقدم الحادثة نفسها..

نحن الآن فى أول مسرى

أفاق أبونا سيرابيون على صوت أشبه بعواء الذئب، فتنهد مسروراً وحدث نفسه بالرجوع إلى الدير، قبلما يغلق الباب ..

ولكن وبينما هو فى طريقه إلى الدير لاحظ من بعد مائتى متر أن شكل الدير قد تغير .. فالمبنى الكبير الموجود من الجهة البحرية .. لم يكن موجوداً منذ (ساعتين!) عندما خرج للخلوة .. كذلك ما هذا السور الجديد الذى لم يكتمل بناؤه بعد ؟، وما هذا .. ال .. هنا

ووجد نفسه فى مواجهة باب الدير فهرع إلى حبل الناقوس يدقه فى رجفة بينما تسابق دقات قلبه دقات الناقوس.

ومن الداخل أسرع الراهب البواب .. قائلاً من الباب

– أنا سيرابيون افتح يا أبونا إيليا !..

وسمع خشخشة خلف الباب ..ثم فتح الباب. فلم يجد أبونا (إيليا) بل وجد راهباً لا يعرفه .. ولما رحب به لم يجب أبونا سرابيون من فرط دهشته، ولاحظ الراهب البواب حيرة وذهولاً فى عين الزائر فقال له تفضل يا أبونا قدسك أول مرة تزور الدير ؟ ولكن أبونا كان لايزال مذهولاً لما يراه أمامه..

أين مبنى الضيوف؟أين صف القلالى القديم؟ما هذا المبنى العالى ؟ .. أين .. ما هذا....

وعبثاً حاول أبونا البواب أن يلفت نظر أبونا الزائر اليه ويكاد أبونا سيرابيون يصرخ من هول المفاجأة .. وتجمع حوله الآباء يرحبون به..ويشكرون له زيارته لديره المتواضع . وصرخ أبونا :– أنا سيرابيون خرجت منذ ساعتين فقط ولكنى لا أجد الدير ولا أخوتى الذين تركتهم هنا .. وبكى .واللآباء

يهدئون من روعه والكل فى حيرة من أمرهم ينظرون إليه فى دهشة ويتأمل هو نظراتهم بالتعجب والتساول....

ولكن هذا لم يدم طويلاً إذ الهم الله راهباً قديساً . هذا أخذ أبونا من يده وصعد به إلى مكتبة الدير الأثرية .. وهناك قال له فى هدوء شديد ممكن تتعب معى فى البحث عن اسمك فى هذا السجل الضخم .. ووافق أبونا، فراحوا يمرون على صفحاته واحدة تلو الأخرى .. ولكن دون أن يجدوا اسمه إلى مائة سنة وخمسون خلت لم يجدوا اسمه!

واحتاج الأمر الى قليل من الصبر وراح الراهب يقلب أكثر .. إلى أن قفز أبونا سيرابيون من موضعه ويكاد أصبعه يثقب السجل مشيراً إلى اسمه فى أحد السطور : هذا !

+ جرجس حنين عبد المسيح

تاريخ الرهبنة : 1451 للشهداء

اسم الرهبنة : سيرابيون

البلد : منف

وأما فى خانة تاريخ النياحة فقد كتب فيها "خرج ولك يعد"..

ووسط كل الأسماء لاتوجد مثل هذه العبارة سوى أمام اسمه.. ونظر إلى التقويم المعلق على حائط المكتبة فاذا هو لعام 1619 ش !

وبسرعة اتفقا سوياً أن يبقى هذا الأمر بينهما سراً .

ولكن النور لا يخبو إذ عرف الأمر قبل مرور شهر واحد .. ولكن الله ضمه إليه فى راحته .

أين كان .. وماذا صنع وكيف عاش إلى ذلك الوقت وأسئلة أخرى غيرها .. لايستطيع أحد الأجابة عليها ، وستظل قصة أبونا سيرابيون لغزاً سوف يحلّ فى المجد الأسنى

غريب!

بينما كان الدير – القابع في قلب الصحراء التابعة لمدينة أخميم– تسير فيه الأمور بطريقة عادية : شوهد شاب لا تعرف هويتّه وهو يحوم حول أسواره .. وكان ذلك لمدة أيام ثلاثة وإذ لاحظ ذلك الراهب مقار ، أبلغ الأب الأقنوم(1) الذي طلب منه أن يسعى فى دعوته للدخول . ففعل وجاء الشاب مطيعاً.

أمام رئيس الدير، وقف شاب في نحو السابعة والعشرين من عمره،فى ثياب بسيطة ، وعمامة

تلف رأسه وقد قاربت مقدمتها ان تخفى حاجبيه ... وقد انتعل حذاءاً بالياً من مشقة السفر، كما بدا منهك القوى ، وقد هزم الحزن عينيه.

وحالما مثل أمام الأب الرئيس مد يده إليه في صمت فتناولها الآخر وهزها هزة خفيفة مرحباً بكلمات يسيرة , ثم بادره سائلاً:

ابلغني الأب مقار أنه شاهدك منذ أول أمس وأنت بالقرب من الدير،أيمكننا مساعدتك؟

- **إذا ما قبلتموني لديكم فسأكون بذلك سعيداً**
- **بكل سرور , ولكن زائر أم عامل أم رغبة في سلك الرهبنة؟**
- **أريد أن ألتحق بأي عمل**
- **ما هو عملك..**
- **أنا أعمل في كروم العنب منذ زمناً بعيد ولي في ذلك الخبرة..فهمى مهنتى.**
- **ولكن لماذا تركت عملك و جئت إلى هنا؟**
- **أنا أحب هذا الدير، وأما عن تركي طردنى كنت أعمل معهم ،كما أنى آتى هنا كثيراً وأعرف كل الآباء هنا**
- **وهل هم يعرفونك**
- **الحقيقة أنهم مثقلين بأعباء العمل في الدير**

---

(1) أقنوم كلمة معناها مدبر وهى مأخوذة عن الكلمة اليونانية ايكونومين ومعناها تدبير

- **ولماذا تهرأت ثيابك؟**
- **ليس لي ثوب آخر غيره, كما أنه معي منذ زمن بعيد وقد أعطانيه إنسان شفوق**
- **نسيت أن أسألك عن أسمك, فما هو؟**
- **جيمي**
- **فقط؟!**
- **صمت**

وهنا حدفه الأب الأقنوم بنظرة إشفاق وتساؤل ثم شرد بذهنه

ترى هل هو فتى يتيم ؟! يبدو لي ذلك .. وإلا فأين ذويه؟ وكيف لا يعرفهم، ولماذا يبدو شاحب الوجه، وكأنما قد جارت عليه ليالي طوبة وظهيرات بؤونة.

نعم يا ربي أشكرك من كل قلبي لأنك أعتنيت بي ولم تهملني، فكم من مشردين لا أب لهم أو أم وأنت تضمهم إليك وتعولهم..

هذا أحد أخوتك و الجوع ينهش أحشائه، والعري يدمي جسده.. أشكرك لأنك حسبتني مستحقاً أن أنال بركتك بتقديم المساعدة لأخوتك .. رحماك يا رب .. رحماك .. وأغرورقت عيناه بالدموع.

ثم أنتبه بعد ذلك ليجد أن الصمت يسود الغرفة ، فأسرع كمن يريد إبتلاع سؤاله:

يا أبني لا يهمني أن أعرف أبن من أنت ومن هم ذووك فالرجل ليس من قال كان أبي ولكن الرجل من قال ها أنذا..

فقط أتمنى أن تكون عند حسن ظني ..

فأجاب جيمي :

– سوف لا تندم يوماً أنك قبلتني.

أمام بستان الكروم وقف المعلم برسوم يشرح لجيمي، العمل المطلوب منه .. ويسلمه المسئولية التى ستلقى على كاهله.

والمعلم برسوم رجل له من العمل أكثر من خمسة وخمسين عاماً، قضى أربعين منها في الدير . فقد أتاه صبياً من قرية أوسيم التابعة لمدرية الجيزة , ولشدة أمانته في عمله و ولائه للدير ، أسند إليه الإشراف على بستان الكروم الكائن غربي الدير على قطعة أرض شبه نصف دائرية . تبلغ مساحتها أربعة فدادين وعشرة قراريط

وهو طويل القامه عريض الكتفين .. له شارب غزير و أصابع لا يكف عن تنميقه لكنه يحمل قلب طفل.

قال لجيمي وقد وضع يده على كتفه:

– أحب عملي وأخلص له وأريدك كذلك : فلا تخذلني. فأبتسم جيمي كمن هم أن يضحك ولكنه عدل عن رغبته سريعاً،ولم يجب.

وأستطرد المعلم برسوم، حذاري أن يعلموك التدخين أو التكاسل في العمل،وأريدك أميناً،لا كالأجير بل كصاحب الكرم فهز جيمي رأسه بالإيجاب , وحينئذ سلمه فأساً ومنجلاً وحبلاً لايتجاوز المترين طولاً.

وبعد أيام شعر المعلم برسوم أن جيمى فرح بعمله الجديد، وصار يراقبه عن كثب–ليطمئن على إمكاناته ومدى اخلاصه، وكلما جمع البستان بينهما كان المعلم يقول له:

أود أن يصير البستان جزءاً منك ..أتفهمنى ؟

ويجيب جيمى مطمئناً ووعداً .

والذى جعل الطمأنينة تسرى إلى قلب المعلم برسوم ان جيمى كان يمر على الكروم جذعاً جذعاً ،وساقاً ساقاً وقد تنطق بالحبل ، والفأس معلق على كتفه، بينما أصابعه اليمنى قابضة على يد المنجل .. وكان له مع كل غصن عمل .

فقد كان يربت على الجذع فى حنو ، مثل أم تهدها ابنها ، ثم ينزع فى توءدة الأوراق اليابسة ،كذلك صنع سداًدائرياًحول كل جذع من البستان لكى يرتوى ويشبع، دون أن تهرب المياه من حوله.

وفرح برسوم بجيمى واستبشر خيراً..

وذات مرة تنهد محدثاً نفسه قائلاً :

الآن فقط استطاع أن أترك البستان وأنزل لقضاء حاجاتى وحاجاته ،وأنا مطمئن بالاً. فالحق يقال ان جيمى يهتم به ويخاف عليه اكثر منى .

–أسرع يا جيمى . فالليل للهجوم .. هيا لتسقى ما تبقى من الكروم..

وهكذا قبل أن يكتلك الضلام و أديم الغبراء .. كان جيمى بخطوات واسعة وهمة نشيطة قد أكمل ما حثه على انجازه المعلم برسوم ، فأثنى الأخير عليه ببعض كلمات المديح ،ثم مد يده ليمسح بعض قطرات العرق عن وجهه .. واستسلم جيمى فى وداعة ليد برسوم..

قال برسوم :

- ألا تأتى معى لتناول كسرة خبز

- سآكل ولكن بعد قليل

- ولكنه ليس أوان الصوم والنسك ، فنحن فى الخمسين المقدسة ..

- صدقنى لا أشعر بجوع الآن

- كيف ذلك وأنت تعمل منذ الصباح الباكر ولم تضع فى جوفك شيئاً؟

- أرجوك لا تقلق علىّ ، اهتم أنت بنفسك ، قالها وكأن الكلمات آتية من بئر عميق..

ولكن المعلم برسوم لم يقتنع بشئ من هذا بل قال فى اصرار :

لابد لى من ان أسدى إليك أى معروف لقاء ما تبذله معى من جهد مضن.

والحقيقة ان برسوم حاول مراراًان يهبه شيئاً من المال او الملابس ،

هنا وقال جيمى كمن له دالة مع برسوم.

اريد ان تهبنى أن اجعل للكروم أسماءا

فضحك برسوم ملء شدقيه وألقى برأسه إلى الوراء مقهقهاً ن ثم صمت هنية قال بعدها:

– لك ما تريد ، ظننت أنك ستطلب نصف الكروم ، وكنت متأكداً أن أبانا الرئيس لن يبخل عليك بذلك ، نعم فقد تحدثت معه بخصوصك كثيراً ، وهو بدوره معجب بك للغاية ، ودائماً يقول نحن لا نستحق هذا الإنسان فى وسطنا.

وأمام هذا الثناء ز لم سستعف جيمى ، ولم يجاوب ، بل صمت.

فى وسط البستان اختار جيمى اثنى عشر جذعاً وجعل لكل منهم اسم واحد من تلاميذ السيد المسيح.. هذا لبطرس ، وذلك ليعقوب ، وآخر ليوحنا وهكذا..

وقد حذا فى ذلك حذو بعض الآباء فى الدير والذين يعملون فى بقية المزارع .. إذا اعتاد إطلاق الأسماء على بعض أقسام الأرض التى يزرعونها .. مثل حاران ،عمون ، بيت لحم..كنعان.. وغيرها.

هكذا اختار جيمى جذعاً قوياً شامخاً جعله لأثناسيوس وآ خر لديسقوروس.

كذلك جعل لكل الآباء فى الدير بأسمائهم ما بين طويل وقصير، وكثيف وخفيف.

وفى رقعة أخرى من البستان كان لعمال الدير نصيب فى التسمية ، وبدا أن هناك فروقاً متباينة بين قوة غصن وآ خر .

ويمضى الوقت وجيمى مسرور بعمله ، لا يكلم أحداً ولا يظهر كثيراً خارج نطاق عمله..

والأمور تسير فى الدير هادئة.. طبيعية..

فى الفسحة الموجودة أمام حجرات النوم للعمال ، جلس هؤلاء يتسامرون ، فهم يهبون النهار عرقهم ، ويأخذن من الليل راحتهم ومتعتهم .

يقضون السويعات التى تسبق نومهم فى تبادل نوادر اليوم ومفارقاته ، فإذا ما داعب النعاس اجفانهم ، خلدوا جميعاً إلى النوم.

فى تلك الليلة دار الحديث عن جيمى العامل الوافد على الدير حديثاً، والعامل فى بستان الكروم ، واليد اليمنى للمعلم برسوم، كتعبيرهم الدارج.

-3-

وبالطبع لم يكن جيمى معهم ، وهم فى الحقيقة لا يعرفون حتى ذلك الوقت ، أين ينام جيمى وماذا يأكل.

وانما كل ما يعرفونه انه من اقاصى الصعيد ، مات والده وهو لايزال صبياً يافعاً، نعم فقد قيل أنه بينما كان يعمل فى حقله خرجت حية من بين الأعشاب لتلدغه فى قدمه ، ويسقط على الأرض وقد صرعه سمها.

قيل أيضاً ان أمه ماتت حزناً وكمداً على زوجها ، وأما هو فقد تشرد الطريق ، كما أنه تنقل بين أعمال كثيرة.. فإذا التحق بعمل جديد ، لا يلبث أن يطرده صاحب العمل .. أو يتركه هو من ذاته..

قال أحدهم : لعله لذلك قليل الكلام..

قال آخر : ربما

وهنا تحرك فى جلسته العم يونان – وهو أكبر العمال سناً– فقال متسائلاً:

- ترى هل هو سعيد بحياته هنا بيننا ؟

- من يدرى ربما لم يجد له موضعاً آخر اكثر راحة.

- ولكن أين يقضى وقته بعد نهار عمل شاق؟

ولم يجب أحد من الجالسين إلا بذم الشفتين وقلب اليدين!

فأكمل قائلاً: عموماً هو شاب طيب القلب ويكره الشجار ويترفع عن الهزل.

قال تكلا مؤيداً (وهو عامل قارب العشرين من عمره):

– مرّ بى جيمى عصراً أول أمس بينما كنت عائداً من العمل إلى حجرتى.. فأقترب منى وقال لى بحنو : مالك يا تكلا مكمداً وقد هزمك شيطان الغضب؟

وفى ظل إحدى الشجيرات رويت له ما كان منى ومن " سعد "زميلى وكيف رمى أحدنا الآخر بعبارات مما يتناولها أهل العالم فى شجاراتهم، ثم كيف أفترقنا ناقمين.

وأعجب ما لا حظته أننى بينما كنت أروى لجيمى ما حدث أنه ظل صامتاً، لم تتحرك عيناه ولم تهتز أهدابه، ولكنه ظل شاخصا إلى ، ولم يومىء برأسه ، أو تتحرك يده..

لقد خيل إليٍَ وقتها أنه ينظر إلى ماوراء الزمن ومضيت أنا فى سرد مادار ظهراً، وصوتى يعلو تارة ثم ينخفض ، ويهتز جسدى ، وتتحرك يداى لأعلى فى الهواء مرة، وأخرى لتضربان فى قسوة على جذع الشجرة من شدة التوتر.

ثم ر بُت على كتفى قائلاً فى هدوء :

لأجل المسيح سامحه مكتوب " اغفروا يغفر لكم" ثم بنفس الهدوء تابع مسيره إلى حيث لا اعلم.. ورحت أتبعه مذهولاً حتى غاب عن ناظرى.

وقد زالت من قلبى سحابة الحقد والكراهية تجاه" سعد".

وقال العم ابراهيم وكأنه يحدث نفسه: أنه يتكلم أحياناً بطريقة غامضة .. وعن أمور حدثت فى الدير لا أظن أنه كان بيننا عندما حدثت ، فى حين أن له فى الدير مدة لا تتجاوز الخمسة أسابيع . فضج آخر بالضحك قائلاً: أنه مجنون ، فنهره الجالس إلى جواره بأنه مسكين وظروفه قاسية.

وعندما كانت دفة الحديث متجهة إلى موضوع آخر – كمثل عادتهم إذا جلسوا للسمر – قال آخروكأنه كان يقاوم رغبته فى الافصاح عما فى جعبته:

عوتب أحدنا عى أمر ما ، وأحب أن ينفى عنه الاتهام ، فطلب من جيمى أن يشهد معه ، وأحس جيمى بدوره أنها ستكون شهادة زور، فاعتذر فى دمائه خلق.. وهم بالانصراف ، فما كان من ذاك إلا وقد جذبه بعنف ووبخه على عدم (شهامته) ووقوفه إلى جانبه وقت الضسق ، ثم زاد على ذلك بأن لطمه لطمة قاسية وهو يرغى ويزيد قائلاً: مجرم .. ذنديق.. متكبر ..

وابتسم جيمى ابتسامة أب قبالة إبن شيخوخته. ثم أضف الراوى قائلاً : نعم رأيت ذلك بنفسى واحسبنى لم أكن لأصدق لو أن آخر روى لى ما حدث .

تكلا: ويقال أن امه كانت أمرأة فاضلة ، طيبة القلب ..

آخر مقاطعة: نعم لقد شاهدتها – على باب الدير منذ تسعة ايام . تسأل عنه ، وهى أمرآة عجوز علا رأسها المشيب ، وقد قابلها جيمى وحياها ف حرارة ، وتحدث معها طويلاً ، وقبل أن تودعه ألقت فى يده علبة متوسطة الحجم محزومة بحزام أحمر.

ولكن تكلا سخر منه مؤكداً لأن لأمه قد ماتت منذ زمن بعيد..

ومن بعيد كان "رمزى" يتابع الحديث فى شغف ، وقد لمعت فى ذهنه فكرة انفرجت لها أسارير وجهه، ثم قام لينام ليلته مغتبطاً وقد عقد النية على شىء ما.

فقد قام صباحاً بجولة بين اخوته يجمع منهم ما فضل عنهم من متاع يزيد عن حاجتهم ، وخرج بحصيلة لا بأس بها؛ملابس داخلية رتق معظمها ، وحذاء قديم، طاقية فا عليها الزمن .. ثم خزم الجميع فى صرة واحدة صغيرة . أحكم زمامها فى اهتمام وكأنها إلى السفر .

ثم مضى فى خفة ورشاقة إلى حيث يوجد جيمى ، وأمام جيمى أبان فى اتضاع ، أن الاشفاق لم يدفعهم لمثل هذا التصرف وإنما المشاركة – ومحاولة التعبير عن محبتهم – ثم قام برفق وقد ترك(الصرة) إلى جواره فقام حينئذ جيمى فرحاً، وقبل رمزى شاكراًثم ودّعه مثنياً عليه وعليهم.

وحذا حذوه في ذلك _ آخر ، إذ حرم نفسه من نصيبه المقدم له من اللحم في الغذاء ، وحمله إليه عند العصر ،وهو يعرف ان جيمي لا يمتنع عن أكل اللحوم لأسباب صحية كما يظن البعض ، ولكنه الزهد زالنسك ، لذلك ألحّ على جيمي في قبولها فوافق جيمي

والبشر طافح على وجهه .

كما أن هذا التأثر قد إمتد إلى (خليل) الذي يهتم بخيول الدير الثلاثة ، ذلك أنه عندما تقابل مع جيمي في صباح اليوم التالي ، إقترب منه محيياً ورد جيمي في كثير من الإهتمام .

قال خليل :

- أرجو أن تسامحنى إذا تجاسرت على اخراجك عن هدوئك بحديثى معك ..
- ابداً لن أتضايق..
- لماذا اطبقت فى صمتك ؟ لا تتحدث الإ نادراً . لم نرك مرة ضاحكاً بل تهرب من مجالستنا .

...لا تظن يا جيمى يا أخى انك وحدك الذى تمر بظروف قاسية ،نحن جميعاً نئن ونطلب المدينة العتيدة.. تقرّب منا ربما فى ذلك سلواناً وعزاءاً..

- صدقنى ... لست منعزلاص كما تظنون بى..ولكنى أحب ألا أفرض وجودى على مجالسكم..

لا تقل هكذا،كيف ذلك ونحن نتلهف على كلماتك القليلة.

أنت طيب القلب يا خليل، ولكن لا احب احاديث إدانة والمال ، وأكره اللهو والعبث ، وأوجد اخواتنا العمال يحبون الليل ويكرهون النهار ن لأن الأخير يوجب العمل ولكن الليل يهب الترخى..

فى ذلك اليوم كان الأب أبيفانيوس رئيس الدير فى زيارة إلى بستان الكروم يتفقد العمل فيه، وهناك تقابل مع جيمى فأقترب منه،وربت على كتفه فى محبة قائلاً: جيمى:أما تريد شيئاً؟

أجاب جيمى : أريدكم بخير.. هذا يسعدنى ويكفينى فاقترب منه بالأكثر ،وفى صوت يشبه الهمس قال:كاأرأيك فى أن تأتى معى لتساعدنى فى بعض الشئون؟

أحجاب جيمى: أنا أاحب أن أساعد الكل .. واستأذنك فى أن أبقى هنا مع اخوتى ،واعرق معهم وأفرح معهم..ةعندما

ثم انقطع عن الكلام مستأذناً فى أدب جم لكى يسرع إلى العم (تودرى) يرفع عنه الكيس الذى يحمله.

قال العم تودرى وهو يلهث : اكرمك الله يا ولدى وعوض لك بالنسل الصالح!

فهز جيمى رأسه ، وانصرف حاولاًحمل الشيخ.

ذات يوم قاد الشيطان الغيرة،واحداًمن العاملين فى الدير لكى يوقع بجيمى ، ذلك الشاب المبارك الوديع ، فتوجه إلى حجرة المعلم برسوم– وكان الوقت صباحاًباكراً –وجعل يطرق بابه فى الحاح.

ويخرج المعلم ما بين نائم،ومستيقظ ليستجلى الأمر ، فاقترب منه العامل بسرعة وألقى فى أذنه سراً!

ويتعجب برسوم – العجوز الطيب– ولكن الاخر لا يدعه لشكوكه ، بل يعود فيؤكد انه راى جيمى بإم عينيه من خلف السور – المصنوع من الجريد والسعف.

ويدخل المعلم مسرعاً نحو الداخل وطاقيته الحمراء فى يده، يضعها فى غير اهتمام على رأسه ، ويمضى لفوره إلى البستان ، ليفاجأ هناك بأقوى ثلاثة غصون فى الكرمة مقطوعة من أسفل وهاوية إلى الأرض صريعة ، فيلطم خديه مراراً!ويصرخ ملتاعاً، ويجرى مسرعاً نحو رئيس الدير مباشرة.

هناك قالوا له ان الأب فى القداس الإلهى ، فجلس خارج الكنيسة منتظراً ومستنداً إلى الحائط ، وقد دفن رأسه بين يديه فى ثيابه، وبين الحين والحين كانت آهاته المكتومة تخرج ما بين طويلة وقصيرة..

وما أن خرج الأب أبيفانيوس ، وشعر بذلك برسوم حتى إنتفض من مكانه واتجه إليه وتحدث بطريقة لا يفهم منها شيئاً.

فدعاه الأب للجلوس ونصحه بالهدوء.

أمام رئيس الدير ، والمعلم برسوم ، وأحد العاملين : وقف جيمى متهماً ولكنه كان جاداً.. ورصيناً.

قال الأب الرئيس: المعلم يتهمك بغتلاف بعض أغصان الكرمة هل حدث ذلك فعلاً؟

جيمى : لا لم يحدث.

- **ولكن هذا الأخ (مشيراً إلى العامل) – رآك وانت تهوى عليهم بفأسك الصغير .**

- **صمت**

- **أما تدافع عن نفسك**

- **أنا أحب البستان،ولا يوجد من يحبه أكثر منى**

- **ألا يمكن أن تكون فعلت ذلك وأنت فى غير وعيك؟**

- **لا ، فأنا أعى كل شىء**

- **جيمى.. أنت تعلم أننا نحبك ونقدرك ..والمعلم معتز بك ودائماً يكلمنى عنك بالخير .. فلماذا خيبت الظن فيك؟؟؟**

- **انا أيضاً أحبكم ، وأحب هذا المكان ، وكل شىء وانتم تغضبون علىَ ومنى بلا سبب ، (واختلجت مشاعره .. وصدر الكلام عنه متقطعاً ثم بكى جيمى بشدة..)**

حينئذ قال الأب فى اشفاق:

- **أنا لا أحاكمك ، لكنى ابحث عن الحقيقة لا غير ، فلماذا تبكى؟**

- **صمت**

- **ولكن – سامحنى يا اخى – فإذا صح قول المعلم وهذا الأخ فإنه لن يكون فى استطاعتى ان أبقيك هنا من اليوم**

- **ليكن ما تريد فأنا فى ضيافتكم**

فحول حينئذ الأب ابيفانيوس مجرى الحديث قئلاً: اخبرنى يا جيمى: هل لك أب اعتراف؟

جيمى : لا .. ليس لى

– نعم!فقد لا حظت أنك لم تتناول من الأسرار المقدسة طيلة هذة المدة التى مكثتها طرفنا، إذا هل كان لك قبل أن تأتى إلينا؟

–لا. لم يكن لى

– فكيف إذاً يا ابنى تستقيم حياتك الروحية بدون اعتراف وتنازل؟

– صمت

– وماذا عن الكتاب المقدس وصلواتك

– ليقرأ آخر أمامى ، ويصلى كذلك. اولاً . فقال المعلم برسوم فى غيظ وحنق :قبلان يعلمك– لابد أن يعاقبك على فعلتك السوداء، فكيف تخون المكان الذى تعمل وتعيش فى خيره؟

– فترة صمت

ويقطع الأب ابيفانيوس الصمت بقوله..

لا بأس ..لا بأس.. هناك حل وسط:(ثم يوجه الحديث إلى جيمى قائلاً).

يمكنك من اليوم ان تذهب إلى المطبخ لتساعد الأباء هناك..

وفى توصية الأب المسئول عن المجمع، وقال الأب أبيفانيوس:

أريد ان تعلمه كيف يصلى ، وكيف يقرأ الكتاب المقدس،حدثه–أرجوك– عن سر التوبة والاعتراف ،وعن سر الشكر ،لكى يكون مستعداص للاعتراف السبت والتناول الحد القادم.

فانحنى الآمر مجيباًمطيعاً، ثم يمضى وجيمى يتبعه..

والتفت الأب ابيفانيوس إلى المعلم برسوم قائلاً:لدىّ احساس قوى أن جيمى مظلوم ،ولكن منعا للسجن استبعدته عن البستان..

أجاب برسوم متألماً: لم اكن أعلم أنه خائن إلى هذا الحد..

فأكد العامل قائلاً، نعم.. فكيف تسول له نفسه ان يستهين بالكرم، وينافى الاملنة والرأفة بالدير؟

والحقيقة أن الذى حدث هو ان هذا العامل أراد أن يتخلص من وجد جيمى فى البستان ، لأنه شعر أن وجوده يبكت تقصيره ، ويكشف ضعفاته. فدخل فى هدوء الليل وسكينته إلى البستان، وهو يحمل فى يده (بلطة) ثم انتقى ثلاثة جذوع تعد من أكثر أغصان البستان إثماراً، ثم كمن طار عقله هوى بكل قوته عليها واحدً فواحداص، وبنفس الهدوء خرج لا يلوى على شئ قاصداً حجرته.

.. نعم لقد كان مهزوماً من كبريائه وشره، ففكر فى هذة الحيلة لكى يتسبب فى طرده من الدير او على الأقل من البستان.

فى يوم الجمعة وبعد أن انتهى جيمى من العمل فى المطبخ، ودعاه الأب الراهب–العامل معه– إلى قلايته فوافق على الفور، هناك فى القلاية قال له:

أخى جيمى لابد من التوبة يا أحى قبل أن تنصرم سنوات العمر، ونجد انفسنا فى مواجهة مع الله .. ماذا نصنع؟ وكيف نعطى حساباًعما صنعنا؟

الحياة مع الله متعة لا تدانيها سعادة أخرى ، غداً امام الكاهن قر بخطسئتك، واكشف له افكارك لكى يرحمك الله وينقل عنك خطاياك، وتصير كلك نقياً، وتدخل فى عهد الحياة الأبدية بتناولك من الأسرار المقدسة.

أرجوك يا جيمى، تشجع فكلنا خطاهن والله لن يديننا لأننا لأخطأنا، ولكنه سيديننا غن لم نتب بعد ما أخطأنا.

واستطرد الراهب:لا بأس فى ذلك يمكنك اليوم ان تبدأ فى الصلاة معى لحبيبنا يسوع .ما رأيك؟

أجاب جيمى: موافق بكل سرور.

وفى القلاية وقف الراهب يصلى وجيمى منصتاً:

أيها الرب يسوع.. ما أعجبك، وماأقربك اليوم إلى قلبى.. انا لا استحقك، فقد وهبتنى أكثر ومما أستحق بل وأكثر مما أحتاج .. أخجلتنى بتسامحك وطول أناتك..

كم أنا مقصر، وكم أنت وفىً معى مداوم على اخلاصك لى..أشكرك لأنك تحبنى وتدافع عنى...

أطلب من محبتك لأجل اخى الواقف معى هبه رحمة من صلاحك، واعطه ان يسلك كما يليق..وتقدمه فى كل عمل صالح..

- باركنا

ورد جيمى بصوت يشبه خرير الماء

- آمين

- **طهرنا**
- **آمين**
- **قدسنا**
- **آمين**
- **ولك منا كل المجد**

وهنا اهتز المكان بشدة،وامتلأ بسحب كثيفة وفوجىءالراهب وإذا بجيمى ينطلق لأعلى ثم يختفى. فوقع مغشياً عليه.

ولا عجب فى ذلك، فقد كان الشاب الغريب جيمى(1) هذا .. هو المسيح ذاته..

---

(1) جيمى: كلمة قبطية معناها وجود

علامة على الطريق

.... ولكنه أصر على موقفه ، ولم يرق لدموع أمه أو يأبه لتوسلاتها ، وغادر المنزل ليستقل القطار المتجه إلى القاهرة ومنها إلى الدير .

وبكل بساطة ودون أدنى مناقشة قبله رئيس الدير ، و أفسح له مكاناً ليسكن بين الاخوة الجدد ، ولم يلتفت إلى تساؤلات الآباء الرهبان وتعليقاتهم .

وقد جرت العادة أن يتردد الأخ الراغب فى الرهبنة مدة لا تقل عن السنة ، يقبل بعدها فى الدير،إذا يتأكد الآباء من صلاحيته ومدى تناسب طريق الرهبنة له ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث بل قبله الأب الرئيس دون قيد أو شرط .

واستطاع هذا الشاب أن يسلك فترة الاختبار المقررة بحذر شديد لكى يكسب ثقة الرهبان وتأييدهم ، ثم ماهى إلا شهور قليلة حتى ترهب مع اثنين آخرين ، و أما هو فأسموه ببنودة (1)

ولم يمر شهر واحد على رهبنته (ارتدائه الملابس الرهبانية): حتى ضج الآباء منه .

فقد كان يتصرف بحرّية ! ، وبدأ يظهر عليه التوانى والكسل ، ولم يحفظ طقسه .

فمن تعليقات علمانية إلى هزر سخيف ، إلى مقاطع من أغنيات عابثة كان يرددها بين آن و أخر ..

فى حين أن القديس يوحنا الدرجى يقول :

" الراهب هو الجسد المنقى والفم الطاهر والذهن المستنير "

إذا تكلم : علا صوته و أحدث جلبة ، وإذا جلس : فمع الزائرين والعمال يتحدث فيما لا ينفع

ويذكر الأب سلوانس أنه دعاه ذات مرة ليصلى معه القداس الإلهى فقابل دعوته بالسخرية !

كذلك عندما إقترح عليه الأب بيصايون أن يجلس ليقرأ معه الكتاب المقدس ، أشاح بيده فى الهواء مستخفاً وضاحكاً ضحكة لا تليق .

وأب اعترافه فى كل هذا وذاك : يتمزق من الداخل ، فلا تدبير قد نفع معه ، ولا توجيه قد خضع له .

---

(1) ببنودة كلمة قبطية مأخوذة عن بفنوتى أى الخاص بالله .

إلحّ عليه بالصوم فلم يحفظ بطنه ، وأشار عليه بضرورة الصمت فلم يستطع كذلك أن يحفظ لسانه فى فمه ، بل أطلقه على الكل !

وبين آن و آخر كان يردد على مسامعه قول الشيخ يوحنا الدرجى

" قدم أتعاب شبابك للمسيح حتى تتمتع بنعمة اللاهوى (كسر المشيئة) فى شيخوختك " .

ولكنه رأى فيما بعد أنه من المناسب أن ينبه رئيس الدير إلى خطورة الأمر ، وضرورة النظر فى شأن ببنودة ، لا سيما و أنه لم يعترف منذ ثلاثة شهور : إذاً فالخوف من هلاكه أمر وارد .

ووعده رئيس الدير بالتبصرّ فى الأمر .

وفى اليوم التالى تقابل الأب الرئيس مصادفة مع ببنودة ، فقال له فى اتضاع شيخ : "لا تنس يا أبانا أن الصبر فى القلاية يرد الراهب إلى طقسه ..".

ولكن وكما بدا للشيخ أن ببنودة اعتبر أن القول موجّه إلى شخص آخر .

والعجيب أن قلايته والتى لا يطيق الجلوس فيها ، كانت تحوى كتباً عديدة و مجلدات نادرة ، كذلك فقد تزينت حوائطها بصور حشد كبير من القديسين ، إلى جوار ما لا يقل عن الثلاثين لافتة ما بين آيات و أقوال آباء ...ولكنها كانت للديكور فقط !

وتضجّر الآباء منه ، ومنهم من صارحه ، لا سيما عندما كانوا يشاهدونه يقضى أغلب وقته فى

طرقات الدير ، يجر رجليه جراً من موضع لآخر فى سآمه وملل ..

كذلك شكا الأب المسئول عن المطبخ إلى رئيس الدير ، بسبب تواجد ببنودة الدائم فى المطبخ وإلى جواره ، مما يعطل العمل ويعثر العمال والضيوف .

ولكن أصعب ما فى الأمر أن يترك القداس الإلهى أو صلوات السواعى ليتمشى فى ساحات الدير .

وبقى رئيس الدير صامتاً كعادته ، لا يعلق ولا يعاتبه أو يعاقب،وأما ببنودة فماض فى غيه...

أخيراً طلب الآباء إلى بعضهم البعض ، أن تقام طلبات خاصة لأجل أخيهم المعذب فى هذا الآتون: لعل اللة ينتشله .

وثابر الآباء على الصلاة والطلبة فى كثير من الصبر ، ولكن بدا وكأن الله لم يسمع لهم !

مضى عام كامل ، والأمور كما هى تسير من سىء إلى أسوأ مع الراهب الشقى ببنودة ، واضطر رئيس الدير أخيراً إلى معاقبته ، ولكن لم تفلح أيضاً هذة الطريقة فى استمالته إلى حياة القداسة .

وفى أوائل شهر أمشير ، انعقد المجمع و أقر الآباء طرد ببنودة من الدير ، وذلك بقصد أن يثوب إلى رشده ويرجع عن سيرته الرديئة إلى رتبته الأولى ....ولكنهم مع ذلك تركوه شهراً كاملاً قبلما يخبروه بقرارهم ..

بعد انعقاد المجمع بأيام خمسة ، وعندما أرخى الليل سدوله ، طلب ببنودة من الأخ بلامون أن يوقظه بعد ساعتين ، لكى يرتب القلاية وينظفها ...

و ذهب لينام ..ولكنه بعد قليل شعر برغبة غير ملحه للصلاة ، فقام متثاقلاً و أمسك بالأجبية ليصلى صلاة الستار .. بعد أن نفض عنها الغبار .

وما أن وصل إلى المزمور السابع أو الثامن حتى شعر بشيىء من الصداع فى رأسه ، وحقيقى أن هذا لصداع كان يأتيه من وقت لآخر ، وكان فى كل مرة ينصاع له ويهب نفسه الراحة ، ولكنه حاول فى هذة البيلة ألا يعتد به وأن يثابر على الصلاة – لا سيما و أنه فرح بانه لا يزال فيه بقية راهب ! ولكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً .

وازداد الصداع ، فتضجر ببنودة و ألقى الأجبية جانباً ، ووقف صامتاً لعل الألم يخفض ، ولكن الصداع ألحّ عليه .

فأمسك برأسه بين يديه و ضغط بكل قوته ، ثم خرج من القلاية متثاقلاً ولازالت رأسه بين يديه ، إلى أن وصل إلى قلاية الأب اسحق المسئول عن العمل فى صيدلية الدير المتواضعة المحتويات .

و أمام قلاية الأب اسحق خشى الأب ببنودة أن يظن أنه جاء كعادته فى كل يوم للتلكؤ ولطلب المزيد من الحقن والأقراص ، التى كان يأخذها دون أن يكون فى إحتياج إليها .

وإذا تمنىّ من كل قلبه ألا يجول هذا الخاطر فى فكر الأب اسحق : طرق الباب متوسلاً أنه متألم بالفعل فى هذة المرة .

وما أن سمع خشخشة خلف الباب حتى اطمأن قلبه ..

فوجىء الأب اسحق ببنودة فاغراً فاه ، وعينيه نصف مغمضتين وقد طوّح برأسه قليلاً إلى الوراء ماسكاً إياها بكلتا يديه ، وبدا للأب ببنودة أنه قد رق له .

وببشاشته المعهودة وكلماته الرقيقة ، رحب به ودعاه للدخول ولكنه اعتذر مشيراً إلى رأسه ، ثم قال فى صوت خفيض : أنه يحتاج إلى الراحة بعدما يتكّرم عليه بأى مسكن .

ودلف الأب اسحق إلى الداخل ليخرج ومعه شريطاً من الأقراص المسكنة وناوله إلى الأب ببنودة الذى أخذه بدوره شاكراً ، وانطلق إلى قلايته لا يلوى على شىء .

ولكن لم تمر ساعة واحدة حتى عاد أدراجه إلى باب قلاية الأب اسحق ، يطرقه فى إلحاح وخجل.

وفتح له مرة أخرى ليجده فى حالة لا يحسد عليها ، فقد كان يتلوى من شدة الألم ، فأغلق الباب خلفه فى هدوء ، ومشى معه متجهاً إلى الصيدلية ، وفى طريقهم مروا على الأخ بلامون (والذى كان يعمل طبيباً أيضاً).

فى الصيدلية وعلى السرير الموضوع هناك ، استلقى ببنودة يتجرع آلامه بينما وقف الاثنان يتشاوران بالانجليزية ، و أعطياه حنة مسكنة للألم ، صحباه بعدها إلى قلايته وتركاه هناك بعد أن وعداه بعرض الأمر على الأب الرئيس حتى يأمر بعرضه على الأطباء المتخصصين بالقاهرة .

وكانت ليلة قاسية تلك التى قضاها ببنودة ، إذا لم يذق فيها طعم النوم ، بل صار يزرع الغرفة ذهاباً و إياباً ، إلى أن ناداه الأب اسحق قائلاً إن السيارة التى ستنقلهما إلى القاهرة : جاهزة .

فى المستشفى التخصصى قال الاستاذ بعد الفحص الدقيق : بسيطة ..التهاب خفيف ..

وأوصى بحقنة كل يوم وكبسولة مضاد حيوى كل ثمانى ساعات . ثم أضاف (فى الروشتة) : راحة تامة فى السرير ، ممنوع القيام بأى مجهود ..

وفى طريق العودة إلى الدير ، بقى ببنودة صامتاً ، لم يتكلم سوى مرة واحدة قال فيها للأب اسحق : سامحنى . تعبتك ..

ورد الأب اسحق فى بشاشة كمن يستنكر : لا تقل هكذا أنا أخذت بركتك (ألف سلامة لك).

وفى الدير كان الأب اسحق يطمئن كل من يسأله قائلاً : بسيطة .. خير ..

وابتدأ ببنودة يعود إلى نفسه ويتذكر تهاونه ،و إساءاته إلى اخوته .. ترى ماذا لو أنهى هذا الألم حياتى ؟ (هكذا حدّث نفسه).

كان يبكى مرة من الألم ومرات من الندم على توانيه وعلى الشرور التى صدرت عنه ، و دأب على أن يطلب إلى كل من يقابله – بضراعة وانسحاق – أن يصلى لأجله .. ويلتمس مغفرتهم ، وهم بدورهم يطمئنونه بأنه أخوهم و بأنهم متأكدون من أن محبتهم راسخة فى قلبه ، ومن ذلك :

أنه بينما كان الأب ويصا يعاوده فى القلاية ، قال له :

– أرجوك يا أبى أن تغفر لى من قلبك شىء اعترف لك به ، فأنا الذى أخذت كتاب ميامر ماراسحق الخاص بك ، وقمت بتغيير علافه لأضع اسمى فوقه بدلاً من إسمك ، سامحنى أرجوك ، أغوانى الشيطان وانسقت إلى غوايته ، والكتاب موجود فى الطاقة التى خلفك ، ويمكنك الآن أن تأخذه لكى يستريح ضميرى .

الأب ويصا : هو لك أيضاً ، ولا فرق بينى وبينك ، وسيظل عندك واعتبر أن كل ما عندى هو لك

ببنودة وقد انفجر باكياً من التأثر : إن لم تأخذه فلن يكون لى نياح (1).

الأب ويصا : إذاً استسمحك فى نقله إلى مكتبة الدير العامة

– ليكن .. المهم أن يخرج من قلايتى ..ويرتاح قلبى

– أود أن يكون لى مالك من الرقة والضمير اليقظ .

ومرت خمسة أسابيع ، وصحة ببنودة تتأرجح بين التقدم و التأخر .

وازداد الألم ، وزدات شكوته ، وعاد الآباء يطمئنونه أنهم سيطلبون إلى الأب الرئيس أن يسمح بعرضه على فريق آخر من المتخصصين بالقاهرة ..

ويجيب ببنودة بعينين ملؤهما الشكر و الأمل .

فى المركز الطبى الجديد : قال استاذ جراحة المخ والأعصاب :

"لابد من عمل أشعة للتأكد إن كان هناك أية أورام فى المخ ".

ثم عاد الطبيب ليسأل ببنودة عما يشعر به ، فقال أنه يشعر منذ أيام بأن الأشياء تهتز أمام عينيه ، أو يرى الشخص شخصين ، وأنه فاقد الشهيّة فى أغلب الأوقات ، وأنه يقوم من النوم على أثر آلام شديدة فى رأسه من الخلف ، كما لم يحدث أنه نام – خلال الأسابيع الثلاثة الماضية – أكثر من ساعتين متصلتين .

على أحر من الجمر كان الأب اسحق والأب ارسانيوس ينتظران نتيجة الأشعة ، نعم فقد كان يساورهما الشك فى الأمر .

وجاءت نتيجة الأشعة لتقع وقع الصاعقة على اثنيها : ورم خبيث .. malignant tumour

ونظر أحدهما إلى الآخر فى ذهول وتأكدا أنها حالة سرطانcarcinoma (نوع من السرطان).

وبالطبع لم يكن ببنودة معهما ، ولكنه سمعهما من الداخل ، وتظاهر بأنه لم يسمع شيئاً ، وحفظ الأمر فى قلبه .

وفى الطريق إلى الدير : حاولا بث روح الفرح والرجاء مطمئنين اياه .. وحاول هو أيضا أن يجاريهم كأنه يستجيب لملاطفتهم .

وبدأت جلسات العلاج – أشعة راديوم Radium-للقضاء على الخلايا السرطانيه ، وبدأ شعر رأسه يتساقط بعد أول جلسه باسبوع واحد .

كان ينزل إلى المركز الطبى كل خمسة عشر يوماً ، ثم يعود بعد الجلسة إلى قلايته يجتر آلامه النفسية والجسدية معاً .

وتمنى من قلبه أن يصنع اللة معجزة معه ويشفيه ، ووقتها سيعود إلى السيرة الملائكية ، ويترك عنه العبث الصبيانى ، ويعوض كل ما فاته ، ويحب اخوته ويبذل لأجلهم ..

كان يشتهى ساعة واحدة يستطيع أن يمشى فيها دون مساعدة أحد .. أو يقف ليصلى بمفرده .

" نعم سأضبط نفسى ولسانى .. واحفظ الكتاب المقدس عن ظهر قلب " هكذا صلى باكياً.

وطلب إلى الكل بإلحاح أن يقيموا الصلوات لأجله .

ولكن الألم سخر منه وتعقبه فى كل وقت ، وفوجىء ذات يوم بأنه لايرى ! وفزع لذلك ..وصرخ صرخة مدوّية ، ولكن الألم فى رأسه كان أقوى فأنساه ظلام عينيه ..

فى آخر جلسة قال الطبيب للراهب اسحق بصوت خفيض : it's hopeless..وسمع ببنودة فى هذة المرة أيضاً ، وكان يخفى عنهم أن له بعض الالمام بالانجليزية ...فهم أنه لا أمل ..

واستطاع فى ذلك اليوم أن ينفرد بالطبيب حيث قال له : أرجوك ، أنا راهب ، والمفروض أنى ميت : فلا أخاف الموت ، كما أنه لا زوجة لى و لا أولاد أقلق بسببهم ، فهلا صنعت معى إحساناً وصارحتنى بالحقيقة ؟

و أعدك بأننى سوف أتقبلها كراهب شجاع يريد الانطلاق إلى الله . وتردد الطبيب محاولاً التملص من الاجابة ، ولكن ببنودة ألح عليه ..

وإزاء هذا الإلحاح والإصرار قال الطبيب وكأنه يلقى بقنبلة :

قدسك مصاب بسرطان فى المخ ...

فقال ببنودة بهدوء : عرفت ذلك ولكن اسألك عن الأمل فى الشفاء .

فرد الطبيب غير المستطاع عند الناس مستطاع عند الله والله أرنا فى حياتنا الطبية أنه قادر على صنع ما يعجز عنه الطب ..."شد حيلك يا أبونا ".

أرسلوا له ذات يوم ، أن أسرته الجسدية بالخارج يطلبون مقابلته ، وارسل يعتذر لهم .. ولكنهم أصّروا ، ولما لم يستطع بسبب تضعضع صحته (استسمح الآباء رئيس الدير) لكى تتمكن أسرته من زيارته فى قلايته (1)

وكان لذلك فائدتين : الأولى وفير التعب المضنى الناجم عن تحركه حتى بيت الضيافة،والثانية لكى لا تلاحظ اسرته إنه فاقد البصر ..

وقد أوصوا أمه أن الزيارة يجب ألا تزيد عن العشرة دقائق ..ووافقت ووعدت ..

---

(1) معروف انه ممنوع على العلمانيين دخول قلالى الرهبان

ولم تعرفه والدته ، فقد شحب لونه ، وهزل جسمه ، وقد أبصرت إلى جواره علباً لا تحصى من الأدوية ، فإختلجت مشاعرها وبكت فأبكته معها ، رقت له واستفسرت عن الأمر ، وحاول هو بدوره أن يطمئنها بأنه صداع شديد وسوف ينتهى إن شاء الله .

وغادرت وهى متأثرة جداً.

إشتد الألم أكثر فأكثر،لدرجة أن ببنودة كان يضرب رأسه فى الحائط فى يأس قاتل ، وكثيراً ما كان يطرد الأباء – الجلوس حوله – من قلايته ، لا لشىء سوى لأنه لم يعد يطيق حتى نفسه .

وتمادى الداء فى إيذائه ، فقد بدأت الخلايا السرطانية فى إتلاف مراكز السمع والذاكرة معاً .

وأقعده اليأس فى الفراش ...لا يتكلم لأنه لا يسمع ونادراً ماكان يأكل أو يشرب .

ثم بدأ يفكر أكثر من ذى قبل فى أبديته وذلك كلما حضرته الذاكرة ..

نعم،فهو يعرف جيداً أنه الآن قاب قوسين أو أدنى من الموت .

ولما رغب ذات يوم فى التناول من الأسرار المقدسة ، انتبه الآباء إلى أن قلايته تبعد إلى حد ما عن الكنيسة مما يمثل جهداً فائقاً فى الوصول اليها , فاستاذنوا احد الاباء و كان يسكن بجوار الكنيسة لافساح مكانه للاب ببنودة لكى يتسنى له دخول الكنيسة بمجهود قليل .

و كان يحتاج عند دخوله الى الكنيسة الى ثلاثة من الاباء لكى يعاونوه و لكنه لم يكن ليستطيع الجلوس اكثر من نصف ساعة و كثيرا ما تململ فى جلسته و طلب الرجوع الى القلاية و كان عند ذلك يتذكر كيف كان يترك القداسات و يجلس على المصطبة الطويلة الكائنة خلف مكتب الدير

و تناوب الاباء على خدمته و السهر على راحته و خدمته و كان يعاملهم فى ايامه الاخيرة معاملة خشنة و ذلك دون قصد منه ثم يعود ليعتذر منهم و هم بدورهم يابون بذلك عليه و عليهم

واذ لاح لمن الدير ان النهاية باتت وشيكة و بدا انه لا يستجيب للعلاج اشار عليهم احد الاباء الاساقفة اجراء جراحة له فى المخ .

و حقيقى انها مجازفة و لكن لئلا يلاموا من ضمائرهم فيما بعد نعم قالوا لا مناص من الجراحة

و تمت الجراحة و انتظروا النتيجة بكثير من القلق و الارتياب و لكنهم انتظروا طويلا لعله يفيق من تاثير المخدر.

ولكنه لم يفق فى حين ان قلبه مازال ينبض و المخ ماض فىاعطاء اشاراته المعروفة ....هى غيوبة اذن...

والحقيقة انه لم يكن فى غيبوبة ولكنه لم يستطع ان يحرك راسه .

واسرعوا بنقله الى الدير ليتنيح هناك على حد تعبيرهم...و كان هوبين الحين والاخر يفتح عينيه اللتان لا تريان او يتمم ببعض كلمات غير مفهومة .

وبعد يومين و بينما كان الاب الرئيس يعاوده فى قلايته سال الاب اسحق بالنجليزية عن الحال.

فاجاب اسحق و غصة فى حلقه it:s end ايام قلائل لا غير و ربما ساعات .

شعر ببنودة و هو يصارع الموت بان الوجوم سائد على كل من بالدير و انهم كانوا يطلبون له الراحة من اتعابه لا سيما كلما سمعوا صرخاته المسعورة و هم داخل الكنيسة ...

و كان فى اليوم الاخير يرتمى فوق الحصير يصرخ و يشد فى لحيته و الاباء من حوله بين مشجع و دامع و باك.

واخيرا لاح للكل ان النهاية فى طريقها اليه او بالاحرى هو فى طريقه الى التهاية .

واجتمع الاباء عنده يعزون و يشجعون ينما هو يرفص برجليه و يهذى بكلمات رديئة و غير مفهومة و فيما هم يتبادلون سير الاباء و اقوالهم كان ببنودة يحتضر.

و عاد الباب ليطرق من جديد فى شدة وإلحاح وفتح ببنودة عينيه و جعل يفرك فيهما و تحسس راسه....و اذ هـ يحلم !

فقام مفزوعا و ضرب الغطاء كل قوة قدمه و قفز كمن صعقه التيار ليفتح الباب للاخ بلامون .

ووجد بلامون ليقول له : اخطات يا ابى كان يجب ان اوقظك من ساعة كطلبك الى و لكنى نسيت ذلك .

و لم يرد ببنودة بل انفجر باكيا .

+++

وفى العام الماضى مضيت الى الدير المذكور للتبرك من قديسيه و رهبانه .وطلبت من الاباء هناك ان يمكنونى من مقابلة احد الشيوخ لاكشف له افكارى و انتفع بخبرته و ابوته .

و انتظرت طويلا قبل ان ياتينى الاب ببنودة ...تشع من وجهه القداسة و الملائكية ...وتحدثت معه قليلا ووجدت راحة ليست بقليلة ...ولكنه بعد دقائق استاذن منى معتذرا عن عدم امكانه المواصلة فقد الم به صداع خفيف !

فقراء.. ولكن

...فحين طابت لباسيليوس المعيشة هناك فى الدير و رفض الرجوع الى امه و اخته ارسل اليهما متوسلا ان يتركاه فى الدير ليكمل حياته فيه .

و لم تكن امه تتوقع انه لن يعود من تلك الزيارة و لذلك سمحت له ان يرافق زملاءه الخمسة فى رحلتهم الى الدير و اما هم فقد عادوا بعد ستة ايام و اما هو فقد تشث بالحياة هناك و امسك بقرون الدير.

وكان سنه لا يتجاوز السادسة عشر حين ارسل لها يقول :

..."علمت انك تحبين القديسين و ترفضين مجد العالم و مظاهره و علمت انك رغبت سابقا فى الالتحاق بدير القديسة يوستينا للراهبات حينما كنت لا تزالى صغيرة و لكن اسرتك الحت عليك و توسلت فقبلت الزواج ....

وعلمت انك شغوفة بسير الاوائل و جل اهتمامك ان اكون واحد منهم .....

فهلا سمحت لى ان احقق غايتى و امنيتك من قبل ؟ ارجوكى و اتوسل اليكى و اقبل قدميكى لا تدعى رابطة الدم تحول دون سعادتى و سلامى" .

وحالما وصلت اليها هذه الرسالة صرخ نداء العاطفة داخلها و صرعها فقامت لفورها تسعى الى الدير فى نفر قليل من العائلة..

وفى الطريق احتاج الامر الى المبيت... و حدث فى تلك الليلة ان رات ولدها قابعا فى حضن شيخ مهيب وقور تبدو عليه سيماء القوة والاتضاع معاً، عرفت فيه القديس ثيؤدوسيوس شفيع الدير المذكور ورأت كلاهما فرحين وسمعتهما يرددان لحناً تعرفه هى جيداً ثم رأت سيدة تحاول

أن تنتزع ولدها من بين يدى الشيخ والشيخ بدوره يتوسل إليها أن تتركه.

واستيقظت من النوم، وبدت ساهمة طوال اليوم، ما عسى أن يكون هذا الذى رأت؟!

عندما وصل الركب إلى الدير علم ابنها، فهرب الى المغارة التى كان يسكنها قبلاً البار أبوللو، ولم يرد أن يقابلها لكن أب الدير نصحه بالحضور، وقد كان له فى ذلك غاية. وهى أن يعرف مدى محبة باسيليوس للدير، وإصراره على الحياة فيه وقدرته على ضبط عواطفه.

وحالما رأته أمه جرت نحوه كالمجنونة وإنفجرت باكية تحتضنه وتغمغم بكلمات غير واضحة، وأما هو فقد كان ناظراً لأعلى متماسكاً رزيناً، ثم انسحب برفق من قبضتها وأخذها وأجلسها إلى جواره وتركها دقائق ريثما تكفكف دموعها. وأما هى فأردفت تقول:

– هل هُنّا عليك بهذة البساطة..؟

– لا يا أمى فمحبتكم ما تزال فى قلبى ثابتة.

– فلماذا تركتنا ونحن أحوج ما نكون لك فى هذه الأيام، ألعلى ضايقتك فى شئ؟

– أبداً يا أمي.. وأنا أثق فى أن اللـه معك وهو يعولنا جميعاً.

– (وقد لانت قليلاً) ما رأيك فى أن تأتى معنا، وسأتركك حالما تتزوج أختك!

– بارك اللـه فى أفراد العائلة

هنا وتدخلت إبنتها لتقول فى وداعة: لا تلقى بالاً إلىّ يا أمى فسعادة أخى أمر يهمنا أيضاً، وأرى أنه من الأنانية أن نسعى لراحتنا فقط.

ثم تدخل الرفاق أيضاً ليثنوا باسيلى عن رغبته، ولكنه بوداعته وحجته جعلهم يتراجعون..

وعادت الأم لتبكى قائلة: إذاً تعالى امكث معى حتى أموت وتدفننى ثم بعد ذلك إفعل ما يحلو لك!

واختجلت المشاعر فى داخل باسيلى ولكنه ضبط نفسه وكظم الألم النفسى فى داخله، وصمت قليلاً حتى يستعيد شجاعته وهدوئه ثم قال: (ربنا يطول لنا فى عمرك) وعادت لتبكى وتقرع صدرها وتقول: لن أغادر هذا المكان إلا وأنت معى..

فابتسم باسيلى قائلاً:

إذاً إبقى معنا!

وهنا دخل الأب أغسطينوس ليستأذنهم فى أن يتركهم باسيلى قليلاً.

وإلى أن حلّ المساء لم يكن باسيلى قد عاد لهم.. وأما هم فاستعدوا للنوم، وعادت الأم ترى فى نومها نفس المشهد الذى رأته فى الطريق إلى الدير، نفس الشيخ ونفس السيدة التى تحاول أن تنتزع ابنها من بين يديه.

ولست أعلم ما حدث بالضبط.. إذ عندما استيقظت باكراً، أيقظت أفراد المجموعة وحثتهم على مغادرة الدير. وفيما هم يجمعون متاعهم كانت هى قد أخذت ورقة وقلماً وراحت تكتب:

"ولدى وقرة عينى:

نزلت على رغبتك وكأنى تركت قلبى هنا ودمى، لا عن رضى ولكن رغماً عنى، وقسر إرادتى، ومنذ الآن لن تكون لى خصومة مع الله.. ولكن خصومتى ستكون مع نفسى، فإذا حققت مرادك من المجئ إلى هنا، فقد أثلجت قلبى حية وأرحت عظامى فى قبرى، تركت قلبى عندكم.. وتركت أنت ذكراك لى، سأجاهد ما بقى لى، حتى أقدمك ذبيحة عقلية للمسيح، فإن أنا مت فلى رجاء: أن تذكرنى فى كل ترحيم بالقداس الإلهى..

الرب أعطى والرب أخذ ليكن اسم الرب مباركاً..

" المسكينة أمك"

وفى ركن من القلاية وقف باسيلى مدمع العينين وهو يمزق رسالة فى يده، وقد بقى شارد الذهن لبضعة أيام قبل أن ينسى ما حدث، وينظر إلى الأمام.

كان الأب مرقس – وهو الأب الروحى للدير – قد تجاوز الأربعين من عمره حين تبنى باسيلى منذ أن دخل إلى الدير، واعتبر أنه لازال عجينة طيعة يمكنه تشكيلها حسبما يريد، فابتدأ معه منذ البداية ينصحه ويرشده ويساعده فى اقتناء الفضائل، يركز على فضيلة المحبة مثلاً خلال السنوات الثلاث الأولى.. ثم الاتضاع ثم..

وأخذ على عاتقه أن يراقبه عن كثب ويوجهه أولاً بأول، ويعلمه كيف يواجه الأفكار وكيف يتخلص من هجمات الشيطان. ثم كيف يخطب ود ومحبة من حوله.

وتتعجب.. كيف بسهولة ويسر قد صار خادماً للكل، ويجد سعادة كبيرة فى مساعدة الآخرين وكيف كان يجول يصنع خيراً.

وأما دراسته للأسفار فقد جعلها سراً لا يعرفه من حوله كذلك فقد حفظ بعض الأسفار عن ظهر قلب.. ولكن أكثر ما برع فيه هو أقوال الآباء وسيرهم، وكان سيل منها يتدفق عبر فمه على الدوام.. كذلك كانت له علاقات قوية ببعض القديسين.

ومرت سنوات وسنوات، وباسيليوس فرح بحياته فى الدير ينمو باطراد يوماً بعد يوم حتى لقد كانوا يسمونه "عروس الدير".

ولكنه على أية حال لم يسلم من التجارب والاهانات تلك التى يسمونها إكليل الراهب. فى البداية كان يتضايق من الداخل، دون أن يظهر شيئاً من ضيقه لمن حوله.. كانت الآية الذهبية التى تداعب شفتيه على الدوام "طلبت وجهك – وجهك يارب أنا التمس".

ولكنه اعتاد مع الوقت ألا يتأثر من الخارج أو من الداخل بل صار يتقبل كل ما يحدث بهدوء وبساطة..

حدث ذات يوم أنه نسى أن يمر على قلاية أحد الآباء ليعطيه نصيبه من الفاكهة، فقابله فى اليوم التالى، ووبخه بشدة واتهمه بالتقصير وبأنه مرائى ومخادع وكذّاب.. فصنع له الأب باسيليوس مطانية.. وأما الآخر فقد استخف به! فعاد إلى قلايته يبكى وهو يصلى ويقول:

"اغفر لى يا رب فقد أعثرت أخى، واضطررته للوقوع فى الخطأ.. اقبل توبتى، وليقبل هو الآخر توبتى".

وكان يقول لنفسه أيضاً فى مثل هذه الظروف.."لو كنت صالحاً لما تضايق منى (فلان) ولو كنت حكيماً لتصرفت على نحو أفضل.."

حدث أيضاً أن كلّفه رئيس الدير ذات مرة، بإحضار بعض الخوص من مكان به نخل كثير يبعد عن الدير حوالى كيلو مترين، وحدث عند عودته وكان ليلاً أن هاجمه أثنان من اللصوص وهجماعليه وأوسعاه ضرباً، آملين أن يأخذوا ما ظنا أنه يخفيه بين طيات ملابسه – ولكنهم عادوا فتركوه والدم ينزف من بعض أجزاء من جسمه..

وأما هو فأخذ طريقه إلى الدير فى بطء حاملاً حزمة الخوص. وقد لازم الفراش ثلاثة أيام قبل أن يستعيد قوته.

وعاش سعيداً.. فى ملء التعزية وسلام القلب، يشعر أن يومه أفضل من الأمس وغده سيصير أفضل من يومه واقترح عليه الأب مرقس – أبوه الروحى – أن يدخلا معاً مرحلة أخرى من الجهاد، فاتفق معه على أن يتصور الأب باسيليوس نفسه وقد ألمّت به بعض التجارب الجسدية.. من ذلك أن يتصرف على اعتبار أنه أعمى!

فكان يختار بعض الأوقات التى تخلو فيها بعض الممرات والسلالم من الحركة ومن الآباء.. ثم يمشى بها كأنه فاقد البصر، ويستعمل فى ذلك عصا ترشده، كذلك كان يتدرب فى قلايته على أن يأكل وهو مغمض العينين .. ويصلي كلك ويقضي بعض أموره.

وجدير بالذكر ان أحد الآباء في ذلك الدير قد فقد بصره نتيجة ندرة الطعام.

ومن هنا عكف الأب باسيليوس على حفظ أجزاء أكثر من الكتاب المقدس و المزامير والتسبحة وأقوال الآباء يتلوها عن ظهر قلب.

وتخيل أيضا أنه أعرج .. وجرب أن يمشي بعصا يتوكأ عليها, وتعلم من ذلك أن يسير بهدوء بعد أن كان قد حاول مراراً ولم يستطع إذ كانت حمية الشباب تجعله يمشي بنشاط زائد.. وهكذا جرب أن يشارك المعوقين حياتهم بالنية .. وصار مستعداً لأي تجربة يسمح له الله بها..   ومر باسيليوس على كل اعمال الدير تقريباً , أخذ بركتها و بذل مجهوداً كبيراً في كل موضع.. فقد عمل(بالمجمع) لفترة تزيد على السنتين .. لم يكتفي خلالها بتجهيز طعام الآباء والضيوف و العمال فحسب , وإنما أهتم بصفة خاصة بالشيوخ و المرضى, كان يعرف أنهم يحتاجون إلى أنواع معينة من الطعام وطرق خاصة في تجهيزه..

وكان يمكنك في تلك الفترة أن تراه وهو يحمل طبقاً إلى قلاية هذا.. وخبزاً إلى ذاك.. وينتظر ثالث حتى يأكل..

كان أسعد ما يكون عندما يطلب إليه أحد الآباء شيئاً خاصاً , ثم يدعو له بالبركة.. والأبدية .. ولذلك أعتاد أن يعمل كل يوم حتى آخر النهار, وبين حين و آخر كان يتسلل إلى قلايته يصلي تارة و يقرأ تارة ..

كذلك عندما عمل في المخبز .. وفي مزارع الدير . زاشتهر ببشاشته وحكمته في إستقبال زائري الدير،ولباقته في صرف الذين لا يستطيع الدير إستقبالهم واستضافتهم , لقد كان صورة مشرفة للدير ،ومثلاً حياً للمسيح المنظور , وكما إعتاد الزائرون السؤال عنه, إعتاد هو أيضاً الهرب من الضيوف, عندما أسند إليه الدير عملاً آخر لا يتعلق بالزوار.

كان نشيطاً محبوب , غيوراً, أحب التسبحة وعشقها. وأحب أن يكون أول الحاضرين في الكنيسة بعد دق الناقوس, وفي محبته للكنيسة استأذن الأب الكنائسي في أن يدخل في الخفاء لينظف الهياكل, ويزيل بقايا الشمع ويرتب الكتب ويمسح الأيقونات ,ويسرج القناديل,كما إعتاد مساء كل يوم أن يمضي إلى

الكنيسة ليتبارك من جسدي القديس ثيدوسيوس والقديس بارثلماوس الشهيد , والمرور أيضاً على الأيقونات لتقبيلها.

وروى عنه الأب مرقس, فقال أنه كان يخصص وقتاً في كل يوم ليصلي فيه لأجل العالم ... لأجل الحروب و الزلازل و المجاعات .. ومن أجل المسجونين و المرضى و الفقراء, والذين في الضيقات, وكان يشعر أنها مسئولية يجب أن يحملها على كاهله وأن يكون أميناً فيها..

وإزاء هذا النمو المطرد في حياة هذا الأب والظهورات الكثيرة التي كان يتمتع بها،والقامة ا التي وصل إليها .. بدأ الأب مرقس يخشى عليه, فإستدعاه ذات يوم ليقول له:

حياتك الروحية في خطر , ويلزم لإنقاذها أن تحتمل ما أشير به عليك.

فأنحنى الأب باسيليوس خاضعاً منصتاً و قال :سوف أطيع صوت الله على لسانك يا أبي .. فقداستك علّمني سابقاً أن الطاعة تخليني مسئولية الطريق.

قال الأب مرقس: إذاً أنصت إليّ جيداً.

كان الأمر بالنسبة للأب باسيليوس مفاجأة غير متوقعة وتجربة لم يمر بها شخص من قبله، ولكنه قبل دون تردد واستعد للقيام بالمهمة.

فقد كان عليه أن يترك الدير ويتجه نحو إحدى المدن متخفياً في صورة إنسان عادي كباقي الناس ،يبحث عن عمل و الجدير بالذكر أن الرهبان في ذلك الوقت لم يكونوا يرتدون ثياباً مميزة،بل كانوا يظهرون في أية ثياب , كما كانت عادة إطلاق اللحى منتشرة بين العامة من الناس في ذلك الوقت أيضاً.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يترك فيها الدير .. فقد عاش فيه مدة ثلاثة وعشرين عاماً لم يغادره مرة واحدة..

ولذلك بهرته الأضواء والزحام والحركة الدائبة والأصوات الصاخبة غير المنقطعة في مدينة ماتيان

في اليوم الأول وقد كان متعباً من طول السفر, جلس بجوار بحيرة صغيرة ريثما يستريح .. ثم غافله الوقت فإذا بالليل يرخي سدوله .. فمد الأب باسيليوس يده إلى الصرّة الصغيرة التي حملها معه من الدير

فأخرج شيئاً يشبه السجادة وآخر يستعمل كغطاء .. كان كلاهما مرتقاً لكنهما نظيفان.

وبعد أن قدم صلاة ورشم ذاته بعلامة الصليب ورشم كل الجهات من حوله استسلم للنوم, وتعجب عندما أستيقظ ووجد كل شيء على غير ما ألف.. ولكنه عاد و تذكر أنه في المدينة و ليس في الدير.

وعند الظهر وجد ذاته مهدداً بالملل والضجر, فتمشى قليلاً يجمع بعض الليف والخوص ثم إختار شجرة باسقة نقل إليها صرتّه الصغيرة , وإختارها مكاناً يعيش تحته .. وابتدأ في عمل الخوص و ضفر الحبال.

وكان المسافرون المتجهون إلى سوق ماتيان يمرون به في ذهابهم وإيابهم, ولكن لم يلتفت إليه أحد. وفرغ الخبز الي معه واضطر أن يزحف قليلاً إلى الطريق خلال النهار لكي يبيع عمل يديه للمارة.

...وفي أحد بيوت البسطاء في القرية دار حديث بين رجل وزوجته, وقالت زوجته:

هذا أمر يرجع إليك, فإذا أحببت أن تأتي به ليعيش معنا فليكن ما تريد.

أجاب العجوز بطرس:

لقد أنت عليه أحشائي، وخفق له قلبي فمنذ عشرة أيام وأنا أراه جالساً تحت الشجرة صامتاً هادئاً لا يكلم أحداً.

-أما عرفت أسمه

- وكيف لي ذلك

-إذاً دعه يأكل من جفنتنا ويشرب من كوزنا وينام تحت السقف الذي وهبنا الله أن نأوى تحته

وفي اليوم التالي مر بطرس بالأب باسيليوس ووجده كعادته يعبث في بعض الليف وبجانبه قطعة حبل

- كيف حالك يا أخي

-أنا بخير أشكر الله

- سامحني فأين تنام ومما تأكل؟

- إن الله لا يضيع ما خلق ولا ينسى خليقته

- فأين الغرض؟

- الله هو غرضي وهو مقصدي وما طلبت في حياتي غير وجهه.

- هلا أتيت معي إلى بيتي والذي يعول الجميع يعولنا ويسترنا؟

- ولكني سعيد على أي حال

- فإذا كان الأمر عندك واحداً فلتأت معي , فليس هناك غير زوجتي العجوز ,ونحن نعيش وحدنا في منزلنا المتواضع, فإذا وافقت على المجيء معي, فقد أضفيت على حياتنا السعادة, وأفسحت لنا المجال لنخدم القديسين.

- أخشى أن أثقل عليكما بوجودي , فإذا ابتغيتما راحتي فاتركاني ههنا , وإذاألحّت عليكما فضيلة العطاء, فإن خبزة واحدة تكفيني كل يوم

– أتوسل إليك ،لا تردّنى ولا تكسر قلبى ، فقد كنت طوال الطريق إليك أمنى نفسى بهذه الأمنية، وقد صرفت حياتى فى التوانى والكسل وأريد أن يهبنى الله بركة بوجودك معنا..

– أرجوك.. سأكون مستريحا إذا ما تركتنى فى موضعى.

– إذا ما رأيك فى حل وسط .. ألا وهو أن نصنع لك كوخا من الطوب اللبن تعيش فيه؟

– لا مانع من ذلك والرب يكافئكم عن محبتكم ..

حينئذ بدأ العم بطرس فى إعداد الكوخ..وصار جاهزا للسكنى بعد أسبوع واحد.

فى اليوم الأول لخروجه من كوخه، مضى يتجول فى شوارع المدينة كأنه يبحث عن شئ ما، فما لبث أن سمع شخصا يناديه باسمه والتفت ليعرف مصدر الصوت فإذا به إثنان يحمل كل منهما قفة فى يده وطلبا إليه أن يتبعهما . فمشى خلفهما دون أن يعرف وجهتهما.. إلى أن أشارا إليه نحو الكنيسة ثم قال له أحدهما " تشدد و تشجع.. وكن جبار بأس .. وسترى كم سيصنع الله معك وبك .. وإذا احتجت يوما إلى الخبز.. فتعالى إلى هذه الطاقة (وهنا اشارا إلى طاقة فى جدار امامهما) ثم اختفيا من أمامه.

وأما هو فقد أخذ منه العجب مأخذا كبيرا .. وصار يفكر فيما عسى أن يكونا هذان الغريبان.. ولكنه على أية حال دخل إلى الكنيسة يصلى..

وكان القداس قد أوشك على الأنتهاء..فانسل إلى الداخل حيث وقف خلف أحد الأعمدة وراح يصلى فى نهم وسرور وظل فترة طويلة يصلى قبل أن جاء إليه خادم الكنيسة يسأله الخروج لكى يغلق الباب.. وأطاع.. بعد أن سأل عن مواعيد القداسات..

وحدث عند عودته إلى مكانه أن شاهد اثنان من الشبان يقذف إحداهما الأخر بكلمات رديئة. ثم مالبثا أن هجم الأول على الثانى وأوسعه ضربا.. فراعه المنظر ولم يصدق عينيه وتعجب من نقص المحبة بين الناس، انها المرة التى يجد فيها اثنين يحاول أحدهما التخلص من الأخر أو الانتقام منه. وحاول أن يتجه نحوهما.. ولكن سيدة فاضلة أسرعت إليه تنصحه بالابتعاد وتنهاه عن التدخل لئلا يلحقه أذاهما. بكى.. وبكى وتأثر وقضى بقية يومه ينتحب ويفكر فيما

رآه.. وحاول أن يطرد المشهد من مخيلته ولكنه أخفق، وعاد ليفكر فى الفرق الشاسع بين الحياة فى الدير والحياة فى العالم. أنه عالم مفتوح على غير ماكان يتوقع ، كل شئ فيه

مباح الضرب والسرقة والاتهامات والشتائم ..

وتذكر حينئذ ماحدث منذ عامين وهو لايزال بالدير ، كيف أن الأب أورانيوس أتهم الأب يوئيل بالإهمال! وكيف أسرع الأخر ساجدا نحو الأرض إلى أخيه طالبا العفو والنصح ، وكان صادقا فى إعتذاره وفى طلبه. وفليمون العجوز المحبوب الذى لم يكن فاه يفتر عن التشجيع والاشادة بفضل كل احد .

(انها بلا شك نقص محبة) هكذا حدث الأب باسيليوس نفسه وأحزنته افكاره فى تلك الليلة.. كيف سيواصل الحياة فى هذا العالم.. بعد أن ترك الفردوس(الدير).. إنه يخشى أن تتدنس أفكاره وتخور عزيمته،ويفقد العين البسيطة ونقاوتها.

ولكنه عاد ليذكر نفسه : إنه لابد أن يحيا فى الطاعه وأن حياته ومستقبله هما وديعة بين يدى الله.

وقام ليسجد مصليا:

" ليس لى رغبة غيرك يارب.. طلبت وجهك، وجهك يارب أنا ألتمس ، نعم ليس لى أية أهداف أخرى.."

ومنذ ذلك الوقت كتب هذه الأية وعلقها على إحدى حوائط الكوخ طلبت وجهك ووجهك يارب أنا ألتمس   وأعتاد الذهاب إلى الكنيسة باكر يوم الأحد والأربعاء والجمعة ودون أن يختلط بأحد أو يتعرف على أحد .. كان يصلى هناك القداس الإلهى .. وينطلق بعدها إلى تجواله..

ولاحظ فى أحد الأيام بينما كان مستندا إلى عاموده أثناء القداس– رجلا طاعنا فى السن ، واقفا بجوار الحائط وقد حمل فى يده زجاجة بها صليب، ينظر إليها ويبكى طوال القداس الإلهى..وراقبه الأب باسيليوس بعد إنتهاء القداس الإلهى فوجده قد دخل فى صمت إلى الهيكل ليتناول من الأسرار المقدسة ثم يخرج إلي الخارج .. ويختفى قبل أن يزدحم ممر الكنيسة بالخارجين..

وعاد ليبكت نفسه إنه لم يصل بعد إلى إنسحاق هذا الرجل وخشوعه رغم أنه يحيا فى هذا العالم المزعج ..

ومرت ثلاث أو أربع سنوات، والأمور تسير بطريقة رتيبة دون أن يكتشف أحد امره..

وإذا احتاج يوما ما إلى طعام مضى إلى الطاقة التى أشار إليها الغريبان قبلا فوجد هناك خبزا طازجا.. على الرغم من انه يذهب إلى هناك بطريقة (عشوائية) أى مرة كل فترة طويلة...

وكان الأب مرقس يراسله بطريقه(شفرية) .. وقد أتى لزيارته بنفسه فى صيف 1827 وفرح هو بتلك الزيارة كذلك الأب مرقس وجلسا يتحدثان طوال الليل وشكى له نفسه وشكى له الشيطان الذى يتربص به ، وشجعه ابوه وحثه على الأستمرار وصلى له وأعطاه حلا....

وعندما حل موعد الأب باسيليوس مع التسبحه وهما لا يزالان يتحدثان عن عمل الله فى حياتهما، قاما ليصليا صلاه نصف الليل ثم أعقباها بالتسبحة فصلاة باكر فذكصولوجيه باكر– حيث أستأذن الأب مرقس فى الانصراف .. بينما اتجه باسيليوس الى الكنيسة – وشكر الله ضابط الكل أنه ضبط نفسه ولم يسأل عن أخوته فى الدير وعن أحوال الدير ..

ويذكر انه شاهد ذات مرة شابا لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره جالسا يبكى على قارعة الطريق ، فلم يتمالك نفسه بل أسرع نحوه وهدأ من روعه، ثم عرف منه أنه يعمل لدى أحد الموسرين وقد سلمه فى ذلك اليوم خاتما ثمينا ليوصله إلى إلى صديق له. ولكن لصوصا تعقبوه وانفردوا به فى مكان خال حيث ضربوه ضربا مبرحا ثم أخذوا منه الخاتم وتركوه يعانى من الذعر والألم.

وأخبره الشاب أنه خائف من سيده وجبروته وسطوته، وعاد الأب باسيليوس ليطمئنه بأنه سوف يساعده وأكد له أن الله لن يتخلى عنه لأنه يحبه، ثم طلب إليه أن يصف له مكان التاجر ويجلس هو فى انتظاره حتى يرجع إليه.....

فوجئ السيد انطونيو بشخص فى حوالى الخامسة والأربعين يدخل إلى حانوته الكائن فى حى (بقراطيوس) فقام ليحييه ويدعوه للجلوس فشكر له الأب باسيليوس لطفه ثم قال:

أنا أقصدك فى خدمة .. وإن كنت لا تعرفنى

قال التاجر.. تحت أمرك

قال: عفوا، فنحن جميعا بيد الله ، علمت أن لك شابا يعمل معك

-ألعلك تقصد فرانس

- نعم ياسيدى.. فقد قابلته اليوم ووجدته يبكى متأثرا لأن لصوصا..

- هنا وأنقلبت سحنة الرجل ، فبرقت عيناه واستقامت أذناه وتطاير الشرر من عينيه..

"ماذا حدث،اسرع فى الكلام هكذا صرخ فى وجهه فهدأ الأب باسيليوس من روعه وقال له:

ألا تؤمن أن حياتك وكل مقتنياتك هما وديعة بين يدى الله؟

- نعم

- وهل تشك فى أن الله قادر أن يعوضك عنه بأكثر

- لا أشك

- وهل لو كنت مكان فرانس لنجوت من اللصوص

- (وقد هدأ قليلاً وعاد ليجلس) لا أدري

-أليست كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الرب

-نعم نعم ، ولكن أخبرني ما شأنك أنت في هذا الأمر.

-الحقيقة أنني رثيت له, وهو خائف من المجيء إليك.

-هل تعرفه ؟

-كلا، ولكن قلبي رق له عندما وجدته باكياً متألماً

-والآن!

-أريد أن أتعهد أمامك الآن بأن أسدد لك ثمنه على فترات, أي كلما توفر لدي أي مبلغ آتي به إليك.

-موافق, لكن ألا يأتي هو لأقف منه على ما حدث بنفسي؟

-نعم.. فقط عدني بأنك لن تؤنبه أو تعنفه.

-كلا،كلا،فإن محبة الذي لم يخطئ تشفع فيمن يخطئ

-إذن سأحضره معي الآن.

وجاء فرانس خجلا , وكانت المفاجأة أن قام السيد انطونيو من مكانه واحتضن فرانس وقبله بحنو ومحبة أبكته.

واعتاد الأب باسيليوس على توفير بعض المال من عمل يديه ليسلمه لفرانس وهو بدوره يسلمه للتاجر وذلك في كل سبت...حتى جاء يوم قال فيه التاجر للأب باسيليوس:

هذه هي آخر دفعة من ثمن الخاتم , و أومأ إلى فرانس فخرج.... ثم قال اجلس الآن لأن هناك شئ أود أن أعطيك إياه . ثم أخرج من الخزينة صرة بها كل المبلغ الذي دفعه على مدى ثلاثة عشر شهراً وأرفق الصرة بورقة كتب بها:

(محبتك أذابت قساوتي واتضاعك أخجلني،إخلاصك حرك جنين الوفاء والتسامح داخلي، فإذا وجد في "ماتيان "اثنان آخران على شاكلتك , نجت المدينة من الدمار،وابتهج قلب الله بها .)ثم قام انطونيو ليودعه ويرجوه ألا ينقطع عن المجيء في كل سبت كعادته.

واعتاد أن يذهب إليه كل سبت لا ليدفع القسط الأسبوعي وإنما ليتسلم منه المبلغ الذي كان يدفعه هو قبلاً.. وخصصه الأب باسيليوس للإنفاق سراً على بعض اليتامى الذين عرف أماكنهم

وإذا أحببت أن أوفر عليك الوقت وأعفيك من الملل: قلت لك في اختصار أن التاجر وخادمه صارا من محبي الكنيسة والقديسين واشتهرا بعمل الصلاح في كل مدينة.

وعادت الأفكار لتهاجم الأب باسيليوس وتحاصره . فأحيانا يفكر في أمه وأخته وأين هما وكيف آل مصيرهما فقد رآهما لآخر مرة حين كان يرافقهما زوج أخته وأولاده..

وإخوته الرهبان في الدير و وماذا يحسبانه الآن ثم أبوه الأب مرقس الذي لم يره منذ سنوات ألعله انتقل ؟

وماذا عن تدبيره ؟

صحيح أنه لا يزال يلبس منطقته تحت ثيابه ويتمم تدبيره كاملا في الصلاة والتأمل والقراءة.

ثم استطرد شارداً...

وماذا عن الثعبان الذي وطأته بقدمي أمس ... ماذا لو كان قد لدغني ؟ لقد كان ملفوفا على هيئة (قرص) ؟! لابأس....إذا كان هنا من أجل بنياني وخلاصي لابأس ...لابأس...

يجب على أن أشهد للمسيح في أي مكان ويتمجد الله بي ومقابل هذا لا أذكر أن الله كان يرسل لي العضد في الوقت المناسب.

ولن أنس ذلك اليوم المظلم المشئوم , حيث اتهمتني امرأة بأنني فاسد ... وجرني الناس إلى محفل الشرطة،وهنال أوسعوني ضرباً وركلاً وسخرية،وقضيت ليلتين قاسيت فيهما المر والمذلة.

وأصعب من ذلك :عندما سألوني عن اسمي وعملي و أين أسكن وأين أسرتي ؟!

ولكني أحمل لذلك اليوم الفضل الكبير، في أنه جعلني أشارك الآخرين في آلامهم وأحس أنني عضو في الجسد الكبير جسد المسيح (الكنيسة).

لابأس ...لابأس هكذا طيب خاطره!

وقام ليغسل بعض الخيار والطماطم الذي اشتراها في صباح ذلك اليوم , ثم بل الخبز وجلس ليأكل كعادته عند الساعة الثالثة بعد الظهر.

وإذا بفتى صغير يبلغه بأن العم بطرس يدعوه للحضور إلى بيته على وجه السرعة , فقام لوقته ومضى إلى هناك ... ودفع باب حجرة بطرس في هدوء ودلف إلى الداخل حيث وجده راقداً على فراشه يعالج سكرات الموت , فمكث إلى جواره عصر ذلك اليوم يطببه ويشجعه ويصلي معه , وقد ناداه الله عند

الغروب.

فكان على الأب باسيليوس أن يترك الكوخ باعتباره أحد ممتلكات المتنيّح... وخشىمن خجله من أقارب الميت وخشى أيضا من خجلهم منه , فخرج في هدوء حاملاً نفس الصرّة! فهي كل ما يملك من حطام الدنيا.

وظل المسكين يجوب شوارع المدينة وطرقاتها , وينام في العراء يقاسي قرصات البرد ولم يكفه الغطاء الذي كان يستره داخل الكوخ , لاسيما وأنه تقدم في الأيام , ولم يحتمل جسده المنهك نهش البرد , فخر صريعاً يعاني من آلام النزلة الشعبية...

ومن يعرفه ؟! وقد ترك المدينة إلى المدينة إلى مدينة أخرى , ومن أين ينفق على علاجه وهو الذي اعتاد التصدق بكل ما يصل إلى يده ؟ ثم إن الخبزات القليلة التي في حوزته أوشكت على النفاذ.... يا رب.... صرت لي ملجأ , خرجت لأجلك , ولأجلك احتمل العرى والجوع والمرض ... هكذا صلى...

وفرغ الخبز وبقى صائماً بعدها ثلاثة أيام متتالية , وأحس أنه في مواجهة مع الموت , ولكن الله وضع في قلب صبي صغير في الثامنة من عمره أن يميل إليه يسأله عما به...

فقال في وهن شديد: أريد خبزاً وماءاً.

وبسرعة جرى الصغير نحو بينه , وأحضر له بعض الخبز , ونصف برتقالة وكوز ماء , ثم جلس إلى جواره يطعمه ويسقيه , ثم لمعت في ذهن الصبيفكرة وهو جالس: لماذا لا يحضر بعض الأغصان ويصنع له كوخاً؟ وبالفعل قام وجمع بعض الأغصان وبدأ في اليوم الثاني في تثبيتها بطريقة عمودية في الأرض ليصنع منها كوخاً صغيراً , ثم جعل لها سقفاً وجوانباً من الخوص والحبال , ثم جمع في داخلها بعض القش , فرش فوقه بعض من ثيابه القديمة.

وبعد أن انتهى في اليوم الثالث من إعداد الكوخ, كان الأب باسيليوس قد تماثل للشفاء , فقام متباطئاً ومتأبطاً ذراع الصبي , ودخل معه إلى الكوخ وكأنه إلى قصر منيف بفراش وثير وشكر الصبي بعينيه الواهنتين فقط.

وأحب الصبي الأب باسيليوس جداً , وكان يقضى معه كل يوم بضع ساعات , يقتطعبعضاً من أكله

ليحضره له في كل يوم , ولاحظت أسرته ذلك وسألوه, فروى لهم قصة هذا الغريب معه , فجاءوا لزيارته وسرهم ذلك جداً ورجوه أن يحضر معهم ولكنه اعتذر بأنه مستريح في هذا القصر الصغير المتواضع...

وذهب الصبي ذات يوم ليخبر كاهن كنيستهم , فأتى وصلى وعلى الأب باسيليوس ورشمه بالزيت وطلب إليه أن يراه في الكنيسة ، ووعده الأب خيراً.

واعتاد الصبي أن يجلس إلى جوار الأب باسيليوس يستمتع إلى قصصه وأحاديثه ،وهو لا يشبع منها وهو بدوره اعتاد أن يقصها على أصدقائه، الذين كان يأتى ببعضهم بين الحين و الآخر الأب باسيليوس.

وحدث يوما ان نصح الأب, الصبى بالرجوع حالا الى بيته لأن والده محتاج إليه, وبالفعل عاد ليجد ذاك يبحث عنه, ومرة أخرى أرسل الصبى إلى بيت وصفه له. على الرغم من انه لم يدخل الشارع الموجود فيه ذلك البيت من قبل. قال له: اذهب إلى الدور العلوى واطرق الباب, فإذا فتحت لك السيدة التى هناك فقل لها أن تطفئ النار على السطح.

ومضت السيدة مسرعة نحو السطح لتجد ناراً قد بدأت تسرى فى بعض القش, فأطفأتها على الفور, وكان ممكنا لهذه النيران أن تشتعل و تنتقل فى سرعة شديدة الى باقى السطوح المعدّة من الخشب و الحديد, ومكدس فوقها أكوام الحطب و البوص.

وعادت فى سرعة لتبحث عن الصبى, تسأله كيف عرف ذلك و من أرسله, ولكنه كان قد عاد إلى معلمه يطمئنه بأنه قد أبلغ الرسالة.

وفى ذات يوم رأى أربعة رهبان يسيرون تجاه كوخه, وجرى نحوهم يسلم عليهم ويتبارك بهم , ووكاد يصرخ عندما عرف فيهم الآباء: لوقا ولونجينوس وبسطوروس و يوحنا, قبّل يديهم مراراً وكلب منهم أن يصلوا عنه, و اما هم فلم يعرفوه.

ودخل الأب باسيليوس فى صراع نفسى رهيب فى ذلك اليوم: فكر كيف حرم من الدير و من اخوته و كيف شرّد هكذا فى أماكن لا يعرفه فيها احد... تذكر قلايته ووجوه الآباء فى الدير.. ومرافق الدير التى كان يتردد عليها..

وتذكر الراهب يوليان, وبكى بحرارة..., كان الحبيب إلى قلبه.. وابن سرّه, وكيف كان عندما يمرض يجلس بجانبه يعيده ويسأل عنه ويصنع له طعامه وشرابه.

وما الداعى لكل هذه (المرطمة)؟ أهذه نتيجة الطاعة ولماذا اختار أبى هذه الطريقة؟! أما كان من بديل آخر؟ أكان يستطيع أن يسلك هو هذا المسلك الذى سلكته أنا؟ وهب أنه خاف علىّ من السبح الباطل, وأراد أن يجعلنى اعيش فى الطاعة.. وأذوق طعم الغربة الحقيقية أما كان هناك من بديل؟

نعم قال لى وقتها: إن الغربة الحقيقية هى أن تعيش وسط اناس لا تعرفهم و لا يعرفونك, وتحتاج إلى أن نطعم نفسك و تشترى ثيلبك وتبنى كوخك و أما فى الدير فهناك معزون كثيرون وخيرات كثيرة.

آه...

ولكنى تعثرت كثيرا وصغرت نفسى كثيرا..كيف كان شكلى و أنا فى محفل الشرطة, وامرأة تقذفنى باتهامات سمعت عنها فقط فى قصص حروب الآباء

وفيما هو على هذه الحالة سمع وقع خطوات بالقرب من الكوخ وانتبه, ولطم خده مؤنبا نفسه على تذمره وانسياقه لحيل المحتال.

واجتاز مقابله قافلة من الرجال, وتجاوزوه.

وعادت الافكار لتطرق رأسه فى عناد و اسبسال..

وماذا إذا مت الآن؟ فأين ادفن و من يكفنى؟

لا بأس.. هذا لا يهم فالتراب سيعود الى التراب..

لا..لا..

أقوم الآن وأعود إلى الدير

الدير.. الدير.

ولكن الطاعة.. و الأمانة..

وماذا فى الدير..

الآباء.. القلاية.. الكنيسة..

لا بأس فهذا الكنيسة, وهنا الكوخ. وهنا يعزينى المسيح فقد قيل لنا أن التعزيات البشرية تمنع التعزيات السمائية.

وصلى: اللهم التفت إلى معوتنى يارب أسرع و أعنى

ولكن لا.. يكفى ما قاسته..

ثم قام مفزوعا وكأن شخصا آخر يطرده وجمع صرّته وخرج وعصاه فى يده وصرته على كتفه وانطلق لا يلوى على شئ..

وحتى مشارف المدينة كان مسبياً بالفكرة, و اشتدت الأفكار وثقل عليه التذمر و القلق, وجلس مكدوداً منهك القوى و العقل.

ووجد راحة فى أن يبكى.. بكى و بكى لساعتين كاملتين ثم نام من شدة التعب..

وفى نومه رأى شخصا يشع وجهه محبة و حناناً ووقار شيخ, عرف فيه أبيه الروحى مرقس وارتمى على صدره يبكىويتأوه.

و فى حنان ربت على كتفيه وعاتبه قائلاً:

لماذا شككت ؟ ولماذا لم تصبر لتكمل جهادك؟

أترى أن الله سينسى لك تعبك ومحبتك وطاعتك؟

ثم قبله وأعطاه شيئا فى يده, واستيقظ الأب باسيليوس ورأى يده مقبوضة على شئ, فتحها فلم يجد فيها شيئاً, ولكن الطمأنينة سرت فى صدره, وابتسم لنفسه وسخر من تذمره, وفى اتضاع تحدى الشيطان قائلاً:

"نعمة الله التى يهبنى إياها تغلب محبتك للشر وكراهيتك لكل عمل صالح".

وعاد أدراجه إلى الكوخ المبارك ليجد الصبى فى انتظاره يحمل فى يده صرة صغيرة بها بعض خبز الشعير و البيض المسلوق و البلح المجفف..

وسأله الصبى أين كان.ز ولماذا يحمل صرته على كتفه؟ وصمت و لم يجب وجلس ليأكل من يد الصبى..

ومع الايام تسللت الشيخوخة غلى جسده, وظهرت قسمات وجهه المبارك, وأحس بالرضى عن نفسه, وصار يحمل الشكر و العرفان بالجميل لأبيه المحنك المحب.

وقد زاره فى كوخه فى يوم من الأيام رجل شيخ, وفاجأه بقوله: ألست أنت الأب باسيليوس؟

أجاب: نعم ولكن كيف عرفت ذلك:

-أنا راهب مثلك، وأرشدنى الله إليك لأنتفع منك.

– ولكن ليس لدى ما ينفعك, فسيرتى كلها واحدة وهى اننى مشغول بعمل التوبة, لأننى أعلم أننى ماض يوما ما إلى التراب.

– فكيف تأكل، ومن يعولك وكيف تثبت فى هذه الرباطات؟

وجعل الراهب يسال، والأب باسيليوس يجيب

– أما افتقدك الملل؟

– كيف لا؟ وقد اعتاد الضجر أن يضرب خيمته مقابل خيمتى فى كل ترحالى.

– وكيف تخلصت منه؟

– الحقيقة إننى لم أتخلص منه, ولكنى صادقته!

نعم صلانا أصدقاء فلم أعد أخشى لدغاته, ولم يعد له سلطان علىّ وعاد ليسأل و الأب يجيب

ثم صنعا سويا صلاة – وانصرف الضيف..

فى **14** يوليو سنة **1851**م عرف مصادفة أن الأب مرقس قد تنيح, دون أن يمرض..

ولا أستطيع القول بأن الأب باسيليوس قد حزن عليه وإنما باأ منذ ذلك اليوم يفكر فى العودة إلى الدير, ليس مهزوما من الأفكار ولكن لرغبته فى ان يتنيح هناك... فكر أياما طوالا.. وبات مشغولا بهذا الأمر واستحوذ على كل اهتمامه. وبدا مهموما..

صلى وصلى.. وبكى طالبا العون, وأين توجد مسرة الله, إلى أن استراح قلبه للفكرة.. وبدأ يضعها موضع التنفيذ.

اختار يوما كان بترتيب الهى يوافق نفس تاريخ اليوم اللذى نزح فيه من الدير الى العالم منذ حوالى 24 عاما .

وفى الطريق جعل يفكر ...كيف سيتقابل مع الاباء ؟ و هل يوجد منهم من لا يزال على قيد الحياة , ممن عاش معهم قبل مغادرة الدير ...

ترى هل سيجد قلايته فى مكانها خلف السلم الاسرى و المنارات الست و هيكل القديس بارثينوس ...

واستراح فى الطريق 15 مرة و استغرق المسير حوالى اثنى عشر يوما تخللها مرتين او ثلاثة اشفاق بعض الاعراب عليه فحملوه على دوابهم مسافة من الطريق و بدا يدخل الجبل المقدس فى اليوم الثانى عشر بعد ان قطع حوالى مئة و سبعون كيلومترا ...

وهو يذكر انه لم يمش بهمة و قوة شباب مثلما مشى فى البرية , كان يمشى مثل الغزال !

وطفح البشر على وجهه و تمتم مسرورا يحدث نفسه..تارة يرنم و اخرى يصلى بصوت مسموع

إلى أن عبر التلة الكبيرة حيث وقع نظره على الدير وجها لوجه فلم يحتمل و لم يطق صبرا وصرخ من الفرحة و صفق بيديه و اختلجت مشاعره و بكى طويلا ...

وكان قد قرر الا يعرف من بالدير بقصته بل سيطلب اليهم كمن يريد دخول سلك الرهبنة لكى لا يناله منهم اى مديح او كرامة ...

و لكى لا يمطروه بالاسئلة و الاستفسارات وهو لا يحب ان يضعه الاخرون وسط هالة تميزه عنهم.

على الباب دق الناقوس فخرج الشيخ الوقور البواب و قابله ببشاشة و فرح فاخبره برغته فى الانضمام للدير للرهبنة و طلب اليه الشيخ ان يمهله ريثما يخبر اب الدير اللذى جاء مع البواب و تحدث معه قليلا ثم اعتذر فى ادب شديد عن عدم امكانية قبوله لانه تجاوز السن المناسبة للرهبنة .

وصار الاب باسيليوس يتوسل و الاب ماض فى الاعتذار اليه و النصح بان يطرق سبلا اخرى لخلاصه .

ثم اعتذروا له ايضا بانهم مضطرون لاغلاق باب الدير و اغلقوه!

واحتار ماذا يفعل ؟ و تذكر الصرة التى يحملها على كتفه و تذكر الغربة و العرى و الجوع .

وفرش فرشته بجوار سور الدير .

بعد يومين خرج البواب لقضاء امر ما ....فوجد انسانا نائما بجوار السور فذهب ليستطلع الامر فو جد الاب باسيليوس راقدا و قد اسلم الروح .

وعقد الاباء مجمعا ماذا يصنعون بجسد هذا الغريب ! وتضاربت الاقوال و كثرت الاراء .

واخيرا راى اكثرهم ان يدفن فى المكان اللذى تنيح فيه بجوار السور .

وهكذا فعلوا

وهكذا دفن

وهكذا اكمل جهاده .

عاش غريبا و مات غريب

التجارة بالحب

الام الرؤوم جلست على حافة البئر القديم و فى يدها (سبحة) تصلى :

يا ربى يسوع المسيح ابن الله ارحمنى انا الخاطئة ...هكذا علمتها الام الرئيسة عندما قدمت للرئيسة ....فتاة فى السابعة و العشرين ربيعا سلبها نسكها نضارة جسدها و رضيت (بالصفقة) اذ بودل الجسد بالبصيرة الروحية.

كانت تصلى بشفتيها بينما قلبها المفعم حبا يلهج غبطة و سرورا .

وخطر لها خاطر , ان تتمشى و لكنها عادت لتامر نفسها بالهدوء فى موضعها , تنظر الى السماء الملبدة بالغيوم القطنية و المخضبة بلون الدم ثم تعود ليصطدم ناظريها بسور الدير العتيق و قد برزت بعض قطع منه هامة بالانفصال عنه و قد بدت كشفاة ممطوطة و كانها تتردد تود الاستئذان قبلا .

وعادت لتخفض بصرها نحو الارض حيث لاحظت كومة صغيرة من الرمال و نملة تود الصعود عليها،و امعنت النظر فاذا النملة كلما قاربت القمة فى صعودها عادت لتهوى من حيث بدات .

ياربى يسوع ارحمنى انا الخاطئة ...

واستهوتها مراقبة النملة وعادت لتؤنب نفسها بان اللذين ذاقوا الحب الالهى تعلموا ان ينشغلوا بالله عما حولهم لا ان ينشغلوا عن الله بما حولهم..ولكن اليست كل الخليقة تمجدالله ؟ اليس الانسان هو كاهن الخليقة يقدم التسبيح عنها للخالق ...افما نردد كل صباح فى الهوس الثالث , سبحى الرب ايتها الوحوش و التنانين و كل ما يتحرك فى المياه؟

اه.... ولكنى ضعيفة و مبتدئة فى الحب الالهى , احتاج ان اسبح انا اولا و اود ان انهل من النبع اللذى ارتوى منه قبلى الابرار اللذين سبقونى الى المجد .

ياربى يسوع المسيح اعنى ...انى اسبحك ياربى يسوع المسيح ..

و لكن مهلا فهم تعبوا سنوات و سنوات , حفروا و عمقوا حتى وصلوا لهذا النبع وما حفرهم و تعميقهم الا الاتضاع اللذى اتدثرت به حياتهم ...

ياربى..

من لى بهذا الحب و من لى بهذا الاتضاع ؟ هل الممحبة هى التى تقود الى الاتضاع ام الاتضاع هو اللذى يولد الحب؟ قالت لى الام ان المحبة هى الفضيلة (ام) لها اولاد و بنات كثيرين اولهم اتضاع الفكر...

وانتبهت ماكرينا على وضع اقدام فاذا باثنين من الراهبات هما الام ميلانة و الام ثيؤدورة تمران مقابلها فكانتا كشبحين مرا فى هدوء و هما فى سيرهما لا عجرفة و لا انحلال ...

ما اجمل حياه ملائكية على الارض ..

ياربى يسوع المسيح ارحمنى انا الخاطئة ...

اعطنى ان احبك و ان افيض من محبتك على اللذين هم حولى ...

ابادلهم حبا بحبا ...ازرع الحب فى كل مكان حتى فى الاماكن المجدبة و ارويها بالصر و طول الرجاء و تنميها انت ياربى ....و تصبح شجرة عظيمة وافرة فى ديرنا كما اراد ذلك و صلى لاجله كثيرا شفيع ديرنا الانبا بفنوتيوس....

وانتبهت مرة اخرى فاذا بالناقوس يدق يدعوهن الى المائدة و لكنها عادت الى خلوتها فهى لها تدبير خاص فى الاكل ...

اننى محمومة و مريضة بحبك ...ما اجملك و ما اروعك , من لى بقلب يستوعب كل هذا الحب ...يا الهى انى لا احتمل كل هذا الحنو فلطالما احسست بيدك تربت فى حنو فوق ظهرى و تسالنى ان اثق فى عنايتك و رفقتك ...

ياربى يسوع الميبح ارحمنى

ياربى يسوع الميبح اعنى

أن أسبحك ياربى يسوع المسيح

ورفعت يدها لتمسح باناملها قطرات من الدموع تسللت من مقلتيها لتسيل فوق وجنتيها....

ما رأيتك يا رب تغضب منى او تعاقبنى بل تتعقبنى فى كل موضع لتسبغ عليا نعمتك ...

حتى فى الاوقات التى كانت فيها الغيرة من الاخت افدوكية تكاد تنهش صدرى...كنت تعزينى و تهمس فى اذنى فقلبى قائلا انا عريس نفسك...انا كل ما تريدينه .

متى يارب اشعر انه لا هدف لى سواك؟ و متى تصبح انت كل رغباتى مجتمعة معا؟

نعم يارب يسوع المسيح اعطيت سرورا لقلبى اوفر من اللذين كثرت حنطتهم و خمرهم و زيتهم ...

ياربى يسوع المسيح ارحمنى انا الخاطئة ...

وجاء عصفور و حط على الشجيرة المقابلة لها و راح يصدح فى طفولة و طلاقة كانه يشاركها تسبيحها للرب القدوس ...هى تشكر و تطلب حبا يتاجج فى داخلها و هو يشكر الحياة ...و البهجة و همت ان تقف , وعندما تذكرت نملة الرمال و رجاءها و انحنت لترى فوجدتها تصعد للمرة الاخيرة حيث استقرت فوق القمة تنظر هنا و هنالك.

وخيل لماكرينا ات النملة لم تفرح بنصرتها على الرمال المفككة و لكنها تبحث عن شىء اخر ان النملة كل حياتها عمل و كل دقيقة لها ثمنها بالنسبة لها..

"دعنى من النمل و الرمال الان"

ياربى يسوع الميبح اعنى

ثم وقفت و انتصبت قامتها ومشت فى هدوء متجهة نحو لا شىء ...افدوكية ... افدوكية

تلك الفتاة السمراء القصيرة ...كم كنت اكرهها ...و هى تصغرنى بثلاث سنوات ...كم كنت احقد عليها حاسدة اياها على محبة الام الرئيسة و باقى الامهات لها و كم كنت انظر اليها شظرا و لكنها مع كل ذلك كانت تقابل جفاوتى بقلب متسع و محبة تخجلنى .

يارب يسوع المسيح ارحمنى انا الخاطئة

ترى متى يارب احب كل احد ولا اكره شيئا....متى اصل بالحب الى عدم الكراهية اي كائن حتى من كان خاطئا بل امنحه شيئا من الرثاء؟!

ثم تنهدت....بينما المسبحة تدور بين اصابعها....

متى اصبح الكل اطهارا فى عينى,لا افحص احدا ولا احاكم احد بفكرى.... ان الحقيقة التى لا اريد ان ابلها واديم غض الطرف عنها ها ان الكل افضل منى .... كذلك عندما يضيق صدرى بأحد فاللوم كل اللوم على انا وحدى....انا الخاطئة .... انا الشريرة الديانة

إنى اسبحك ياربى يسوع المسيح

وجاءت قطة صغيرة بيضاء وقفزت بجوارها تبحث عن الدفء....وراحت ماكرينا تمرر اصابعها عليها فى حنو بينما القطة جالسة تلعق فروها بلسانها..

أعاهدك ياربى منذ هذه اللحظة...لا, بل اشتهى ياربى و اتمنى منذ الان ان احب الكل تلك المحبة التى احببتنا بها....المحبة التى لا تطلب مالنفسها....غير المغرضة...احب الكل لكى اتمتع انا نفسى بحبك....ثم اعطيه انا لقريناتى فى هذه البرية..لهذا جئت ياربى الى ارضنا....ولهذا جئت انا ايضا الى هذا الارض لآمارس الحب واتاجر به واربح وافرح.لكنى خاطئة فتحنن على عبدتك..

ياربى يسوع المسيح ارحمنى انا الخاطئة..

لاشىء لى هنا اشتهيه وليس هناك مايستهوينى...

ألم اعاهدك بهذا فى اليوم الاول لدخولى هذا الدير..أننى اذكرذلك اليوم ولن انساه ما حييت..يوم ان حاربت انت عنى....حاربت وانتصرت لحسابى...وتركت لى تلك النصرة رصيدا اسحب منه فيزداد يوما بعد يوم

أنا اسبحك يارب يسوع.....

+ + +

وتذكرت ماحدث منذ ثلاث سنوات....

فقد تقدم شابا لخطبتها وكان قريبا لها....وفرحت امها ومعها كل افراد اسرتها...وانتظر الجميع حتى عادت من خدمتها بالكنيسة,حيث زفت لها الام هذه الشرى ظانة انها بذلك تدخل البهجة الى قلبها....واما هى فبعد انا اطالت السمع لهم, قالت فى وداعة انها قد عقدت النية على ان تحيا بقية حياتها فى الدير....تعوض مافاتتها من تقصير وتهب كل امالها للمسيح الذى احياها واسلم ذاته

عنها....وطال النقاش مابين حدة ولطف..ووعد ووعيد,فلما نشرت امامهم لواء الاصرار ؟صمتوا وقد بيتوا فى انفسهم امرا!

وفى صباح الثلاثاء توجه الا والام ومعهما ذلك الشاب الى الدير .فى ذلك اليوم استقبلتهم الام سوتيريا–مديرة الدير– بحفاوة...ووقتها كانت ماكرينا تمضى بعض ايام كخلوة فى الدير.

وجمعتهم حجرة الاستقبال المتواضعة ,وقال الاب مفتتحا النقاش :

– نحن انما جئنا اليك لكى تعيننا فى اقناع ماكرينا فى العدول عن رأيها

الأم سوتيريا: ولم؟

الشاب: الزواج انسب للفتيات, وماكرينا انسانة فاضلة ستكون الزوجة الفاضلةوالام الحنون , المدبرة ليتها حسنا.

الأم سوتيريا : الزواج بناسبها, ولكن خلاصها هو الخطية الاخطر واخشى ان هى تزوجت رغما عنها و عاشت فى العالم . ان تفقد خلاصها.

الأم وقد لاح فى عنيها التحدى والضيق : او تقصدين ان كل الزوجات لا خلاص لهن ؟

الأم سوتيريا فى بشاشة : عفوك ...لا اقصد ذلك...وانما لكل رسالتها فى هذه الحياة , فنحن نحتاج الى الزوجة والام , والى الخادمة البتول و الى الراهبة سجينة الحب فى مخدعها.

الأب مستفهما: ولكن ماكرينا فتاة حنونة فيها عاطفة الامومة..

الأم سوتيريا: ومن قال ان الرهبات تجردن من العاطفة؟..بل استطعن ان يوجهن عواطفهن.

الشاب: وماكرينا جميلة يشتهيها اى شاب,ومن الخسارة ان تتردى فى هذا المجهل..

الام سوتيريا: الزواج من اجل الجسد فقط,هو امتهان لذلك السر العظيم ولمعة الجمال تتحول الى سأمة ودمامة مع الوقت,ومع ذلك فاذا كانت لها رغبة فى الزواج فانى اوافق واشجعها,حينئذ هزت ماكرينا رأسها بالرفض رافضة هادئة .... وكانت تسمع صامتة طيلة هذا الوقت..

فأردفت الام قائلة, دعوها و شأنها , لا تحزنون قلبها, ثم وجهت الحديث الى الشاب قائلة: وانت يا ابنى ثق ان الله سيرسل لك الفتاة التى تناسبك و تفرح قلبك وتعينك فى حياتك،اما اذا كنت تحب ماكرينا محبة

حقيقيه روحيه،فلتفرح بفرحها،لا رغبه لها فيها.ولا تدفعها إلى ما رغبة لها فيه.

الشاب : ولكن أليست هذه هي الأنانيه بعينها ؟أن تسعى فتاة في طلب سعادتها وحدها ، بينما يمكنها أن تؤدي دوراً إيجابياً في الحياة ؟ إن الواجب فيما أرى أن نشترك معاً في صنع نسيج الحياة لا أن ننسحب إلى هامشها ..

الام قد تزرعت بالصبر : نعم يا إبني فإننا أيضاً في نسيج الحياة، نضيف إلى هذا النسيج لونا خاصا وضروريا يضفي جمالاً وبهجة على الرقعة كلها ، حقيقي أنني أنا متكاسلة خاطئة ، ولكن بقيةالأمهات كزهور فى حديقة هذا العالم الواسع.

إن الرهبنه فيما أعتقد هي خط الدفاع الأول عن الكنيسة .. لها الدور الخفي ، تحارب حرباخفية خفية غير منظورة..

والفتاة التي تسعى في طلب العزلة عن العالم .. ليست أنانيه كما يحلو لك أن تتهمها ، لأن الأناني هو ذاك الذي يحب مالنفسه ، واما تلك فقد تركت مالنفسها من محبة الزوج ومتعة الأطفال والراحة التي يوفرها لها ذلك الزوج ، وخرجت تلتمس الغربة والجوع والوحدة ..

الراهبة التي تصلي لأجل كل المتزوجات لكي تتحول البيوت إلى كنائس والقلوب إلى مذابح ، ويجد الله موضعاً _ في كل منزل _ يستريح فيه ويقول : هذا هو موضع راحتي ..

ثم أردفت الأم الرئيسة تقول .. بينما بدا الشاب وقد اعترته الدهشة وفغر فاه مشدوها وكله آذاناً صاغية :

وماذا عنك .. كيف ترى الحياة .. وماهو موقع المسيح بالنسبة لحياتك واهتماماتك ؟

وهز سؤالها أعماقه ، وكأن الأم قد أصابت بسؤالها فيه عمقاً من أعماقه .. وراحت تحدثه عن الخلاص الثمين الذي أهداه الله إلى البشرية وكيف التفاعل مع هذا الفداء الإلهي .. ثم عن محبة الله ثم محبة القريب ..

وبهت الشاب .. وإتخذت كلمات الأم موضعها في قلبه ، ولما كانت مائدة الأغابي قد أعدت .. قاموا وقامت معهم ماكرينا .. يتناولون طعامهم .. صامتين ..

وبعد قليل غادروا الدير غير ناقمين ولا حاقدين .. قالو لها ليكن لك ماتريدين ، فقط تضرعي لأجلنا مع بقية الأمهات ..

+ + +

ياربي يسوع المسيح بن الله أرحمني أنا الخاطئة ..

أذكر أنني لم أنم في تلك الليلة .. فلم يسع قلبي الفرحة ورحت ابكي من شدة العزاء .. وانا أشكر مسيحي .. أشكرك ياربي يامن تهتم بخلاصي وحياتي ..

ياربي ..

واقتربت منها الأم أفدوكية فقامت لتقبّلها.. ثم يتجه اثنتيهما نحو قلاية الأم العجوز يوستينا يعودانها ..

عند الغروب

زحف الظلام حثيثاً نحو الرض ، ولكنه أخفق في أن يكسو الدير كله بلباسه الوقور،فقد اتبثقت بعض أنوار خافته عبر أسافل بعض الأبواب وشبابيك القلالي..وبين الفينة والفينة،كانت تسمع بعض أصوات تشبه الأنين..فمن كلمات ضُمّخت بالدموع إلى تسبيح هادئ رزين..إلى تلاوة لسفر من الأسفار .. وهذه هي العادة في كل ليلة..لا يفرغ الدير من التسبيح والصلاة..وأما الساعه فقد حققت حققت الدورة الأولى بعد منتصف الليل.

ولكن البواب _ أعني الراهب المكلف الإهتمام بالباب _ كان النعاس قد داعب اجفانه فأسلم نفسه للنوم ، ولم نظلمه!

وقد حرم من النوم خلال اليومين السابقين لتلك الليلة المباركة ، فرقد منهك القوى ..

واما ناقوس الباب فقد صدر إليه أمراً .. فأخذ يدق ثلاث دقاته .. ثم بعد فترة صمت عاد ليدق مرة أخرى ثلاث دقات ، وإنتبه الأب شيرامون ، وجعل يفرك عينيه ، ولكنه سرعان ماغاب عن الوعي ، وعاد الناقوس..وصوت أعقبه يناديه بإسمه(يا أبونا شيرامون .. يا أبونا شيرامون)

وتقلّب البواب في رقدته ، وتعجب ! فالصوت فيه عجلة ، والناقوس مصّر على تأدية واجبه ، ونهض شيرامون في غير تكاسل وقفز من فراشه وهو يرشم ذاته بعلامة الصليب،ويردد (خير .. كل الأشياء للخير .. ياربي يسوع إعطني حكمة ..) .

ولما كان قد وصل إلى الباب أسفل قلايته سأل عن الطارق ؟

فاجاب (أنا أورانيوس).

وهنا زال تعجب الأب شيرامون وذابت دهشته وسرت الطمأنينة في قلبه .. وامتدت يده لتسحب المزلاج.

وأورانيوس هذا،راهب بلغ السادسة والأربعونمن عمره .. يحيا حياة الوحدة في مغارة على مقربة من الدير،وقد إعتاد المجئ إلى الدير بين وقت وآخر وفي جعبته خبر غريب أو سر خطير أو تحذير هام وكان الآباء ينظرون إليه نظرة حب ممزوج برهبة ، كما اعتادوا منه المفاجآت التي يطرحها امامهم كلما

حضر إلى المجمع .قال الأب شيرامون وهو يصافح أورانيوس ويقبله .. ويدعوه للدخول : (خير يا ابونا أورانيوس).

ـ لا لن أدخل فإني في عجلة ، وسأعود حالاً إلى مغارتي ، فقط أرجو أن تبلغ الأب بيشوي أنه سوف يتنيح بعد غروب اليوم ، واسأله أن يصلي عني حينما يبلغ المجد العتيد أن يكون ، ثم استأذن ومثل جندي ابلغ رسالة خاصة وقت الحرب ، عاد أدراجه إلى محرابه ..

وتقلص حاجبا شيرامون ، وقذفت عيناه دموعاً ، وتناول مزلاج الباب ليعيده إلى موضعه ، ثم راح يبكي وهو لا يدري ألفراق أخيه المزمع أن يكون هذا اليوم أم لأنه لم يستحق بعد أن يمضي إلى أخوته الذين سبقوه !.. ام ماذا ؟! (لا شئ .. لا شئ)هكذا تمتم وجفف دموعه وتحسس القلنصوة على رأسه ، ثم تذكر انه حافي القدمين ، ولكنه لم يأبه لذلك ..

واتجه لفوره نحو قلاية الب بيشوي ، واطمأن عندما رأى الضوء الخافت ينبعث في خطوط متعامدة حول الباب والشباك ، فوقف برهة يستجمع شيئاً من الشجاعة قبلما يصدر أمراً إلى أصابعه لتطرق الباب في رقه ثلاث دقات يعقبها أري أغابي) أي إصنع محبة .

وغنقطع الصوت الذي في الداخل .. وخبا نور السراج ، وتعوق الأب بيشوي قليلاً قبل أن يفتح الباب في هدوء ، متظاهراً بالنوم ..

سلم أحدهما على الآخر وقبلا بعضهما البعض ، ثم مال شيرامونعلى بيشوي قائلاً في همس : أبشر وافرح اليوم تمضي إلى العرس ، وتلتحف بالمجد ، ثم أردف قائلاً أنبأني بذلك الطوباوي أورانيوس منذ دقائق ، جاء خصيصاً من مغارته ، ليخبرك انك ستنتقل اليوم بعد الغروب .. ولم ينتظر جواباً بل قال : أتركك الأن ، وسوف نتجمع عندك بعد القداس الإلهي .. لنصلي معك كيما يكمل فرحك .

+ + +

بيشوي .. بيشوي .. حان الوقت لتنصرف .. ابتهجي يانفس بيشوي وتهلل ياقلبه " هكذا بدا مسروراً " .

وأول ما فكر أن يعمله ، هو أن يقف ليكمل صلاته فقال : أشكرك يا إلهي بكل مافيّ وتشكرك عني حواسي .. من أجل دعوتك لي في هذا الصباح المبارك ، لكي أرتفع إلى جوارك .. مبارك هذا اليوم ،

مبارك مجيئك إليّ ومبارك ذهابي إليك، بعد ان كنت أبحث عنك في وسائط مختلفة وأتردد على اماكن متعددة ليقوى احساسي بك فيها ، اليوم أنطلق لأكون فيك ولا شئ آخر يجذبني عنك ، وأما جسدي هذا (وتحرك قليلا في مكانه كأنه يشير إليه) الذي ائتمنته على روحي التي هي نسمتك فأرجو أن يكون أمامك سليماً طاهراً خلواً من النجاسة ودنس العالم .

اليوم أسلمك وديعته، ومنذ اليوم لا مرض ولا حزن قلب لا شهوات ولا شيطان.. ولا غضب يتحرك داخلى .. الآن أشعر أن سنى حياتى مرت كلحظات قصيرة .. شكراً يا روح الله القدوس .. هلّل يا كل ما فى باطنى بالرب .. وبالنصرة التى يلبسك إياها الرب مخلص نفسى.

آه .. كم أشتقت إليك يا أبى أنطونيوس ويا أبى موسى .. ويا سحابة الشهود جميعاً.

ثم قرر أن يخلى القلاية من محتوياتها، ثم عاد وانتبه إلى أنه خالية إلا من الحصير الذى ينام عليه والبطانية التى يتغطى بها وسبعة كتب مقدسة وضعت بعناية فى طاقة بالحائط البحرى لقلايته، وأما الطبق الذى يأكل فيه فقد كان يضعه خارج القلاية .. يدخله كلما أراد أن يأكل .. هكذا تعود منذ جاء الدير ..

ثم راح يمشى هنا وهناك فى قلايته الضيقة يكاد يرقص طرباً .. وجاءه فكر أن يخرج من القلاية ويتبارك من الآباء، ولكن الوقت كان غير مناسب، إذ لم يكن ناقوس نصف الليل قد دق بعد. ومع ذلك خرج ..ولكن إلى الطافوس مضئ، ووصل إليه وراح يقبل الحائط، وطفرت الدموع من عينيه أنها دموع الفرح فعما قريب يفك أسره بعد أن عاش يرقب هذه الساعة .. متذكرا قول مار اسحق السريانى "التاجر عينه نحو البر والراهب يرمق ساعة الموت"، وتذكر الأب شيشاى – آخر راهب تنيح منذ خمسة شهور – وقال هامساً (أنا جاى لك يابونا شيشاى).

وأدار ظهره للطافوس واتجه نحو الكنيسة، ولم يستطع أن يمسك نفسه من الفرح، فراح يرتل لحن القيامة – اخرستوس آنيستى – بصوت أجش فيه حشرجة ودموع.

ودق ناقوس تسبحة نصف الليل، وخيل إليه أنه الناقوس الذى سيقرعه عصر اليوم على باب الفردوس فيفتح له الملاك .. ويأخذه من يده إلى صفوف المنتصرين فى الداخل!

وتوافد الآباء وحداناً على الكنيسة، حتى اكتظ بهم الخورس الثانى، وراح بيشوى يحملق فى وجوههم واحداً فواحداً، دون أن يجذب أنظارهم إليه، ثم وقف هادئاً يصلى ويسبح معهم .. ولمح الأب شيرامون يقف إلى جواره ..

فما انتهى القداس .. حتى خرج الآباء من الكنيسة وقد انتشر الخبر بينهم أن الأب بيشوى جاءه الوقت لينطلق، فتبعوه إلى قلايته..

هذه هى المرة الأخيرة التى فيها يتحدثون إليه ويستمعون إليه، يملأون أعينهم من منظره الملائكى ويوصونه بوصايا متعددة غريبة.

وبيشوى منطلق الأسارير .. يحس بتعزية قوية تسرى فى كيانه ومع أنه قد عرف عنه أنه قليل الكلام، فقد تكلم كثيراً فى ذلك اليوم. وقد ضمن أحاديثه إليهم طلبة: أن يبتهلوا إلى الرب كيما يقبله إليه متغاضياً عن هفواته وسقطاته.

وسأله أحد الآباء كلمة منفعة، فقال له .. نعم لن أحجم عن ذلك وأنا ماضٍ إلى مشتهاى .. فقد عشت حياتى كلها وأنا أعرف أن المسيح منتظرنى فى السماء، لكى يفرح معى وأفرح معه، ويعوضنى عن كل ماكابدته فى زمان غربتى، وكنت أقول لنفسى : من العبث والجهل أن أنشغل بأمور أخرى حولى، بينما السيد المسيح يرنو إلىّ من سمائه بشوق وحب، كنت كلما وقفت لأصلى أقول له : نعم يا ربى .. ولى نفس الشوق ونفس اللهفة، ولتكن لا إرادتى بل إرادتك ..

وأما فيما يتعلق بسقطاتى وخطاياى، فقد كان الرجاء المفعم به قلبى يدفعنى إلى اصلاح ما فسد، دون أن يضيع وقتى فى التنهد واليأس.

+ + +

وكانت الساعة حينئذ قد قاربت الثالثة بعد الظهر، حين لم يستطع أحد الآباء إمساك دموعه فسالت منهمرة، وتبعه فى ذلك آخرون، وسادت فترة صمت قطعها الأب بوليكاربوس داعياً إلى الصلاة والتسبيح .. فسبحوا بقوة وتهليل كما لم يسبحوا من قبل وارتفعت الطلبات والتنهدات، والكل يأمل فى أن يحظى قريباً باللحاق بالأب بيشوى ...

ولما انتهوا .. أشار الأب افلوجيوس إلى الآباء، فخرجوا وبقى هو وحده معه ليسمع منه آخر اعترافاته ويصلى له صلاة التحليل، ويقبله مراراً، ثم يتركونه ويخرجون على أن يعودوا إليه بعد قليل ..

وعلى بعد سمعت فى قلاية بيشوى أصوات قبيحة وشتائم وصراخ .. كانت على ما يبدو محاولة من الشيطان لإفساد فرحته بالإنطلاق بعد أن هُزم وأفلت بيشوى من يده .

وبعد أن انتهى الآباء من صلاة الغروب، مضوا جميعاً إلى قلاية المغبوط ليجدوه قد رقد ووجهه نحو الشرق وقد ابتسم ابنسامة حلوة ويديه على مثل الصليب ..

وشوهدت حمامة بيضاء تحوم فى الدير .. واختفت لتظهر .. بين آن وآخر قرب المكان الذى كان يسكن فيه بيشوى.

كان يوماً مشهوداً .. فرح .. وغرصة للتأمل .. ووقفة مع النفس.

هذه الواقعة جرت فى أوائل هذا القرن مع أحد الآباء الطوباويين الذين عاشوا فى هذا الدير سردناها بتصرّف فى أسلوب قصصى.

<u>نعم حرب يا راهب</u>

اسمه موسى

موسى المسعودى

أو موسى البموسى

عشق الحياة النسكية منذ كان صغيراً، وروت له أمه الكثير من قصص الآباء المجاهدين ونوادرهم داخل الأديرة وصراعاتهم مع الشياطين، وظهور الملائكة لكثيرين منهم.

وأحب الرهبنة والرهبان، وحالما كان ينزل راهباً لأى لأمر فى قريته، ينطلق فى إثره، يلازمه مثل ظله ويرقب كلماته وتعليقاته وتصرفاته، ويسجلها على صفحة عقله، بفخر وإعجاب وسرور لا يقدر على إخفائه.

وكان ينتظر بصبر فارغ، ذلك اليوم الذى فيه ينطلق من بيته إلى الدير، ولعله سمع أيضاً فى ذلك الوقت عن القمص عبد المسيح المسعودى الكبير الذى ترهب بالدير المحرق وانتطلق بعد ذلك ليحيا فى دير البرموس، وكان يعتبر كل يوم له فى العالم – بعيداً عن الدير – هو يوم ضائع!، إلى أن استطاع أخيراً أن يفلت من قبضة عاطفة أمه و اخوته، حيث سمحوا له بأن يحقق ما يصبو إليه ، فانطلق إلى برية شيهيت، وعرج هناك على دير البرموس ..

بدا مطيعاً فى كل شئ ولكل أحد، عاش صغيراً يتعلم من الذين حوله، وتنقل بين أعمال متعددة فى الدير واقتنى فضائلاً كثيرة،وتتلمذ على آباء مباركين كثيرين، وأما الشئ الذى برع فيه فهو محبته الفائقة للصلاة ,فقد كان يقضى فيها من الوقت أكثر مما يقضى فى أى شئ اخر, كان يصلى بفهم وبلا حدود ,وتجاوز قانونه الروحى إلى مافوق بكثير جداً, ودرب نفسه على صلب الجسد فى الصلاة ,بل أقر مرة إلى أحد الآباء بأنه يشعر بوقوف المسيح معه خالما يقف ليصلى.

وفشل الملل فى الوصول إليه,وعندمات لحق به ,أخفق فى الحرب معه,فقد كان يصلى مرة وهو راكع على ركبتيه ويداه مبسوطتان لأعلى ,ودفعة أخرى وهو منتصب القامة ويداه مضمومتان نحو صدره,ودفعه ثالثة وهو مغمض العينين هامساً,وهو يصلى مرتلاً بصوت أعلى قليلا.

كان ينسى كل شئ وهو واقف على مذبح الصلاة,كانت الحضرة الإلهية تسبيه لدرجة أنه لا يشعر بقدميه تلامسان الحصير الواقف فوقه,و إذا ناداه مناد من الخارج فما كان يسمعه ,كذلك إذا طرق بابه طارق,شعر وكأنه فى حلم..

ويمضى الوقت,ويزداد وجهه إشراقاً وملائكية,ويزداد شغفه بالصلاة ,ولزم قلايته, فصار نادراً مايُرى فى الخارج ,لدرجة أن الآباء عندما كانوا يعرضون عليه الخروج للاشتراك فى عمل ما,كان يعتذر,متعللاً بأن الصلاة لذيذة وحلوة وفيها كفاية عن كل شئ ,وماكان يقول ذلك تباهياً وإنما فى براءة كمن يتحدث مع نفسه.

وكثيرا ما انشغل عنهم بالصلاة,وهم يعملون معاً,دون قصد منه ويعود ليتظاهر بميله إلى النوم.

واحترم كل الآباء مشاعره ,ولكن ابوه الروحى كان يرقب هذه التطورات فى حذر وبين آن وأخر كان يلفت نظر الاب موسى إلى ضرورة الاعتدال.

وجدير بالذكر أن المسئولية تنتقل من المعترف إلى أب الاعتراف إذا توافر شرطين اساسين:

أولهما :أن يصارح أب اعترافه فى كل شئ ولا يخفى عنه شيئاً.

وثانيهما:أن يطيعه فى كل شئ.ولكن كما هو معروف الاعترافُ يقبل ولا ينتزع!.

وحدث فى سهرة الاحد الثانى من شهر كيهك ,أن لاحظ الآباء أن الأب موسى غير موجود بالكنيسة, الأمر الذى يعد خروجا عن المألوف, فإن الآباء جميعاً اعتادوا حضور سهرات شهر كيهك وأسبوع البصخة معاً,بمن فيهم أولئك الذين لهم تدبير خاص والمتوحدون.

وقام ليلتها اتلقمص مينا المحلاًوى رئيس الدير,ليفتقده فى قلايته..وفوجئ عندما اقترب منها,بأصوات غريبة صادرة منها,شئ يجمع بين القبح والهمس,وبدلا من أن يطرق الباب,أصاغ السمع وما أشد دهشته حين أحس بأصوات تشبه فحيح الأفاعى.وتقزز الأب مينا واستاء وأيقن أن هذا ماهو إلا (نذير شؤم) ولم يحاول أن يفسر مايسمع أو يحلل ما يحدث,وإنما عاد أدراجه إلى الكنيسة,ساهماً شارداً,يحس بضيق وعدم ارتياح. وعاد مرة أخرى قرب انتهاء السهرة,دون أن يلحظه أحد,إلى قلاية موسى ,وأرهف أذنيه ,ولكنه سمع صلاته وكأنه يزغرد ,وتعجب وحفظ الأمر فى قلبه.

وفى الصباح قابله يمشى كعادته,بطيئاًبملابسه المتهرئة,ونعليه المرنقين,يهتز بجسده النحيل,وسأله لماذا لم يأت إلى الكنيسة البارحة ليصلى ويسبح مع إخوته؟فاعتذر فى أدب راهب بأنه كان يشعر ببعض التعب,ولم يتخلص منه إلا عندما دق الناقوس يعلن بدء رفع بخور باكر,وأنهحرم بركة المجمع(يقصد إخوته) ثم قال وهو يحك فى لحيته:

-بإذن المسيح السبت القادم..

ولم يعلق الأب مينا,على الرغم من أن الشك كان ينهش صدره والخوف يؤرقه تجاه هذا الأب,ومضى من فوره إلى القمص سمعان يسر له بمخاوفه ,ويلتمس منه التدخل لانقاذابنه.

كان الآمريبدو طبيعياً,أن راهباًيصلى ويحب الصلاة,ويقضى معها أغلب وقته ,كما يفعل الأب موسى فينسى طعامه,ويتهرب من العمل مع أخوته,ويصلى بطريقة مطولة,ملحناً الكلمات فى بطء غلب المألوف والعادة..

بل أن كثيرا من الآباء تبكتوا من ضمائرهم بسبب المقارنة التى يعقدونها فيما بينهم وبين هذا الأب ,وأصيب بعضهم من المبتدئين بصغر النفس.

ولكن الذين جاهدوا وغلبوا فى الحياة الروحية,ودخلوا فى حرب مع الشياطين ,وغلب المسيح لحسابهم ,وأصبحوا لا يجهلون حيل المحتال -بعد أن تمرسوا فى البرية بالحنكة والخبرة- هؤلاء أطلقوا صفير الإنذار ,وأضائوا النور الأحمر.

وشهدت ليلة السابع عشر من شهر كيهك,حديثا مطولاً بين الأب موسى أبيه الروحى القمص سمعان,تخلله خلاف غير حاد لم يلبث أن تحول خالأًإلى عتاب ثم وعد بالأعتدال.

فى تلك الليلة قال له أبوه الروحى فيما قال:

-اتفقت معك على أن تصلى صلاة باكر, ونصف الليل فقط,ثم يحفظ فكرك نقياً بقسة الوقت ,وهذا يكفى.

-ولكنى أحب أن أصلى أكثر فما الضرر من ذلك.

-الضرر ليس فى الصلاة ,وإنما هو فى عدم طاعتك.

-أنا كسرت الطاعة لكى أصلى.

– الخوف لئلا تكون صلاتك لأجل الصلاة فقط.

–لا أفهم..

–أخشى أن نكون صلاتك ,بدافع أن تكون راهباً مصلياً يرضى غروره فحسب ,بأنه وصل إلى مرتبة عالية فى الصلاة ,ومعروف أن الصلاة هى حب وانسحاق ,وتوبة.

هذا صحيح وهكذا أؤمن ولم نختلف.

– لوكان إيمانك هو هذا ,لما حزنت وغضبت عندما نصحتك بتعديل تدبيرك فى الصلاة..

–ولكن مارأى قدسك فى أننى أسمع أصواتاً مشجعة ,فى بعض الاوقات؟

–مبارك, ولكن قد لا تكون أصواتاً إلهية بالضرورة فى كل مرة.

–كما أنى أشعر بتعزية فى الصلاة ..الصلاة بكثرة على وجه الخصوص.

– ربما لا تكون نعزية ,ولكنها شعور بالرضا عن النفس ,ومن يعمل هواه فقد أفسح للشيطان–شيطان المجد الباطل–مكانا معه,وأما من يخضع لتدبير أبيه الروحى,فهذا قد أثمر تمرة اتضاع الشهية.

– سأحاول..ولكن تذكر قدسك أننى على مضض أطيعك.

– تذكر يا إبنى أن الطريق الوسطى خلصت كثيرين.

اغفر لى وحاللنى,فالطريق طويل وشاق وأنا معدوم الخبرة ,ليِّن العظام.

وصلى له صلاة التحليل,وخرج وهو يبتهل لله فى أمره لكى يرفع عنه الحرب التى أعلنها الشيطان,وكان بشعر أن عدو الخير قد التقطه,عندما وجده كغنمة شاردة عن القطيع.

أما موسى فقد عادت الأفكار لتقلقه ,وعادت الشياطين لتهجس فى فكره,أن أبيه الروحى ماقال له ذلك,إلا لغيرته منه,لأنه لم يصل إلى ماوصل إليه هو..وعاد يقول لنفسه محتجاً:

– من أوصى بألا نصلى ,وبدلاً من أن نتقدم فى الصلاة, نقلل مانصليه؟

ثم لوى شفتيه عجبا!

وبعد عامين انتقل ليسكن فى قلاية أخرى,بأمرمن رئيس الدير,لعل الحرب تهدأ,ولم تهدأ الحرب ,ولم يعتدل موسى فى سلوكه ,بل لاحظ الكل إنعزاله المرضى عنهم,ولم يعد بظهر مطلقاً فى ساحة الدير,

ولم ير إلا ليأخذ قليلا من الخبز أو البقول أو ليملأ زلعته العتيقة المكسورة, يحملها وهو يمشى على مهل, بينما يطفح وجهه سروراً و زهواً وعيناه تقولان لكل من يقابله: (أين أنت منى يا مسكين).

وبكى أبوه, وقصد قلايته مرة أخرى..

وفى هذه المرة, سجد أمامه وحاول تقبيل قدميه, وتوسل إليه أن يترك قلايته ويأتى ليسكن معه لفترة, ولكن موسى صمت طويلاً حتى هدأ أبوه, ثم قال كمن ضاق بكتمان سر خطير:

– أتعلم يا أبى أن الملائكة قد جاءوا الىّ وباركونى؟

– وماذا أيضا يا مسكين؟

– باركونى فحسب. وأضاءوا الموضع حولى, وشجعونى بكلمات كثيرة.

– كم مرة حضروا اليك؟

– ثمانى أو تسع مرات.

– ألم يقولوا لك شيئاً؟ شيئاً غير عادى؟

– لا لم يقولوا..فقط كانت مناظرهم مبهجة..وكلماتهم معزية..

وزفر الأب سمعان زفرة محرقة, وهو منكس الرأس تحمله راحتيه, وبعد فترة من الصمت قال فى مرارة:

– أرجوك إذا حدث ذلك مرة أخرى فأخبرنى أولا بأول..

وشوهد ذات مرة, وهو أت من ناحية الهوكارية (قرية قريبة من الدير) وفى يده كيسا به دجاجة مذبوحة.. ثم دخل إلى قلايته, واعدها هناك مع شئ من الطبييخ, وخرج من القلاية ليدعو إليه بعض الآباء, فأتوا وأكلوا معه, وصنع لهم أقداحاً من الشاى, وتكلم معهم بافراط على غير عادته فى الفترة الأخيرة.

وانتهزوا هم هذه الفرصة, وحاولوا أن يناقشوه, ويتناولون حالته وطفراته بالحديث, ولكن تهرب من ذلك, فلما ضيقوا عليه الخناق, استأذن منهم و خرج من القلاية, ولم يرجع إليها إلا فى اليوم التالى, حيث كان كل منهم قد عاد إلى قلايته.

ولكن الأب هدرا, وهو من المقربين منه, اقتحم هذا السياج الذى ضربه موسى حول نفسه, ودار بينهم – ذات ليله – الحديث التالى:

قال الأب هدرا: لعلك تصلى لأجلى, فأنا محتاج إلى طلبات ودموع كثيرة فى هذه الأيام.

أجاب الأب موسى: الرب يعيننا جميعاً, صدقنى ليس أفضل من الصلاة, فهى الطريق إلى الله, وهى السلام.. وهى عربون الأبد.

– نعم .. ولكنى ضعيف, وبالكاد أصلى متمما تدبيرى, أتعلم ماذا قال لى أبى الروحى؟

– ماذا قال...؟

– قال .. متى كن فى قلايتك, وطرق بابك طارق فاترك ما تعمله وحتى إذا كنت تصلى, وافتح له واستقبله, واقضى له حاجته, ثم عد بعد ذلك إلى ما كنت عليه..

– هراء..

نعم, فما حسبهم يقولون لنا ذلك, إلا لحرصهم على إتمام أعمال الدير, من عجن وخبز وطحن وزراعة واستقبال الضيوف وغيرها, تلك التى هى خدعة من الشيطان لكى يلهينا عن الصلاة.

(ثم بانفعال, ويديت تطوحان فى الهواء)

– كل المسئولين يسلكون هكذا, لهم نفس المنهج, لا يتحدثون إلا عن الطاعة, إن اللاهوت الذى يدرسونه ويدرّسونه هو لاهوت السلطة!, طاعة عمياء, يريدوننا آلات فى أيديهم..

– مهلك يا أخى وعفوك, هم يعملون لأجل منفعتنا, ويعلمون أننا نحتاج إلى تعليم, ويخافون علينا من الضربات اليمينية, ويودّون أن تسير الأمور رويدا رويدا, يخشون من الطفرات, ويؤمنون بالكيفية لا الكمية..

– هراء .. كذب و خداع..

ربما لا نعلم, كيف يود أبى أن يكبلنى ويحد من انطلاقى, لغيرته منى, نعم محض غيرة, وقلب مفعم بالحقد.. ولكن لا بأس, فالله نظر إلى صبرى, وشجعنى, وأعلن لى ذلك مراراً.

وبدا للأب هدرا أن الأب موسى مسبى بهذا الفكر فعاد ليقول له:

- إن الطاعة أفضل من الذبيحة, و الاستماع أفضل من لحم الكباش, و أن التلميذ بطاعته يصبر أفضل من معلمه.

ولكن موسى عزف عن الادعان, ورفض أية مشورة, إلا تلك التى تأتى على هواه, وتختم على رغباته..

وعرض الأب هدرا على الأب موسى أن يستأذن رئيس الدير, فى أن يأتى ليعمل معه فى الزراعة, ولكن موسى اعتذر بأنه يتعثر فى العمل مع الآخرين.

وتركه الأب هدرا وهو مكسور الخاطر, يطلب سراً إلى أن يعتق أخاه المسبى.

وفى الفترة التى أعقبت هذا, قلّ خروج الأب موسى من القلاية, أكثر من ذى قبل.

واعتاد آباء من أديرة أخرى المجئ الى الدير للسؤال عنه, فقد أشيع أن أصابعه تضئ, وبأنه يقف معلقاً, أى لا تلامس قدماه الأرض, وبأنه يختفى كثيراً من قلايته و من الدير, فهو سائح, وبأن قلايته اختفت ذات مرة بجملتها من الدير ثم عادت مرة أخرى إلى موضعها.. و ... و ....

وبدا هو مكفهر الوجه, منحنى القامة, جادا فى أحاديثه القليلة جدا, وكأنه يحمل فوق كاهله مصائب الشرق و الغرب إلى ان كانت ليلة..

حين جاءته الملائكة, الذين حكى لأبيه عنهم, جاءوا بعد ان صلى صلاة نصف الليل, فى الساعة الثانية و الربع صباحا, ومدحوه بكلام كثير, كمن يزفوا إليه بشرى رضا السماء عنه, قالوا:

إن الله أمر بمكافأتك لأجل جهادك وتعبك وسهرك وصبرك, أكثر من كل المجاهدين, وذلك بنفس الطريقة التى أخد بها إيليا النبى..

وفغر موسى فاه دهشة, وهو لا يصدق من هول المفاجأة فعادوا يؤكدون له ذلك, وبأنه يستحق كل هذا المجد, وبأنه سوف يصل إلى بيعة الأبكار.

ثم بلهجة هامسة محذرة وبصوت مملوء بالمكر:

ولكن إحذر أن تخبر أباك بذلك, فإنه لن يصدقك لكونه لم يصل إلى قامتك وقداستك, وإذا سمع منك ما سمعته الآن فإنه يمنعك, وتحرم أنت من تلك المكافأة, وهذا الشرف, وقد تحاربك الشياطين, ويسقطونك عن رتبتك, ويتطرق التوانى - بعد ذلك - إلى قلبك, فتفقد إكليلك..

فقال بسرعة:

لا .. لا يقلقكم هذا الامر.

فأكملوا حديثهم قائلين:

بعد غد, وفى منتصف الليل حوالى الساعة الواحدة من صباح السبت: وبعد أن تصلى طويلا كعادتك, إصعد إلى السور البحرى للدير وفى الركن الشرقى منه, ثم انتظرنا هناك حيث نجئ إليك بالمركبة فتأخذك إلى المجد.

وإحذر أن تخبر أحد كما قلنا لك.

ثم اختفوا كما جاءوا....

واهتزت الدنيا أمام عينيه, ومادت الارض تحت قدميه, وراح فى غيبوبة لدقائق, وأفاق.. لا يدرى ماذا يصنع؟ هل يفرح؟.. أم يبكى..؟

هل هو موت, أم ارتفاع إلى المجد حقا؟..

هل يقول لأبيه أم لا؟

ولكن لماذا يتحير, ولماذا يقول لأبيه.. وأبوه لن يفهمه! بل سيحاول إعاقته..

ثم كيف يعصى امراص إلهيا؟ وكيف يتشكك تجاه ما يشتهى البشر قاطبة فى الحصول عليه و الفوز بيه..

ولم ينم تلك الليلة

وطيلة النهار التالى .. لم يأكل . بل لم يصلّ ! ولماذا يصلى ! والصلاة للمبتدئين فقط فى الطريق الروحى ، و أما هو فقد وصل إلى أن دعاه الله إليه بكيفية لم تحدث قبلاً إلا لواحد فقط ، هو القوى فى الأنبياء ، ايليا التشبى .

يالها من كرامة .. كم كانوا يحتقروننى ويؤنبوننى ، ولكنى صمدت وكافحت و ثابرت ، و أخيراً كلل الله جهادى ..

ثم نقر بأصبعه على باب القلاية من الداخل .. وهو يغمغم مسروراً كمن يغنى

فاى بى بى إيهوؤو (*) فاى بى بى إيهوؤو

ولم يعلم المسكين ، أنه كانت طغمة شريرة ، تردد بأصوات قبيحة ، وفى نفس اللحظة .. نفس الأغنية ولكن فى موضع آخر ..

فاى بى إيهوؤو فاى بى بى إيهوؤو

هو فى حالة طرب بلا وعى ..

وهم فى وعى كامل ...وفى شماتة ، وعلى أبواب نصر أكيد .

\+ \+ \+

كانت ليلة ليلاء ، قارسة البرد ، شديدة العواصف ...مظلمة الصفحة

فى تلك الساعة كان ثلاثة من الرهبان يحضرون عجينة القربان ، فى بيت لحم استعداداً للقداس ، بمناسبة أحد أعياد القديسين .

..

(*) أى هذا هو اليوم ...وهى آية فى المزمور المائة والسابع عشر .

وفى حوالى الواحدة والنصف من صباح هذا السبت ، سمعوا صوت إرتطام شديد ، أعقبه صرخات عظيمة تفتت الكبد ، ثم فى لحظات هدأ كل شيىء وانتفض الآباء من مكانهم ، وهم يرشمون ذواتهم بعلامة الصليب المقدسة ، ويصلون صلوات سريعة قصيرة ، وما عسى أن يكون الأمر ؛ واتجهوا حيث كان مصدر الصوت وفى طريقهم إلى الباب البحرى للدير ، سمعوا أصوت قهقهة قبيحة ..عالية ومقززة مالبثت أن خفقت ، ثم عادت لتعلو من جديد بنفس القبح ، ثم تلاشت تماماً بعد ذلك وصار هدوء .

وما أن فتح الآباء الثلاثة الباب وخرجوا ، حتى سمعوا أنيناً خافتاً متقطعاً ، عرفوا مصدره .. جثة راهب متكومة غارقة فى بقعة كبيرة من الدم ، و أشعلوا أعواد الثقاب ، فندت عنهم صرخة ، شقت سكون الليل .

أنه الأب موسى

وفى لمح البصر ، تعاون ثلاثتهم ..وحملوه مثل الميت .. إلى داخل الدير ، وقد لحقهم رهط من الرهبان ، كانوا يصلون ساهرين فى قلاليهم ، حين سمعوا الصراخ فجاءوا ..

وذهبوا به إلى قلايته ..ولحقهم هناك الأب مكارى – وله دراية بالطب – وراح يمر بأصابعه على جسمه ، واكتشف كسوراً مضاعفة فى اليدين والساقين .. والضلوع .. واشتباه فى نزيف داخلى وارتجاج بالمخ .. وأسرع يعمل له (جبيرة) فى مواضع الكسور .. وأراحوه على لوحة كبيرة من الخشب ، و سقوه– بصعوبة بالغة – كوباً من عصير الليمون ..

و أفاق قليلاً ليئن أنيناً يقطع نياط القلوب .. ما لبث هذا أن تحوّل إلى صراخ .. وتجمع باقى الآباء حوله .. وخارج قلايته ، وهم يتساءلون عما حدث ..

وجاء القمص مينا رئيس الدير ، وطلب إلى الآباء – فى لطف وتوسل – أن يتركوه ليستريح ، على أن يقيموا صلوات لأجله ثم جلس هو و اثنين آخرين منهم الأب مكارى ، يخففون عنه ، ويرشون وجهه بالماء ، ويبدلون من وضعه على الفراش .. وهو لا يكف عن أنينه ..

ولم يلبث أن راح فى غيبوبة

وجلس الآباء حوله ، تلّفهم الدهشة ، ويعتصرهم الألم والقلق عليه ، وخرجت حيرتهم فى أسئلة وجهوها بعضهم لبعض .. ولكن لا أحد منهم يملك الاجابة .. ورفعوا قلوبهم بالصلاة ..

وعاد موسى من غفلته ، وراح يئن .. ولكنه مع الأنين طلب السماح والحل من كل الآباء ، وهم بدورهم طمأنوه ، وقال : أخطأت ولم أذعن لتحذير أبى ، وانسقت لغواية الشيطان ..خدعونى ..

واختنقت عبراته ، وحاول أن يبكى ، ولكنه لم يستطيع ، وتحول البكاء إلى أنين موجع مرة أخرى ، وصرخات خافته متقطعه ، والآباء يهوّنون عليه ويطلبون له الحل والغفران من الله .

وجاء الأب سمعان مسرعاً منزعجاً ، ثم بكى و أخفى وجهه بكلتا يديه ، ولكن موسى لم يكن يراه أو يسمعه فقد راح مرة أخرى فى غيبوبة .

وزهاء ذلك النهار تأرجحت حالة الأب موسى ، ما بين يقظة يقضيها فى الصراخ والأنين وطلب السماح والحل من الآباء ، وغفلة يغيب فيها عن كل ما حوله ...وكل من حوله ..

فى اليوم التالى ، ازداد الألم ...والأنين والصراخ ..ورغم كل المسكّنات التى أعطيت له .. ورغم ما يعرف عنه ، من احتماله الشديد ... كان واضحاً أنه فى ساعاته الأخيرة .

وجاءت القافلة (*) ، وربضت الجمال الخمسة عشر أمام نفس الباب الذى سقط الأب أمامه ، ولم يلتفت إليها أحد من الرهبان ، ولم يهتموا بأن يدخلون ما تحمله من مؤن انتظروها شهراً كاملاً ، حتى الجمالون أنفسهم ، قد سرت القشعريرة فى ابدانهم عند سماعهم ما حدث ..

وعند الظهرأشار الأب موسى بيده للآباء ، فخرجوا وتركوه مع الأب سمعان ، وحكى له ما حدث ، بكلمات متقطعة وبطريقة مؤثرة أبكت أباه ، ودخل أحد الأباء فى تلك الأثناء ، يحمل طعاماً وشراباً أعدّوه له ، ولكنه لم يستطع أن يأكل أويشرب ... وخرج الأب مرة أخرى .

(*) القافلة هى مجموعة من الجمالين يرأسهم أحد الأراخنة يأتون بجمالهم ما يحتاجه الدير و الآباء ، وذلك مرة كل أسبوعين ، وكانت هذة الطريقة هى المتبعة فى الأديرة حتى أواخر الستينات .

وعاد موسى يكمل .. وفى النهاية صلى له الأب سمعان صلاة التحليل وشجعه وطمأنه وشكرا الله الذى وهب له فرصة يقدم توبة ..

وعند الغروب كان كل جسمه قد تورم ، و إسود لون وجهه ، وإنقطع عن الكلام ، ولكنه بين آن و آخر كان يفتح عينيه يطلب بهما السماح فى توسل ، ثم راح فى غيبوبة استمرت حتى مطلع فجر اليوم الثالث ..

ولم يستطع الآباء أن يحملوه إلى أى مستشفى لئلا يموت فى الطريق من عناء السفر .. ولما أحس القمص مينا بقرب النهاية ، دعا كل الأباء ليتباركوا منه ... ويصلون لأجله ، وصلوا جميعاً فى قلايته صلاة الشكر ، أعقبها طلبة طويلة مؤثرة لأحد الشيوخ جعلتهم يبكون ، ثم قبلوه جميعا واحدا واحدا..ومضوا إلى قلاليهم..

وما هى إلا ساعة ونصف أى حوالى التاسعة والنصف حتى شق سكون البرية البرية ناقوص يعلن انتقاله..

وعلى السلم المؤدى إلى الكنيسة الأثرية فى الدير،جلس الأب مينا مع الأب سمعان يستمع منه إلى ماحدث

قال الأب سمعان: قالوا له – أعداء البر والخير– سنأتى إليك من فوق ، وتنتظرنا على السور– بجوار المطعمة – وفى الوقت المحدد، وكان المسكين فى انتظارهم، سمع أصوات رعد وعواصف وبرق يظهر ويختفى ، ثم خيالات كثيرة ،وأصوات مختلفة ،وخيل إليه أن المركبة قد جاءت ، كبيرة وسريعة ، يطير بها أربعة خيول من نار ، ثم أصبحت ملاصقة للسور ، وسمع هو من يقول له: تقدم.. اخطو نحو المركبة

وأذعن للصوت ،ورفع قدمه اليمنى ليخطو نحو المركبة ، فإذا بقدمه تزل، وينزلق من فوق السور ، ويتلاشى كل شىء، بينما هوى كحجر عظيم على الأرض من ارتفاع تسعة أمتار، وسمع بنفسه قهقهتهم وسخريتهم ، بينم هو يصرخ من الألم .

ثم قال الأب سمعان مستطردا : نعم لقد اعترف بكل شىء.. وكشف كل أفكاره ، ولعل الرب لم يسمح بأن يضيع تعبه وجهاده..وقد ترك له فرصة يقدم فيها توبة لئلا يفقد أبديته..

وأما الأب فليمون ، وكان رجلا بارا تصرخ حياته قداسة وشهادة حية للرب، طوال أيام حياته فى الدير ، فقد خرج من بعد عدة أيام ليجلس على احدى الصطبتين أمام الباب .

وحدث نحو منتصف الليل ،أن سمع صوت جلبة وضوضاء أتية نحو الدير ، وإذا بطغمة من الشياطين ، قبيحة المنظر ، أتت لتتفقد الموضع الذى هزموا فيه الأب موسى ، وفى نفس التوقيت.

وكأن الأب قد جاء خصيصا لهذا الغرض ! ، إذا ما أن اقتربوا من الباب ، حتى صرخ فيهم باسم الرب أن لا يتحركوا من أماكنهم فتسمروا فى مواضعهم وراح يصلى بصوت عال ، بزكاوة قلب وقداسة سريرة ، وبدالة شديدة لدى الله .

وصرخت الشياطين ، ولكنه لم يأبه بهم، وازداد عويلهم وصراخهم ، وراحوا يضربون الأرض بأقدام من حديد، ولكنه أهملهم وأطال فى الصلاة ، وهم يتعذبون ، وطلب من الرب بصوت مسموع أن يخزيهم ، ويلحق بهم العار..

وازدادوا صراخا، وطلبوا إليه بتوسل أن يطلق سراحهم..وقال لهم كيف تتجرأون على خليقة الله أيها الأشرار وأنتم تعلمون أن مألكم هو البحيرة المتقدة بالنار...

فأجابوه بمناظرهم البشعة وأصواتهم القبيحة بأنهم لم يحققوا مأربهم .. لأنه لم يمت قبل أن يتوب وهم لذلك أسفون ، ووعدوه أن لا يعودوا إلى هذا المكان مرة أخرى..

فرشمهم بعلامة الصليب المقدسة ثلاث مرات .. وهو يقول ليخزيكم الرب عنا ، فإذا بهم يتحولون إلى دخان قذر ويختفون..

هذه هى أخر لقطة من حياة الأب المبارك التنيح القمص موسى المسعودى البرموسى الذى ولد عام 1566 ش الموافق 1850 م بإسم بشاى مرقص بقرية الشيخ مسعود بطهطا وجاء للرهبنة فى عهد القمص يوحنا الأول عام 1589 ش الموافق 1873 م وقد رسم قسا فى عام 1594 ش الموافق 1878 م فى عهد القمص يوحنا الثانى ثم قمصا فى عام 1616 ش الموافق 1900 م فى عهد القمص مينا الأول . ثم تنيح فى عهد القمص مينا المحلاوى رئيس الدير عام 1636 ش الموافق 1920 م

سردناها (بتصرف) فى قالب قصصى .

دعوة إلى وليمة

فى بطء شديد خرج الراهب الشيخ من باب قلايته الملاصقة للكنيسة،خرج يتحسس طريقه ، يحمل عبء الستين عاما ، ويجر ما خلفت له من أمراض مختلفة.

يلوح بعصاه بلطف ذات اليمين وذات اليسار ، علها ترتطم بشئ فيتعرف إلى طريقه .. وربما ليتأكد أنه ليس هناك ما يصطدم به .

وقبل أن يحقق بضع خطوات ، هرع إليه راهب شاب ، لثم يده وسأله إلام يحتاج ؟ ثم قاده فى إشفاق ، وابتسامة على ثغره ، حتى وصل إلى (مصطبة) قريبة أجلسه فوقها برفق، ثم استأذنه فى الإنصراف وهو يطلب إليه أن يدعو له ، وقال الشيخ عبارته المشهورة : (الله يساعدك على خلاص نفسك) .

وفى جلسته لا يبد حراكا .. لا شئ سوى صوته الذى يرتفع بين الفنية والفنية ، مرددا مديحة قديمة ورثها عن الذين سبقوه، أو ترتيلة حملها معه من قريته ، وهو فى ذلك له طريقة مؤثرة ، فقد جمع صوته الحانى بين رنتى الحزن والفرح معا ، ويشعر كل من يسمعه أن الصوت قادم من بعيد ، بعيد جدا

! من الأبدية ، يشعر أنه يرنم هناك ، فوق ثم يصل الصوت إلى الذين يسمعون عبر كثافة ثقيلة من الزمن والمادة.

ثم أنه لا يهدى مديحه إلى أخر ، ولا يروم إلا لذة التسبيح ، يدخل بها فى هدوء إلى المحفل الإلهى.

كما أن لترتيله خاصة عجيبة ، فهو يبكت ويشجع فى أن .

ويمضى الوقت .. وهو لا يعرف الساعة .. ولا المواعيد، ولا يستطيع أن يفرق بين الليل والنهار ، فإذا دق ناقوص الكنيسة ، صحبوه إلى هناك ، وإذا دق ناقوص المائدة ، صحبوه إلى المائدة ! لايسأل عن الساعة! ثم أنه لا يعرف مكانا فى الدير ، أقصد لا يعرف كيف يصل إلى أى مرفق من مرافق الدير دون مساعدة أخر.

إنه محمول على عناية الله ورعايته..

وتطول جلسته على(المصطبة) فينهض بنفس البطء والهدوء ويتأهب لرحلة الرجوع ، وطولها عشرون مترا فقط ! حتى يصل إلى قلايته ، نفس العمل الشاق ! ويلمحه راهب أخر ويتطوع بمرافقته إلى القلاية..

فإذا جاء موعد النوم ، أتى راهب شاب يعينه رئيس الدير لخدمته، يفتح هذا باب قلاية الشيخ فى هدوء ليطمئن إلى مرقد الشيخ ، ثم يطلب بركته وصلواته ، ويخرج ثم يغلق الباب من الخارج

إلى أن يحين موعد ناقوص صلوات وتسبحة نصف الليل ، فيعود إلى القلاية ليصحبه إلى الكنيسة ، يضع يده فى يد الأب الشيخ ويقتاده فى صمت مطبق إلى هناك ، والشيخ فى هذا وذاك مطمئن ، لا يسأل ولا يستفسر .. فهو يعرف أنهم يقضون له حاجاته عندما يحين موعدها، وهو موقن أنه بين أيدى أخوته التى سبقت فأيدتها يد الله الأمينة..

كل وجبة طعام ، عندما يدق الناقوص، يأتى الراهب ويصحبه من يده وينجه به نحو المائدة، يجلس ويأكل من يده فى صمت، ثم يذهب معه ليغسل يديه وفمه، ويناوله فنجان الشاى، ثم يرجع مصحوبا به إلى قلايته، أو إلى جلسته فوق المصطبة ، كذلك عندما يحين الوقت

الاسبوعى يحضر نفس الراهب ويعد له حمّامه ، ويغسل له ملابسه .

وبالجملة يصبح الراهب الذى يخدم الشيخ بمثابة عين له .

+ + +

ويدق ناقوص نصف الليل ذات يوم ، كعادته الساعة الرابعة من كل صباح ، ويمضى الراهب إلى قلاية الشيخ ، ويدفع بابها برفق إلى الداخل ويناديه :

هيا يا أبى ، فقد دقّ الناقوص ، بنا إلى الكنيسة لنسبح .

أى ناقوص و أية تسبحة

الراهب فى صبر واضح :

ناقوص تسبحة نصف الليل .

باركك الله يا ولدى ، لعلك نسيت أو تحلم !

أبداً يا أبى .

كيف ذلك يا إبنى ، وقد دقّ الناقوص منذ ساعات وذهبت إلى الكنيسة .

الراهب الشاب مداعباً :

أى ناقوص و أية كنيسة

لقد سبحت ، وصليت القداس .

رباه .. انك تحلم مافى ذلك من شك

ابداً صدقنى ، لقد كان القداس جميلاً ، لا أذكر أننى تعزيت مثلما شعرت بالتعزية هذا الصباح ، ولكن قل لى ألم تأت أنت إلىّ وصحبتنى إلى الكنيسة ؟

و أسف الراهب الشاب فى نفسه ، ورشم ذاته بعلامة الصليب ، و اعتقد أن الشيخ قد لفحه هوس مفاجىء ، أو أن الأمر اختلط عليه ، إنه لم يسأل مرة واحدة عن الساعة (الوقت) أو الناقوس ، بل قد تمضى ساعات وهو جالس لا يدرى كم مضى من الوقت ..

ومدّ يده ليلتقط يد الشيخ ، ولكن الشيخ سحب يده ، وزجره فى براءة ، وعاد ليقول :

كان القداس جميلاً ، وكذلك الأب الذى صلى كان صوته ملائكياً ، ألا تصدقنى ؟! لقد تناولت من السر المقدس .

وتذرع الراهب بالصبر الذى تعلّمه من بطء الشيخ ، وهمّ أن يعيده إلى صوابه ، ولكن الشيخ مد يده فى هدء ، فشدّ طرف ثوبه ، ليفسح ليده مكاناً فى جيبه ، ثم بعد مجهود قليل أخرج قطعة (أولوجية)(1) ثم دفعها إلى الراهب ، الذى إنحنى بدوره و إلتقطها بأصابعه ، فإذا بها طازجة ، فى حين أنهم

---

(1) أولوجية كلمة يونانية معناها "كلمة حلوة " وقد أطلقت على لقمة البركة التى يوزعها الكاهن على الشعب عقب القداس لأنها كانت توزع مع كلمة منفعة لكل أحد .

يلهث ، ويفطن الأب إلى ما حدث ، فيصحب بعض الآباء إلى الكنيسة الأثرية الكائنة تحت الأرض ، ليفاجأوا هناك بالبخور يعبّىء المكان ، و الأوانى متروكة على المذبح دون أن تجمع ، وقطرات من الماء فوق المذبح أمام كرسى الكأس .

حتى تلك الساعة من الصباح ، لم يكونوا قد قاموا بصنع القربان بعد .

واندهش أيمّا اندهاش ، وصمت قليلاً ، ثم عاد ليقول للشيخ : أرو لى ما حدث بالتدقيق .

أجاب الشيخ : ليس هناك أكثر مما قلت لك ، ولكن لماذا لم تأت معنا ؟ واضح أنه صحبنى راهب آخر غيرك ، لماذا نمت حتى الآن ..

ولم يرد الراهب ، ولكنه انطلق إلى أب الدير يروى له ما سمعه وهو وعاد الآباء وقد غمرتهم الفرحة

وشملتهم التعزية إلى قلاية الشيخ ، يشرحون له ما حدث ، ويتلقّى الشيخ الكلام بهدوء عجيب وصمت مطبق ، خال من الدهشة ولم يسأل عن شىء بل هز رأسه قليلاً .

هذة الواقعة رواها لى الشيخ نفسه قبل نياحته بعشر سنوات .

واسم الشيخ : الأب الراهب / اندراوس الصموئيلى .

وَأحفظك حيثما تذهب

على المنصّة الكبيرة فى منطقة أبى قير بالاسكندرية ، وقف إثنان و عشرون عبداً ، رهن العرض للبيع .

إنه سوق العبيد ، وقت أن كانت تجارة الرقيق لا زالت منتشرة وكان ذلك فى أواخر القرن السابع عشر ، حين جمع التجار هذا العدد وقد إشتروهم بأثمان بخسة ليبيعوهم للأمراء والموسرين .

وكانت لهم طريقة خاصة فى عرض العبيد ، فهم ينظفونهم من الأوساخ التى لحقت بهم من جراء الاصطياد أو السفر ، ثم يلبسونهم ملابساً جديدة ليبدوا أكثر رشاقة ، ثم يضعونهم على منصة أشبه بالمسرح ، وفى صف نصف دائرى ، هذا وعلى صدر كل منهم تدّلت رقعة صغيرة من الخشب كتب عليها ، اسم العبد ووزنه وطوله وسنّه والعمل الذى يجيده ثم ثمنه ، ولكنهم يخفون البلد الذى أتو به منها ..

فى ذلك اليوم دقت الطبول وعزفت الموسيقى ، وكان شيئاً أشبه بالحفل ، لأن هذا المكان أيضا كان سوقاً كبيراً لكثير من المنتجات ، وملتقى ومنتدى لكثيرين من أهالى الاسكندرية ..

وجاء أمير من الأمراء ، يبحث عن عبد يشترك فى العمل مع العبيد الآخرين فى قصره ، ووقف طويلاً أمام تلك المنصة يتفرس فى وجوه المعروضين للبيع ..شباباً فى ريعان الصبا ، تطفح عيونهم أساً ومرارة ، شاء الله أن يقعوا فرائساً فى أيدى المتجبرين العتاة، منهم من بيع سداداً لديون ذويه ، ومنهم من اصطيد فى الحرب ، ومنهم من باع نفسه !

وبدا له أن أفواههم تقذف حمماً ، و عيونهم تقدح شراراً ، وتصرخ بالنقمة على المجتمع كله ، لا سيما الطبقة الارستقراطية فيه .

و الأمير ، أمير طيب القلب ، له قرية كبيرة ورثها عن ذويه .. كانت مثل مملكة صغيرة .. وبها بعض من العبيد والجوارى .. وتحيط بمملكته الصغيرة أراض كثيرة هى ملك له أيضا..

وهو لا يتعامل مع عبيده على أنهم عبيد ... وإنما اجراء ، أو بمعنى آخر كان يحسبهم كأناس يعملون معه ...لا عنده .

ونعرف أنه فى تلك الأيام ، كان من حق مالك العبد أن يفقأ له عينه مثلاً ، أو يكويه بالنار إذا سرق ، و أن يخصيه للوقاية ، و أن يقطع عضوا من جسمه ، يفعل به كما يحب ، ويترك صغاره يلهون به دون أن يعترض ... بل له الحق فى قتله ، وذلك إذا هرب منه مثلاً ثم استطاع أن يجده ، هكذا كان القانون يتيح وقتها .

مر الأمير بعينيه على العبيد الواقفين يتململون فى وقفتهم واحداً فواحداً ، فرأى بينهم الممتلىء والنحيف ، والقبيح الوجه والجميل الصورة ، والفارع طولاً والمخل قصراً ، الضعيف البنية والقوى عضلاً .

وتردد ..وأجال البصر كثيراً إلى أن إستقر رأيه على ذلك الشاب المتوسط الطول ، القوى البنية ، تنطق ملامحه الصريحة بالجدية وتشع عيناه ذكاءا وطيبة قلب ...

واقترب قليلاً و أشار بيده ناحية ذلك الشاب ، وحينئذ أسرع حارس "فظ" وجذب الشاب ، جذبة لا رحمة فيها ، و استسلم الشاب دون أن يهتز ، رابط الجأش ، يمتلكه سلام عجيب ، ويشمله هدوء حلو ..

وقرّب الأمير اللوحة المدلاه على صدر الشاب إلى عينيع ، وتفرس فيها قليلاً ، ثم قال فى ثقة وسرعة : موافق !

وحينئذ إستلم الشاب مع الأوراق الخاصة به (صك العبودية) وإنطلق به إلى قصره..

كان (روفين) من إحدى قرى البحيرة وقد هاجم قريته جماعة من البربر الذين أتوا من نواحي سيوه، منحدرين من ليبيا ، لقد هجموا على بعض بيوت القرية ، وقتلوا من فيها من الرجال والنساء ، ثم استبقوا الشباب فأسروهم عبيداً .

وهو من أسرة تقية ، فقد اتسم والداه بالبر، وأرضعاه اللبن المقدس، وعلماه كيف أحبه الله وكيف يحبه هو ، نشأ متعلماً أن يكون له مخدع يرتاده صباحاً ومساءاً ، وله فم مبارك ونظر مقدس .

وقد صُدم عندما قتل أبواه وأخته الوحيدة ، ولم يفق من الصدمة إلا عندما أحس بأربعة رجال أشداء يقيدون يديه إلى خلف بلا رحمة ، ثم يدفعونه أمامهم بخشونة وهم يركلونه بأقدامهم ، وأفواههم تهدر بأبشع الشتائم..

هذا هو روفين الذي اصطحبه الامير إلى قصره ، ثم ارسل يستدعي القائم على بيت العبيد ، فجاء رجل ناهز الخمسين من عمره ، طويل القامة مفتول العضلات ، غزير الشارب ، أدى فروض الطاعة والولاء في كلمات سريعة اعتاد ترديدها مع حركات اسرع .. وكأنها طقس من الطقوس .

قال الأمير :

خذ هذا ، اسمه روفين لينضم إلى بقية رجالنا ، ويبدو عليه أنه شاب طيب وذكي ، لعله ينفعنا في الأعمال الداخلية.

وامتثل للأمر ، وخرج يتبعه روفين منكس الرأس ، لا يدري ماذا ينتظره ، وإن كانت معاملة سيده الأولى له ، قد أشاعت الطمأنينة في صدره ، إلا أنه لم يستطع أن يتخلص من الشعور بالحذر ، والتوجسّ خيفة .

وكان العبيد في ذلك القصر ينقسمون إلى فرقتين،الفرقةالأولى وقوامها إثنى عشر رجلاً ويعملون في حراسة القصر من الداخل والخارج،والفرقةالأخرى تعمل في الشئون الداخلية له ..

وكتعليمات الملك الصغير ، ضمّ روفين إلى الفرقة الثانية ..

وكان عمره في ذلك الوقت حوالي التاسعة عشر، وكانت صناعته (فخاريا) .. وكان يعلم أننا جميعاً كعجينة في يد الله ، يتولى هو الاهتمام بنا ، وإعدادنا ، كذلك عاش شاكراً ، يشعر أن الله يدافع عنه دائماً ويدفع عنه المتاعب ، وكان يكتنفه سلام عجيب ، وتعلم أن يصلي دائماً في فرح ويشعر أن كثافة هذا العالم لا تقدر أن تخفي عنه الله ، وقد كان مصدر بركة لأسرته وأصدقائه وجيرانه .

إلى أن حل ذلك اليوم الذي أسر فيه .

في سرعة البرق انتشر الخبر بين بقية العبيد ، كعادتهم عندما يفد إليهم عبد جديد ، فإنهم يتناولون ذلك في شيء من الاهتمام واللهفة لمعرفة كل ما يخصه ، لكي يكونوا على بينة من أمره ، وليطمئنوا إلى أنه لن يتسبب في تكدير صفوهم ، بل سيمضي في طريقهم ، وينضم إليهم وينتصح بنصائحهم وينطوي تحت لوائهم .

كان اللقاء الأول بينه وبينهم ، في الحجرة الرطبة (البدروم) التي إعتادوا أن يجتمعوا فيها لاحتساء الشاي وعرض نوادر اليوم وملابساته ، وليبث بعضهم شكاواهم إلى البعض الآخر.

هناك وعلى ضوء المصباح الزيتي الخافت ، دعوه ليشرب معهم الشاي ، إنه حفل تعارف ..

والحقيقة أن هذه هي المرة الأولى لروفين ، التي فيها يجمعه مكان واحد مع إناس من هذا النوع ، وأنتم تعرفون العبيد ، وكيف هم ناقمون على المجتمع ، بسبب أنهم مهملون ومحتقرون في الحياة ، إنهم يحقدون على كل سيد ، ويستبيحون لأنفسهم كل ما تصل إليه أيديهم من مال أو متاع ، يخص سادتهم ، إنهم ينتقمون من كل " السادة " وكل الأغنياء ، ويشعرون بلذة النصرة الخفية ، وذلك أيضاً بسبب القسر الذي يرزحون تحته ، وإن كانوا يُظهرون الطاعة والخضوع لأولياء نعمتهم ، بينما ينهشون في أعراضهم وكرامتهم في غيبتهم ، إنهم يقدمون المديح صاغرين ، وكأن إحترامهم لسادتهم ينتزع منهم إنتزاعاً ، ولذلك فعندما أرسل معلمنا بولس الرسول برسالته إلى تلميذه فليمون ، كتب يقول له " لكي لا يكون خيرك كأنه على سبيل الإضطرار بل على سبيل الاختيار "(فل 14) . لأنه عرف أن العبيد مضطرون للطاعة ، ولذلك فهو لا يود أن يكون فليمون على نفس المستوى .

عرفوا منه كل ظروفه ، واكتشفوا في حديثه أنه شاب فاضل ، لم يلحقه بعد دنس العالم ، ولم ترتق إليه الشرور التي لحقتهم ، والحقيقة أنهم أشفقوا عليه من أنفسهم ، ومن الحياة التي ستقبل عليه ، كانوا لطفاء ودودين نحوه في تلك الليلة ، بشروه خيراً ووعدوا بأن يمدوا له يد العون ، كلما إحتاج إلى ذلك ، وهو بدوره شكر لهم محبتهم واستقبالهم .

وأدرج في العمل معهم ، وبدا هدوءه وطهره لكل من في القصر ، ووهبوه ثقتهم وعطفهم ، فلم يكلفه أحدهم بعمل ما في الصباح الباكر ، وذلك احتراماً لرغبته في الصلاة ، وهم وثنيون ومع ذلك فقد احترموا مشاعره ومعتقداته ، وأفسحوا له ليعمل مايشاء ، كذلك فقد أوصى الأمير عليه بنفسه ، وأعطى أوامره إلى الطباخ بأن يصنع له ما يطلبه من طعام خاص ، وذلك في الأوقات التي يمتنع فيها عن أكل ما يأكله الآخرون (يقصد عندما يكون صائماً) .

وسألوه ذات مرة ، ماذا يقول وهو واقف منتصب القامة رافعاً يديه لأعلى وهو مغمض العينين ، كما إستفسروا منه عن الإشارات التي يرسمها بأصبعه على نفسه ، ولماذا لا يحلف ولا يشتم ، ولا يميل إلى القصص التافهة التي يثرثرون بها ، وأجابهم في بساطة وصراحة ، ولم يفهموا ، ولكنهم أحبوه ، نعم .. وإن كان لم يشاركهم لهوهم وخمرهم ، وأحاديث النميمة التي يحلو لهم الخوض فيها كل أمسية. كذلك هو أيضاً أحبهم ، وغفر لهم نزاوتهم من قلبه ، وإلتمس لهم الأعذار وتمنى لو أتيحت له الفرصة لكي يطلق كل العبيد أحراراً ، كان يحلم بذلك ، ولكنه لم يعلن لهم عن هذا الفكر وإنما كان يسلحهم بالصبر والشكر ، يحدثهم عن إرادة الله وهم لا يعون ما يقول ، ويستمعون في صمت وغرابة وإستخفاف في بعض الأوقات.

إلى أن وقع حادث السرقة في ذلك اليوم الرديء ، تمثال إغريقي من الذهب الخالص ، لإله من آلهة اليونان ، كان أحب التماثيل إلى قلب الأمير ، واستشرت الدهشة في جوانب القصر ، وإنطلق الوعيد يدوي في إرجائه ، الموت للسارق إذا اكتشف قبل أن يبلغ هو عن نفسه ، أو يعيد التمثال إلى مكانه .

واكتُشف السارق ، وسيق مكبلاً إلى الموت ، رجل في الاربعين من عمره ، أسمر اللون مكفهر الوجه ممتلئ الجسم منكس الرأس ، قاده الحراس في غير شفقة وهم يركلونه بأقدامهم ويبصقون عليه ويشيعونه بشتائم يستحى منها ..

وإعتصم هو بالصمت ، فقد كان أولئك الذين يسوقونه إلى الموت هم شركاؤه ، صمت لشهامة فيه ... واكتفى بأن يموت وحده دون أن يجر غيره معه .

وتهامس العبيد الآخرون في مساء ذلك اليوم فيما بينهم ، ترى من أبلغ عن السارق ؟ فهذه ليست المرة الأولى ، فهم لهم عادة في ذلك بين الحين والحين ، يسرقون شيئاً ليبيعونه ثم يقتسمون الثمن فيما بينهم ، فمن عساه أبلغ في هذه المرة .

وأملى الشيطان على ضمير أحدهم أن يتهم روفين ، وأعلن اتهامه على بقية إخوته وأورد أدلة واهية ، إنه ولاشك روفين فهو لا يؤاكلنا ولا يندمج معنا ، له طبعه الخاص ، والأرجح أنه وشى بنا لأنه يكره آلهتنا ..

وثار العبيد دون ترو أو تمهل ، وأقروا ضرورة الانتقام لكبريائهم منه ، واتفقوا على أن يسقوه من ذات الكأس – على حد تعبيرهم – ويردوا له الصاع صاعين ، ولم يكن روفين بالطبع معهم في ذلك الوقت ، بل كان على سطح إحدى البنايات ، يقضي وقتاً في الصلاة والتأمل كعادته ، وانبرى (فلافيان) يعلن تطوعه للقيام بالمهمة وشيّعوه بالتشجيع .

أمام عرش الأمير ، وقف فلافيان ، شاب تجاوز الخامسة والثلاثين من عمره ، طويل القامة نحيف الجسم ضعيف العينين حاد الذكاء ، له مشية غير منتظمة كأنه سكير يترنح .

قال فلافيان : سعدت مساءاً يا مولاي ، الطاعة كل الطاعة لمولاي ، حفظتك الآلهة وأدامت لنا ما نحن فيه من سلام .

قال الأمير : لعلكم مطمئنون

- كل الاطمئنان يا سيدي الأمير ، واطمئن أميرنا الجليل أننا كلنا عيون ساهرة على القصر ومن فيه ، وماجئت اليوم إلا لندرأ عنك خطر يحدق بك.

- تكلم ولا تخفي شيئاً .

- نعم إنه روفين .

... شهق الأمير دهشة ، وسأل في لهفة ، ما عسى أن يكون الأمر ؟

قال فلافيان : لقد خدعنا جميعاً بهدوئه وصمته وإنعزاله عنا جميعاً ، ولكن الآلهة كشفت لنا عن هويته ، فهل يصدق جلالتكم إنه يتآمر عليكم ؟ وإذا لم نتحرك فلن تنجو من الخطر يا مولاي المصون .

وتغير وجه الأمير ، واشتدت قسمات وجهه قسوة ، فهو يحب روفين ويحترمه وينزله في قلبه منزلة الآلهة الصغار ، وطالما استدعاه ليس لضرورة سوى أن يراه فقط ويشبع من السلام الذي يفيض عن وجهه،ويسمع منه ما يثلج صدره, كان يرغب فيه, ويشعر أنه قد أصبح للقصر مذاقاً جديداً بعدنزول روفين فيه.

ولذلك فقد صعقته المفاجأة..

وانتهز فلافيان ذلك وراح يكيّل التهم لروفين في غيابه, ويوجس الأمير خيفة منه, ويتوسل اليه في مكر, ألا ينخدع بالمظاهر, وأن حياة وسلامة الأمير, رهن وجود لك الشاب على قيد الحياة, إذا روفين هو كبش الفداء!

وتضايق الأمير, وغشت قلبه غمامة من الحزن, ولكن الملوك و الأمراء مستعدين دائماً للتضحية بكل ما يهدد سلامهم و حياتهم ,مجرد تهديد, أي نسبة من التهديد يستحق مصدرها التخلص منه .. كما أن الأقوياء غالباً ما يفتقرون إلى الصبر.!

وصرف الأمير فلافيان.

وثقل الحزن عليه, وصلى إلى آلهته أن تعينه على الخلاص من شر روفين, وإبعاد الخطر عن قصره،بيّت أمراً في قلبه, قراراً أتخذه في قلقه و خوفه, وأسرع في أن يجعله موضع التنفيذ.

سمع الحارس في الخارج, صوت عصا الأمير تضرب الصنج المعلق, فهرع إلى الداخل, وركع في

حركة ميكانيكية سريعة_تعودها_ مع عبارة الطاعة, وطلب إليه الأمير استدعاء أربعة من عبيد الحراسة الخارجية, سماهم له بأسمائهم.

وبعد قليل جاء الأربعة ينتظرون أوامر أميرهم المحبوب, ولعلهم لاحظوا لك السواد الي إحتل صفحة وجهه وتلك العصبية التي يتكلم بها, وقلقه الواضح في جلسته على عرشه, قال لهم:

غدا, وفي تمام الثالثة صباحاً عليكم التواجد في الجرن الكائن شرقي البلدة, هناك توقدون ناراً (آتون صغير) وتجلسون مقابلة, تنتظرون شخصاً سيحضر الساعة الرابعة يقول لكم " أرسلني الأمير لتسلموني ما طلبه منكم" عليكم أن تقيدوه من يديه ورجليه وتلقوه في الآتون, حتى إذا ما أحترق وتفحم, إطفئوا الآتون وإرجعوا إليّ لتخبروني..

وإنصرف العبيد واجمين..

وعادت عصا الأمير تصطك بالصنج, وطلب إستدعاء روفين, وجاء روفين هادىء النفس واثق الخطى, يتمتم بكلمات لم يسمعها أحد, ثم وقف أمام الأمير منتظراً تعليماته.

وأبتسم الأمير في وجه روفين, أو بمعنى أدق تكلف الإبتسام, وبنظرة حانية قال له:

انت تعلم كم أحبك, وأثق في رجاحة عقلك وأمانتك واليوم احتجت إلى انجاز مهمة رأيت أنك أنسب من أكلفه بها.

وأحنى روفين رأسه موافقة, وقال للأمير أنه يعد ذلك شرفاً عظيماً لا يستحقه, وأنه يطلب من إلهه أن يعينه في سبيل خير الأمير و المملكة.

حينئذ أردف الأمير قائلاً: غدا وفي تمام الساعة الرابعة صباحاً, عليك التوجه إلى الجرن الشرقي, هناك ستجد أربعة من العبيد بجوار نار أضرموها, قل لهم (ارسلني الأمير لتسلموني ما طلبه منكم) ثم إحضر إليّ ما يسلمونك إياه..

وأحنى روفين هامته مطيعاً وأستأذن في الإنصراف.

ثم مضى مسروراً, يشكر الله على كل شيء ويصلي طويلاً ولا يفتر قلبه ثم فمه عن ترديد كلمات الشكر, وطلب العون و الحكمة, ولم ينم تلك الليلة, فقد خاف إن هو نام, أن لايمكنه التعب من

الإستيقاظ في الموعد اللازم , فسهر.

وصلى كثيراً في تلك الليلة, ورتل بما كان لايزال يحفظه, وتذكر أباة و أمه, وبكى كعادته كلما تذكرهم ,وسأل نفسه إن كان سيلحق بهم في الفردوس أم أنه لايزال خاطئاً متوانياً.

وإنصرف من الليل نصفه, وإقتربت الساعة من الثالثة, وقام ليغسل وجهه ويبدل ثيابه -أفضل مالديه من ثياب_ وركع ووجهه ناحية الشرق, ولم يسمع أحد ماقاله في صلاته, ولكنهقام منطلق الأسارير باسم الثغر, يحس بنشوة تحتل قلبه, وخرج من القصر, ومشى طويلاًحتى لمح عن بعد ناراً متقدة, وفرح أنه عرف الهدف, وهكذا سار نحو المكان في شيء من الإطمئنان.

في تلك الأثناء كان الأمير يجلس في أحد ابهات القصر وقدانتابه الأرق, وجلس ساهماً يعالج ضيقاً تسلل إلى قلبه, وكان يفكر في الموت الذي ينتظر روفين, فهو يحب روفين ولا يعلم كيف تسرع في الحكم عليه, لقد إنفعل ولم يكن من الصواب أن يتخذ قراراً في غضبه, ثم من أدراه أنه بالفعل مذنب؟ وأن فلافيان قد وشى به؟

وقام يذرع أرض البهو في قلق و الألم يكاد يعتصر قلبه.. ثم همّ بالدخول إلى حجرته, حين أُبلغ بأن العبيد الأربعة قد عادوا يسألون عنه, وأستقبلهم في لهفة وهو يتمنى ألا يكونوا قد قتلوه, ولكنهم خيبوا ظنه بقولهم أنهم أتموا المهمة التي كُلفوا بها, قالوا له أنه تأخر قليلاً وجاء أليهم في السادسة والنصف وأنهم أطفأوا النار حالما تحول إلى فحم.

وتجهّم وجهه.. وصرفهم في جفاء وعاد إلى عرشه, ثم جلس هو يحمل رأسه على كفيه وقد أظلمت الدنيا في عينيه ومادت الأرض تحت قدميه.. ولكن صوتاً همس في داخله, أن لا فائدة ترجى من الحزن وقد قضى الأمر, وأن ذلك لأهون من أن يلحق به و بمملكته الأذى, وحاول أن يلم أطراف شجاعته, ولكن صورة روفين لم تبرح مخيلته, وضغط بكلتا يديه على رأسه, وتمنى- مثلما يتمنى الطفل- أن يكون ما حدث لا يعدو أن يكون حلماً.. ولكنه لم يكن يحلم.

وفيما هو على تلك الحال, استأذن شاب في الدخول إلى الأمير, وسمح له.. وما أن دخل وألقى التحية على الأمير , حتى تجمد الأمير في مكانه, وعقدت الدهشة لسانه, وعاد الشاب يلقيالتحية....

إنه روفين! وجحظت عينا الأمير وفغر فاه دون أن يستطيع الكلام وتعجب روفين, ودارت رأس الأمير وكاد يجن ... وفي كل هذا لم يفهم روفين شيئاً , بل بدأت الحيرة تنتقل أليه.. ما عسى أن يكون هذا, وتمر دقيقتين, يفيق بعدها الأمير, ويضرب بقبضته على مسند عرشه, ويصرخ مبهور الأنفاس, وتخرج الكلمات متقطعة: ألم تمت.. ألم تحترق.. أأنت حي أم هو شبحك. ..

وفزع روفين وأحس أنه كانت هناك خطة للتخلص منه حرقاً وحاول أن يستفسر, والأمير يصرخ ثم يطرق الناقوص بعصاه وقد هب واقفاً, ثم يهرول اليه الحارس فيأمره بإستدعاء العبيد الأربعة الذين كانوا عنده منذ ساعة ونصف, ويأتي العبيد الأربعة ويسألهم في دهشة كبيرة: ألم تتمموا ما أمرتم به.

فيحنون رؤوسهم بالإيجاب, ويكررون ما قالوه قبلاً, أنه تأخر قليلاً لكنه نال عقابه.

وينظر الأمير إلى وجه روفين, ثم يحول بصره إلى العبيد الأربعة, ويكاد يطير عقله, وروفين بدوره ينظر إلى الأمير و إلى العبيد في تساؤل و فزع, والعبيد انتقلت إليهم الحيرة و التساؤل.

وساد المكان جو من الفزع و الخوف, ومئات من علامات الإستفهام ترقص في المكان.

ولكن مالبث الأمير أن هدأ, وصوب نظرة مخيفة إلى العبيد, وكأنه وضع يده على الحقيقة كاملة, فقال بهدوء :صفوا لي الشاب الذي أحرقتموه, فقالوا له: إنه شاب طويل القامة نحيف الجسم ضعيف العينين يتعثر في مشيته.

فهتف الأمير : الآن علمت كل شيء.

ونظر إليه العبيد وكذلك روفين, في توسل و كأنه قد جاء دورهم في إستيعاب ماحدث.

وصرف الأمير عبيده الأربعة, بينما استبقى معه روفين, وأجلسه إلى جواره, وسأله إن كان قد صدر منه ما أتهمه به فلافيان, فأجاب بالنفي قائلاً:

إن إلهي الي أعبده , أوصاني بأن أحب كل الناس, وأحتمل الكل وأضعهم فوقي دائماً, وألا أسرق أو أدين, حتى اولئك الذين يسيئون إليّ , لا أحتقرهم أو أرد لهم الإساءة.

قال الأمير:

ماذا كنت تريد عندما أتيت الآن ولماذا لم تذهب كما قلت لك بالأمس؟

قال روفين:

نعم, كنت أريد أن أعتذر لعدم ذهابي وإتمامي المهمة التى كلّفت بها.

فقال الأمير : ولماذا..

قال روفين: قبلما اقتربت من التار المضطرمة في الموعد المحدد ,إذا بي أسمع صوتاً يصافح أذني, لم أعرف مصدره ولا هويته.. واختفى ثم عاد مرة أخرى ,ووقفت و أرهفت أذني, و إستدرت قليلاً ريثما أتبينه.. إنه آت من الشرق.. نعم إنه رنين.. إنه جرس.. آه..

لعله ناقوس الكنيسة, كنيسة الدير الواقع علىمقربة من البلدة, إنه يعلن بدء التسبحة اليومية التي يعقبها القداس الإلهي, ما أحلاها التسبحة وما أحلاه القداس.. وحدثت نفسي: لأذهبن إلى هناك وأسبح مع الآباء الرهبان..

نعم لقد مر وقت طويل دون أن أحضر القداس وأتناول من الأسرار المقدسة.

وصمت قليلاً و إذا بالأمير يحثه على الإستمرار:

وتذكرت والدي ووالدتي يا سيدي الأمير ,وكيف قالا لي كثيراً ألا أترك القداس الإلهيإلى موضع آخر, ومتى سمعت الناقوس فلا تأبه لشيء آخر, ثم تذكرت وصيتك لى بلأمس ,وكأنها تصفعني على وجهي لتفيقني من أحلامي, إنها المرة الأولى التي يكلفني فيها جلالتكم بشيء, ويضع فيّ ثقته, فهل يصح أن أخيب ظنك و ثقتك في !. وماذا ستقول عني ..ربما تقتلني..

ثم عدت لأتذكر القداس و البخور, والقربان المقدس ,والألحان.. كل ها الدسم و الأكل الشهي على المائدة الإلهيه ثم أدير ظهري؟!

لا لن يكون شيء من ذلك, ثم عادت صورتك الكريمة تغشي عقلي و فكريوصوتك الجهوري و غضبك, ولا أخفيك شيئاً يا مولاي, فقد تذكرت وقتها اوكتاف.. ذلك العبد الذي عصا أمرك, فطارت رأسه عوضاً, وتكرت الكسندر وكيف قطعت أنفه, وتراجعت .. نعم جرني الضعف البشري إلى خلف ووبخني!

وأنهكني التفكير, وصراعاً قوياً نشب في داخلي وراح ينهش, ونزاعاً بين قوى الخير و قوى الشر (إنساني العتيق و إنسان المسيح فيّ) ثم رأيت الإثنان أحدهما في مواجهة الآخر, المسيح بوجهه

المبتسم ودمه ينزف, ثم جلالتكم وسوطكم في يدكم وعرشكم يلمع ذهباً.

ثم زال خوفي منكم وإذا بي أهتف داخلي وكأني وصلت إلى المعادلة: من ينقذني من يد الآخر: الأمير أم إلهي؟.. وكانت الإجابة واضحة لا تحتاج إلى دراسة أو تفكير, فإن المسيح الذي مات لأجلي و الذي بين يديه حياتي, يقدر أن يخلصني و ينجيني إذا فكرت في إذائي, ولكنكم في ذات الوقت لا تقدرون أن تنقذوني من الدينونة متى مت خاطئاً.. قلت و كأني أنهي الصراع: المسيح سيحفظني ويباركني ويدبر أمري مع أميري المحبوب.

وهكذا استراح فكري, وتهلّل قلبي, وقفزت من مكاني وانطلقت نحو مصدر الصوت.. نحو الدير ..إلى القداس الإلهي وأنا مفعم بالسرور والراحة.

وهناك في الدير, تهت بين ألحان التسبحة.. وبخور باكر, وإنصهرت في الجو السمائي, سجدت سجدات كثيرة, وصليت كثيراً ووقفت مغمض العينين, لاهج القلب, مرنماً يفيض قلبي بالتعزية.. ولما كان والدي قد أوصياني ألا أترك الكنيسة قبل أن يسرّح الشعب, مكثت هناك حتى صرفنا الأب الكاهن..

وما أن أنتهى القداس, حتى مضيت قاصداً الموضع الذي كانت فيه النار فلم أجدها ولم أجد أحداً إلى جوارها.. بل رأيت رماداً, ومن ثم فكرت في أن آتي لأعتذر لجلالتكم فهلا قبلت عذري!

قال الأمير في سرعة: حدثني عن إلهك.

فصمت روفين قليلاً وأخذ نفساً عميقاً ثم قال:

– هل سمعت عن آدم .

– نعم في الأساطير .

– بل حقيقة .. أنه الجد الأول للبشرية جميعها .. لقد أخطأ هذا الجد ... و ....

و مات المسيح عنه .. أتدري كيف مات ؟ .. لقد مات مصلوبا عني و عنك و عن كل الناس .. لقد صلبوه .. طعنوه و جرى دمه ليغسلنا من خطايانا ..

و الأمير لا يمل حديث روفين , و روفين نفسه لا يكف , أنه فرح .. مجرد أن يحكي عن المسيح .. يكرز به و يشهد له ..

و العبيد الأربعة خرجوا من عند الأمير ليرووا للباقين ما حدث .. و قالوا فيما قالوا : أنهم أضرموا النار و جلسوا إلى جوارها , و ازداد وهج النار واشتدت حرارتها , و وقفوا يرقبون الطريق لعل ذلك الشقي الذي سيحرقونه يأتي .. و لكنه لم يأت .. و الساعة تجاوزت الرابعة , و هو الموعد المتفق عليه .. و قلق العبيد و مرت ساعة و ساعتين و النار في أوج شدتها تصهر من يقترب منها و انتظروا حتى الساعة السادسة و النصف صباحا و هم لا يكفون عن إمداد النار بالوقود , و بدأ الملل و اليأس يرقى إليهم , ثم صعد أحدهم على إحدى التلال القريبة يرقب الطريق , ما لبث أن زفر زفرة قوية و أشار إليهم يطمئنهم أن الفريسة في الطريق إليهم ..

كان موقفا تراجيديا .. فهم حزانى غير راضين عما سيعملوه بأحد إخوتهم , و لكنهم مضطرون و قد يكونوا هم البدائل إذا حدث و عصوا الأمر , و لاسبيل إلى الإعتذار أو التهرب أو العصيان , ثم أن هذه ليست المرة الأولى التي يكلفون فيها بمثل هذا العمل .. و لابد أنهم رثوا لذلك الشاب الذي سيعدمونه حرقا .

ثم ما هي إلا دقائق حتى لاح لهم عن قرب , ذلك المسكين , شاب طويل نحيف , يترنح و هو يمشي , كانوا متأكدون أنه يمشي إلى حتفه و اقترب أكثر حتى صار بينه و بينهم حوالي عشرة أمتار , حين انطلقوا كالأسود الجائعة , و فزع هو , و حاول أن يتكلم .. أن يصرخ .. أن يشير بيديه , و لكنهم لكموه في وجهه , حاول أن يقول أنه ليس هو بل شخص آخر , أنه فلافيان ليس روفين .. و لكن طول إنتظارهم جعلهم أكثر سرعة في إتمام واجبهم , و احتسبت الكلمات في فمه و ماتت على شفتيه , ففي سرعة البرق كانوا مددوه على بطنه و أوثقوا يديه و رجليه .. و حاول أن يتخلص من القيد و لكن أحدهم عالجة بضربة _ بآلة حديدية _ على إم رأسه , فراح في إغماءة و حملوه كالريشة ثم ألقوه في

الأتون .. وفي نصف ساعة كان قد انتهى كل شئ فأطفأوا النار و عادوا إلى أميرهم , يمنون أنفسهم بالهدايا .

و الذي حدث أن فلافيان تقابل _ عرضا _ مع روفين في الرابعة صباحا بينما روفين يستعد للخروج من القصر , و أخبره أنه ماض إلى خارج المملكة ليحضر للأمير شيئا من الجرن , و فهم فلافيان أن روفين إنما هو ماض إلى حتفه ..

و منى نفسه بأن يشبع نظره بحفل احتراق روفين , فاختار الساعة

السادسة بحيث يكون وقتها داخل الأتون ، ومشى نحو النار إلى هلاكه .

ومنذ ذلك اليوم والأمير يستدعى إليه روفين ليكمل له الحديث الذى بدأه ولن ينتهى ..

وبعد هذه الحادثة بحوالى العام يتم بناء الكنيسة الصغيرة – داخل المملكة – من الأخشاب وراهب يأتى من الدير كل أحد ليصلى القداس الإلهى ...

حب أعظم

هل سمعتم عن "إيهاب ب "؟

إذاً فأنتم كذلك لا تعرفون الراهب افلوجيوس .

لا بأس فى ذلك فقد عزمت على أن أروى لكم ما حدث مع إيهاب هذا . فبينما هو يخطط ويحاور و يناور ، كان الرب يعمل بصورة خفية ، من أجل تأمين مستقبله ، وتحقيق مشسئته فيه .

ايهاب طالب بطب قصر العينى .

"ويناس" فى نفس الكلية بل فى نفس ال round وتعلقت نفس إيهاب بها ، و أحبها من كل قلبه ، وكثيراً ما منى نفسه بأن تشاركه حياته مستقبلاً ، وفى ذلك البيت يستضيفا المسيح ويصنعا له عرشاً جميلاً فى قلبيهما قبل منزلهما ، ليبارك ذلك البيت ويصبح له فيه نصيب الأسد ، يملأ حياتهما ويقدس أفكارهما ، ويتقبل منهما أولادهما هدية مرضية ، ويصلا معاً عن طريق الجسد الواحد إلى الفكر الواحد والقلب الواحد لتحقيق الهدف الواحد ، ألا وهو محبتها للمسيح . وبات يحلم بذلك ويتعجل الوقت لتحقيق هذه الأمنية .

فى الوقت ذاته ، كانت (إيناس) تتردد على أحد أديرة الراهبات بمصر القديمة ، وتقضى بعض أجازاتها كخلوة روحية فيه ، تجلس مع الأمهات تحكى لهن عن العثرات فى الكلية ، وتشتكى من بعض الفتيات المستهترات ، وعن غياب المسيح من الأسرة الجامعية ، والعالم الشرير ومخافة الله التى قلّت فى القلوب .

وباتت تمنى نفسها بحياة تخلو مما لا تتمناه ، وكيف ستحبس ذاتها

فى القلاية الصغيرة والبسيطة ،وكيف ستكون تلك القلاية أجمل وأوسع من شقة فاخرة يغريها

بها شاب يتقدم للإرتباط بها ..

وسوف تسهر فى القلاية كل ليلة حتى موعد التسبحة ، وسوف يكون خروجها نادرا ... تقرأ وتصلى وتتأمل وتدرس، حيث ستكون الفرصة متاحة ، لاسيما وأن ظروف الدراسة وكذلك ظروف سكن العائلة لا يمكنها من الإختلاء كثيراً بنفسها مع الله.

وكانت تقول لنفسها بين الحين والحين: متى يأتى ذلك اليوم الذى تنتهى فيه (سنة الامتياز) لكى أنطلق إلى الدير أمكث فيه ولا أتركه وأنعم فيه بالدفء الروحى ،وأنهل من نبع الحكمة والفضيلة ،وأترك العالم لأولئك الذين يستطيعون العيش فيه.

ولم يستطيع إيهاب أن يفاتح إيناس فى رغبته ،قبل نتيجة البكالوريوس ،حتى إذا ظهرت ونجح كليهما ،تشجع وصار برغبته فى الارتباط بها... وظهرت فرحتها بذلك ولم يقدر خجلها على إخفائها، ولكنها قالت كمن أعدت الإجابة مسبقاً :(أرجو أن تناقش هذا الأمر مع أب إعترافى) ثم دلته عليه فى إحدى كنائس شبرا. وهناك صارحه أب اعترافها بانها تفكر منذ سنوات فى الرهبنة. وأنها تتردد على الدير منذ فترة بعيدة أيضاً ،وأنه يبارك هذا القرار لاسيما وأن الامهات هناك يشعرون بارتياح تجاه رغبتها هذة.

وصدم ، وعاد إلى بيته وأغلق على نفسه باب حجرته . وصلى باكياً إذا لك يكن يعرف ماذا يصنع ،لاسيما وانه قد علق أمان كثيرة على هذا الامر ،وهو أيضاً وغن كان يرغب بقوة فى الفوز بها ،إلا أنه فى ذات الوقت لا يريد الوقوف امام رغبتها المقدسة لئلا يلام ولئلا يدان كذلك.

وصلى كثيراً ..وتأثر .. واستراح إلى فكرة أخرى ،ألا وهى أن يذهب إلى والدها ليتكلم معه ويسمع رأيه فى هذا الأمر . وهناك وجده حزيناً . حائراً .. مكدود الفكر ،لكونه لم يستطع ان
ويسمع رأيه فى هذا الأمر . وهناك وجده حزيناً . حائراً .. مكدود الفكر ،لكونه لم يستطع ان
يثنى ابنته عن عزمها ، لقد حاول معها بشتى الطرق ، وبإغراءات كثيرة .

و عرف كذلك إن كثيرين قبله تقدموا لها ، ولكنها اعتذرت بحجة عدم تناسب الوقت. إلى ان صارحت أسرتها بعزمها على الالتحاق بالدير .

ومع ذلك فقد فرح والدها عندما أحس ان"إيهاب " يعرض مساعدته فى هذا الشان .

وأعاد الكرة وحاول معها ... ولكنها كانت مسببة بفكر الرهبنة الذى اختمر فى ذهنها ..

وكانت تتكلم عن الدير والحياة النسكية بطريقة (محمومة) اكثر ما لو كانت تتكلم عن شاب سوف تتزوجه .

ومرت شهور الامتياز شهر بعد آخر وقررت ان تولى ظهرها للعالم ميممة شطر الدير،

واختارت صباح احد الأيام لتجعله آخر يوم لها فى العالم ،وإنطلقت لتختفى عن صخب العالم وضجيجه فى الدير . وتأثر إيهاب جدا ، وبات يفكر فيما حدث كلما خلا إلى نفسه ، وحاول تعليل ذهابها إلى الدير (لتموت) هناك كما عبرت له إحدى الآمهات ذات مرة ، وعاد ليسأل نفسه : ولماذا تنسلخ من العالم وهى مازالت غضة ،كوردة منفتحة على العالم ،ولماذا تحرم ذاتها لذات كثيرة وخيرات متعددة ...

ترى ماذا فى الدير ، وفى الرهبنة أجمل من الزواج ومباهج العالم ، اما كان يمكنها الجمع بين الزواج والمسيح

وهدّه التفكير .. وانقطع أياماً عن الطعام والحديث مع الأخرين ..ثم هداه تفكيره إلى انه سيحاول مقابلتها فى الدير والتحدث معها ..

ليس ليثنيها عن عزمها ، وإنما ليستوضح الأمر منها.

وهناك لم يستطع مقابلتها ، بل نصحته الأم الرئيسية بعدم تكرار المحاولة ، كذلك تحدثت معه عن خلاص نفسه واهتمامه بمستقبله الأبدى ، وعدم التشويش على أفكار (إيناس) بل عليه ان يصلى لأجلها إن كان يحبها محبة حقيقية ويطلب لها من الرب ثباتها فى الرهبنة .

ولم يفكر فى الاقتران بسواها ... بل راح يسأل كل من يقابله من كهنة ورهبان عن رأيه فى هذا الأمر .. وتحدث مع الأباء هناك عن متاعبه وعثرته فيما حدث واستراح قليلاً ،ووضحت امامه بعض النقاط الغامضة ، وهنئ بالليلة التى باتها هناك ،وعاد مرة أخرى بعد شهرين إلى وادى النطرون .وجعل تردده يزداد ... فأصبح يرتاد الدير مرة كل أسبوع ، وشعر بمحبة الأباء

وحنوهم ،وأحبهم هو بدوره ، كذلك شغف ببستان الرهبان وسير الآباء .

وفى شهر مارس وخلال الصوم الكبير استطاع الحصول على أجازة مدتها ثمانية ايام ، قضاها بالدير وعدّها أجمل ثمانية أيام فى حياته ،

وأحس الأباء بأنه شاب مبارك ، وإناء مقدس للعمل النسكى ، كذلك أحس هو (بجنين رهبانى) يتحرك فى أحشائه ، ونما هذا الجنين ،وغذاه هو بالخلوات والقراءات ، وصلى كثيراً لاجله وأخذ مشورة آباء كثيرين مختبرين .

وكف عن متابعة أخبار (إيناس) ، بل لم يأبه كثيراً عند سماعه بخبر إرتحا ل أسرتها إلى مسكن آخر بأبى قرقاص ، وإنما صلى ذات مرة لأجلها ليحفظها الرب ويخلص نفسها ويعدها للملكوت .

وغشى فكر الرهبنة حياته ،وتحددت به كل آماله القريبة طقنطرة يعبر بها إلى الميناء الأبدى .

وزهد فى كل شىء..

وأخيراً أقرر مع القائمين على الدير ومع أب اعترافى ، الالتحاق بالدير ، وأقبل على حياته الجديدة بفرح وشهية دائمة ، وكان كلما تذكر قصته مع (إيناس) ضحك من نفسه وشكر الله الذى كان يقوده فى درب الخلاص والمجد ، بل وشكر ذهابها إلى الدير واعتبره احد أسباب رهبنته .. وأخيراً نسى امرها كلية .

وفى السنة الثانية لرهبنته ، وبينما كان أمام (الفرن) يصنع الخبز ، قيل له هوذا بعض أقاربك يسألون عنك ، فلما إنتهى من إتمام عمله مضى غلى دار الضيافة ليلمح عن بعد رجل وزوجته ومعهما طفلتهما الصغيرة ، اتدرى من كانوا أولئك الضيوف ؟

لقد فوجىء هناك ب إيناس وزوجها اللبنانى (غسان زاهد)

وطفلتهما مارجريتا البالغة من العمر ثلاث سنوات!!!

وروت له ماحدث معها في شجاعة وبساطة فقد تركت الدير في السنة الثانية لالتحاقها به إز اكتشفت مع الأمهات هناك ان الرهبنة ليست طريقها وانها لم تصارح اب اعترافها بكل شيء وانها كانت مسبيّة بفكر الرهبنة.

ورأت أنه من غير الحكمة ان تضيع وقتها في الدير من دون ثمار بل الأفضل لها ان تحيا حياة طبيعية في العالم وتثمر أكثر مما لو عاشت في الدير متغصبة وسافرت مع زوجها إلى لبنان...

ومرت سنة واحدة على هذه الزيارة.

وعندما عادة لتزوره مرة أخرى مع زوجها وابنتها عندما كانوا في زيارة للقاهرة اعتذر الاب افلوجيوس عن مقابلتهم لأن ذلك اليوم كان من الايام التي لا يخرج فيها من قلايته .

ورأت هي بالتالي أنه من اللائق ألا تزعجه بالزيارة فيما بعد واكتفت بأن تركت له بطاقة تحمل اسمها ومن الخلف كتبت له ترجوه ألا يكف عن الصلاة لأجلها ولأجل مشاكلها الأسرية... ولكي تحفظهم الرب ويقبل حياتهم ذبيحة حب مرضية أمامه.

وفي القلاية قرأ الأب افلوجيوس البطاقة ثم مزقها في هدوء وقام ليصلي عنهم وعن الآخرين.

<u>الطريق</u>

حين ارادت الأخت (ماجي) ان تخلع عنها ثوب العالم لتلبس ثوب العرس في دير الراهبات رفضت أمها وبكت وتشنجت واقسمت بكل صغير وكبير في حياتها ألا تسمح لها بشيء من ذلك مابقيت حية...

ولما كانت ماجي ووالدتها في زيارة للدير.. حاولت الأم اثناسيا(أثناسيا من الأسم: أثناسيوس بمعنى خالد) الرئيسة هناك ان تهدئ ثورة الأم وتمهد الطريق لابنتها للإلتحاق بالدير.

ولكن الأم قالت والدموع تمزق كلماتها لأن ادعها تذهب وليس من يرعاني غيرها بعد ان انتقل والدها ولا تطالبوني ان امضي وأعيش في بيت ابني فان أشد ما اكره هو ان أكون حماة .

ربتت الأم اثناسيا على ظهرها مطمئنة اياها أن الذي يرعاها هو الله ولكنها عادت تبكي .. ومعها بكت ماجي.

ولكن الله دبر من يحذر تلك الأم من الوقوف في طريق خلاص ابنتها وان عليها ان تخضع لمشيئة الله وقال لها أب اعترافها الذي كان في زيارتها ان الله لن يتركها بل هو في الواقع يرعاها هي وابنتها في آن واحد ...

ووافقت الم راضية

ولم تسع ماجي الفرحة.. ولم تسع الدنيا فرحتها فإنتقلت في نفس الاسبوع إلى الدير.

وانتقلت الأم بدورها إلى بيت ابنها تشترك معاهم في أعمال المنزل .

وترعى الطفلة (سنتان ونصف) والطفل الرضيع.. وذلك في غياب ابنها وزوجته في عملهما...

وحقيقة انها لم تكون مستريحة تماما وإنما اعتادت تلك الحياة بمرور الوقت ولكنها كانت تتذكر ابنتها بين الحين والحين فتبكي وتسلم ذاتها إلى الحزن والبكاء لساعات إلى ان يسكب الله العزاء في قلبها فتكف.

ولعل تفكيرها الدائب في ابنتها وكيف تركت العالم بكل مافيه من اجل خلاص نفسها جعلها هي الأخرى تفكر في خلاصها ومن ثم بدأت تصلي وتقرأ في الكتاب المقدس بل عرفت الطريق لخدمة فقراء الكنيسة.

أما ماجي فقد قبلوها بفرح في الدير وقصوا لها شعرها(الموت عن العالم) واعطوها اياه تحتفظ بيه في قلايتها كتذكرة لها بموت الجسد(ومعروف ان مجد المرأة هو شعرها ذلك الشيء الذي يحتل النصيب الكبير بين اهتماماتها)

وعاشت هناك بالمسكنة مطيعة محبة للسكون.. ومحبة لقلايتها لا يفتر فمها عن التسبيح والصلاة خلال ساعات عملها في(حلب البقر) عند شروق الشمس وعند مغيبها.

ولم تُر خارج القلاية إلا في وقت الخدمة الكنسية بالكنيسة ووقت العمل في مزرعة المواشي.

ويحكى عنها إنها لم تخرج مرة واحدة لمقابلة الضيوف

حتى أولئك ألائي جئن يسأل عنها عزفت في اتضاع عن مقابلتهن أيضًا سوى المرتين اللتين تأتي فيهما والدتها كل عام مع شقيقها وزوجته وطفليهما...

وفي القلاية دأبت على حفظ ونسخ اقوال بعض الآباء مثل القديس يوحنا كليماكوس ومارافرام السرياني .

وقد حسبت الراهبة اربسيما (ماجي) إنها أشد الراهبات في الدير هدوءاً ومسكنة ورغم ما عرف عنها من حذاقتها في الآداب النسكيه إلا أنها كانت تهرب من أي سؤال يأتيها من الأمهات ألائي يريدن الانتفاع بفضائلها.

ومضت سنوات.. والراهبة المباركة تمضي من مجد إلى مجد كلما اشتدت حرب عدو الخير ضراوة كلمة ازدادت ثباتا ورسوخا ملتجئة إلى الاسم الحلو الذي لربنا يسوع المسيح...

واحبت الأم الرئيسةان تحوطها بعناية خاصة كغرس جديد يحتاج إلى من يرعاه ويسهر عليه لكي تساعدها في نموها في الطريق مدفوعة في ذلك بمحبتها الشديدة لها ولكن اربسيما لم تدع الأم توليها هذا الاهتمام الخاص خوفا من تعثر بقيت الأمهات لاسيما الضعيفات منهن.

وقالت في نفسها هناك من يستحق اكثر مني.. وقالت الأم : يكفيني صلواتك من اجلي وأنا واثقة ان الرب سيرحمني بسببها.

ولكن حدث في السنة السادسة لرهبنتها مايعد زلزالا في حياته.ا

إذا طرق باب الدير طارق ذات مساء ليخبر الأم الرئيسة أن شقيق الأم أربسيما وزوجته قد انتقلا بالأمس إثر حادث مفجع على الطريق الزراعى .

كانت صدمة لأربسيما ، ما من شك فى ذلك وغلبتها طبيعتها البشرية فى تلك الليلة ، فبكت كما لم تبك من قبل ، والتفت الأمهات حولها يعزينها بكلمات انجليلة و أقوال آبائية حلوة ..وهدأت .. ولم تترك الدير بالطبع لتشترك فى مراسم الدفن أو لتقديم العزاء أو استقباله من المعزيين ، ولكنها فى الحقيقة كانت كسيرة القلب ، تفكر فى مصير شقيقها وزوجته ، وتارة تفكر فى طفليهما المسكينين ، وتارة أخرى فى أمها العجوز التى تجاوزت الستين من عمرها ..وطمأنت نفسها أن الله سوف يدبر أمرهم ، ولكنها لم تكن تعرف كيف سيدبر أمرهم !

ولم تنم تلك الليلة ، وصارت نهباً للأفكار طيلة أسبوع كامل .. وجاءتها الأم أثناسيا الرئيسة ومعها اثنتين من الراهبات يخففن عنها ويستأذننها فى المضى إلى منزلها بالمدينة لكى يقدمن العزاء لوالدتها ، عنها وعن بقية الأمهات ، وعندما عادت الأم الرئيسة ، ذهبت إلى قلاية أربسيما قائلة لها أن كل شىء على ما يرام ، سوى تلك المشكلة التى تفرض نفسها الآن ، وهى الطفلان (ثمانية أعوام وستة أعوام) ومن يرعاهما .. ولكن الله لن يتخلى عنهم جميعاً ، هكذا قالت لها الأم الحنون .

وبعد أيام قليلة وصلت والدة أربسيما ويصحبتها الطفلين ، و أسرعت أربسيما للقاءهم متماسكة متجلدة ، ولكنها صدمت عندما رأت أمها تجلس فوق كرسى متحرك ! حيث أصيبت بالشلل نتيجة ذلك الحادث المؤلم ، وتماسكت ثانية ، ورحبت بهم كثيراً ، و أمضت معهم النهار كله – على غير عادتها ، ولكن الأم فاجأت الكل بقولها ، بتحدّى وفى نبرة قاسية :"شىء من اثنين ..إما اترك الطفلين لكم هنا ، والله يدبر أمرى أنا وإما تأتى أربسيما معى ترعاهما حتى يكبرا.."!

وفوجىء الكل ..وسادت فترة صمت كانت الأم أثناءها تبكى ، ثم عادت الأمهات يعرضن البدائل

.فقالت الأم الرئيسة : هل من أقارب لكم ، يستطيعون إحتضانكم ؟ أجابت : الأقارب ليسوا من الدرجة الأولى ، و أنا لا اسمح أن اترك احفادى ورائحة ابنى بين الأغراب ..كما لا أحب أن أصير عبئاً على أحد ..

قالت راهبة : هل من مانع فى الحاقهما ببيت للأيتام ؟ وهنا صرخت الأم ..وضربت صدرها بقوة يدها قائلة : كيف اترك لحمى ودمى يعيش فى مثل تلك الأماكن ..يجوعوا فيها إلى الحنان ..ومن ذا الذى يهتم بهما أكثر مناً ؟

قالت راهبة ثالثة : ولكنك تعرفين يا أمى ، أن أربسيما قد صارت راهبة ، ولا يجوز لها أن تترك الدير مرة أخرى وترجع إلى العالم .

فلجأت إلى الانجيل قائلة : ولكن الكتاب يقول عن الله "إنى أريد رحمة لا ذبيحة ".

ثم لماذا تجبروننى على الكلام أكثر من ذلك ، من أين لى أن أنفق على نفسى وعليهما ، أما جاء دور (ماجى) لتهتم بنا مثلما اهتممنا بها قبلاً ..

وصاحت الأم الرئيسة : الأمر بسيط للغاية ، لك علينا أن يرسل لكم الدير ما يقوم بكل احتياجاتكم شهراً بشهر .

ولم تحتمل أربسيما أكثر من ذلك ، فإستأذنت فى الخروج ومضت إلى قلايتها ..وهناك وقعت على وجهها أمام صورة المسيح المصلوب وانفجرت باكية وصلت قائلة :

"إلهى الحنون ، ليس عندى ما أقوله لك الآن ، ولكنك تعرف شقاوتى وما أصابنى بسبب خطاياى ..إرشدنى لما يجب أن أفعله ، فأنا عبدتك وقد خرجت وجئت إلى هنا حباً لإسمك ، وطمعاً فى رحمتك ، و أنت تعرف أنه لا هدف لى سواك فإذا شئت أن أبقى هنا دبّر أمر والدتى ، و إذا لم تشأ فأنا أسيرة لك ..".

ثم قامت لوقتها ، وغسلت وجهها وجلست لتقرأ فى الكتاب المقدس .

أما والدتها فقد أقتنعتها الأمهات ان تعطيهن مهله ، ريثما يتفكرن فيما ينبغى أن يفعلن ، فتركتهن و إنصرفت مع الطفلين .

وكان للدير أسقف قديس فيه روح الله ، ومشهود له بالتقوى ، هذا جاء إلى الدير فى ذلك الأسبوع وفى غير موعده المعتاد . قال لهن : جئت اليوم مسوقاً من الله بخصوص الأخت أربسيما ، فإندهشن وسجدن له قائلات ، وهذا ما يقلقنا الآن ، وكنا فى احتياج إلى سماع صوت الله منك .

فنظر إليهن ثم قال :

أرى كمن رحمه الله ، أن الرهبنة ليست أسوراً وطقساً وحسب،وإنما هى حياة داخلية سريّة، وكما أن الراهبة تحتاج لأن يحتضن جهادها(دير)فإنها كذلك لا يكفيها مجرد وجودها فى الدير، وقد رأيت بنفسى ..وسمعتن أنتن كذلك ، عن نساء يعشن فى العالم عيشة الراهبات ، فى الوقت الذى فيه بعض الراهبات يعشن داخل الدير عيشة أهل العالم .

كذلك فقد تعلمنا جميعاً أن الطاعة و أسمى من النسك ، لأن النسك قد يولد المجد الباطل ، بينما تولد الطاعة الاتضاع ، ونعلم أن الاتضاع خلص كثيرين بلا تعب .

أظن أنكن قد فهمتن الآن ما أود أن أقول ، فإنى أرى أن تترك أربسيما الدير ، لترعى والدتها والطفلين ، وحينما يشاء الله وتنتهى مهمتها يمكنها المجىء مرة أخرى إلى الدير . وقام الأب الأسقف وصلى معهن ثم خرج ، وفى الطريق أخذ إليه الأم أربسيما التى كانت تبكى وعزاها بكلام كثير ، فما عادت تحزن بسبب هذا الأمر .

وعادت أربسيما إلى بيتها ، واستقبلتها أمها غير مصدقة ..كذلك تعلق فى رقبتها الطفلان ، وبدأت والدتها فى الاعتذار لها ، لكونها قد أحزنتها وجعلتها تترك الدير الذى تحبه .. وتترك الحياة التى اختارتها ، ولكن أربسيما اجابت بشجاعة وفرح بأنها غير أسفة على ذلك طالما هى مشيئة الله ، و أنها واثقة بأن الله سوف يباركها بسبب هذا العمل .

وبدأت فى الاهتمام بترتيب أثاث المنزل ونظافته ...واهتمت بالمطبخ وبحجرة الطفلين .

ففى الصباح كانت تستيقظ مبكرة ، تصلى صلاة نصف الليل ثم التسبحة ...وحينئذ يكون الطفلان قد استيقظا استعداداً للذهاب إلى المدرسة، فتغسل لهما وجهيهما وتمشط لهما شعرهما..

ثم تعد لهما الافطار، و بينما هما يتناولان إفطارهما تكون هي قد اعدت لهما حقيبتيهما فتخرج معهما تذهب بكل منهما إلى مدرسته، وفي طريق عودتها تشتري ما تحتاجه من طعام و شراب وأشياء أخرى.. و مرة أخرى في المنزل تعد طعام الافطار لوالدتها العجوز وتطعمها بيدها دون أن تأكل معها، وقد تركتها ولدتها وشأنها في هذا الأمر اى لم تعترض على صومها حتى الثالثة بعد الظهر.

وبعد ذلك تدخل إلى حجرتها وترتدي زي الراهبة.. ثم تقف لتصلي ثم تجلس لتقرأ في الكتاب المقدس وبعض سير الأباء، فإذا ما نالت متعتها في الصلاة والقراءة، خلعت عنها زي الرهبة وخرجت لتعد طعام الغداء.. وإن كان هناك ملابس تحتاج إلى غسيل غسلتها، فإذا ما عد الطفلان هيأت لهما الطعام .. وجلست معهما بعض الوقت تساعدهما في إستذكار دروسهما.

ويمضي الوقت .. و أربسيما تعتبر ما تقوم به من عمل هو مقابل عملها في الدير.. وكانت تتمم تدبيرها كاملا دونما أي نقصان.

ولم تشترك أربسيما في أي إحتفال عائلي .. أو أي مجاملة تقضي بها التقاليد.. بل كانت تحبس نفسها طيلة اليوم في منزلها، عدا صباح كل يوم حيث تقضي أمور البيت.. عدا المرات القليلة التي صحبت فيها والدتها إلى الطبيب أو إلى بعض الأماكن الاخرى. واعتادت الأم أن تعتذر لها.. و اعتادت أربسيما أيضا أن تستعفى، وفي منزلها اعتادت بعض صديقاتها القدامى زيارتها للسؤال عنها وتشجيعها ولكنها عودتهم على ألا تبقى معهم كثيرا خوفا على وقتها وهروب من الأحاديث غير النافعة.. ومن خطايا الادانة.

والحق يقال أنها تعرضت كثيرا لبعض المضايقات، ولكن الحب المتأجج في دخلها كعذراء عفيفة للمسيح، كان لها سندا ضد هجمات الشرير.

واعتادت الأم أثناسيا الرئيسة زيارتها من وقت لأخر، مع بعض الأمهات كلما كان لهن مهمة في المدينة، وكن يحملن لها من الدير بعض الفاكهة والكتب و الهدايا، فكانت فرحتها لا تقدر بتلك الزيارات وتلك الهدايا، وكانت الأم تطمئنها في كل مرة بأن الأمهات جميعا يطلبن لأجلها لكي يؤازرها المسيح بنعمته لتكمل عملها كما يليق.

وكبر الطفل والطفلة، وزادت احتياجاتهما.. وبالتالي زاد المجهود الذي تبذله أربسيما معهما..لا سيما تجاه ما يحملونه معهما لها من خبرات المدرسة والأصدقاء.. ولكنها بصبرها وقوة محبتها للمسيح.. استطاعت أن تربيهما تربية روحية، وظهر ذلك في كلماتهما وتصرفاتهماداخل المنزل وخارجه، بل كانت بين الحين والآخر تأخذهما ومعهما والدتها ليقضي يوما في الدي..(ونستطيع أن نتصور مقدار الفرح الذي يلحق بها وبأسرتها وبقية الأمهات من مثل تلك الزيارات).

وصار بيت أربسيما أشبه ما يكون بدير صغير، من فرط ما يقام فيه من تسابيح وصلوات، كما اعتاد الأب الأسقف أن يمر عليها في منزلها بين الحين و الآخر لكي يقبل اعترافها و يشجعها و يثبتها..

في تلك الأثناء، انتقلت والدتها.. ومن بعد انتقالها بعام واحد تقدم شاب نبيل ليتخذ الفتاة زوجة له، و فرحة أربسيما وساعدها الدير في أمر زواج الفتاة.. كذلك اسهمت في هذا الزواج بعض مدخرات كانت والدتها لا زالت تحتفظ بها إلى وقت نياحتها.

وبقى الطفل الآخر وقد أصبح شابا مع عمته الراهبة التقية، ولكنه هو الآخر إستطاع أن يجد عملا براتب مجز واستقرت حياته..

وهنا صار الطريق ممهدا أمامها للعودة إلى الدير.. فأتى الأب الأسقف ومعه الأم الرئيسة وبعض الراهبات، حيث أخذوها بكرامة إلى الدير، و هناك استقبلوها إستقبالا حافلا يليق بمجاهدة مباركة، أضاعت على الشيطان الفرصة و عادت منتصرة.

وكانت الفترة التي تركت خلالها الدير حوالي ١٥ عاما، وقد استطاعت منذ اليوم الأول أن تكمل حياتها بصورة طبيعية.. بل طلبت من الأم الرئيسة أن تعود إلى نفس عملها السابق في حلب البقر رغم أنها قاربت على السابعة و الثلاثين عاما.. وأمام توسلاتها وافقت الأم.

غير أن الأفكار كانت تقلقها من آن لآخر، ولكن الله لأجل أمانتها وصبرها كان يقويها و يعزي قلبها.

وعاشت الأم أربسيما حتى الثمانين من عمرها، مثالا في المسكنة و الغربة الحقيقية، حتى قيل عنها أنها الغرس الذي أعطى أكثر مما يجب.

وقد ردت بصورة قاطعة على أولئك الذين يدعون أن الرهبان لم يكونوا ليصلحوا إلا للحياة في الأديرة، و إنما جاءت رهبنتهم كضرورة لعجزهم عن أن يحيوا حياة طبيعية كبقية الناس وأنهم دون تحمل المسئولية.

ولكن الراهب انسان له القدرة على الحياة في أي مكان، ولكنه إستحسن الحياة الرهبانية لأسباب يطول شرحها لأولئك المرتبطين بحب العالم و كرامته.

أجراء وأبناء

راجى شاب فى الخامسة والعشرين من عمره ، حاصل على ليسانس فى الحقوق وماجستيتير فى أثر البيئة على نوع الجريمة ، أبواه مازالا على قيد الحياة ...وله أخت تدرس بالجامعة ...و أخ فى المرحلة الثانوية ...

راجى يحب الرهبنة والرهبان والحياة النسكية .. ولكنه فى الوقت ذاته يكره أن يكون راهباً ! أى أنه لا يريد أن يكون له شكل الراهب..فيضمّه مجمع رهبانى .. وإنما يودّ أن يحيا حياة رهبانية ..دون أن يحسب مع الرهبان كواحد منهم .

فى المنزل كانت هناك مقدمات من جانبه..وتلميحات،أظن أنهم فهموا منها ما يرمى إليه راجى،ولكنهم كانوا يقابلون أحاديثه التلميحية بالصمت ثم الإنتقال إلى موضوعات أخرى بعيدة..

ولكنه فعلها ! إذا ترك المنزل ومضى إلى أحد الأديرة وهناك تقابل مع رئيس الدير و أفصح له عن رغبته فى أن يحيا بالدير وحسب ، ورجاه أن يلحقه بأى عمل كباقى العاملين بالدير ، كذلك إن أمكن فليدبر له مكاناً بعيداً عن الضوضاء ...

وبدا الطلب غريباً عجيباً فى بادىء الأمر بالنسبة لرئيس الدير ، ولكنه جعل يفكر طويلاً قبل أن أجابه بالموافقة ، ولكنه أيضاً حذره من بعض الأمور ...(الملل..التعب...الإهانة) ولكن راجى شاب عاقل ، قال "إذا لم أحتمل فسوف أترك الدير " ..وأعود إلى بيتى و أتخذ عملاً و أكمل حياتى فى العالم.

ومن هناك أرسل إلى أسرته يعلمهم أنه فى أحد الأديرة ليطمئنهم .

فى اليوم التالى ، استدعاه رئيس الدير واسند إليه مهمة تقديم الطعام والشراب فى مبنى الضيوف الضخم ، وما يتبع ذلك من أعمال نظافة فى المطبخ والمبنى ...

كذلك فقد أعطاه مكاناً للسكنى ، حجرة صغيرة وكرسى ولها طاقة فى الحائط .

وارتدى الجلباب (البنىّ) الذى أحضره معه ، مع الانجيل والأبصلمودية والأجبية ..

وفى الصباح باكراً ، دقّ ناقوص تسبحة نصف الليل ، فقام بنشاط ، ومضى إلى الحمام فى آخر الطرقة حيث غسل وجهه وعد إلى قلايته بحيوية واضحة آخذاً كتاب الابصلمودية متجهاً إلى الكنيسة .

سبّح معهم فى الأجزاء التى يحفظها ...وباقى الوقت اكتفى بالسماع محاولا أن يحفظ شيئا جديدا ، ولكن ذلك لم يكن بالأمر اليسير ، وواصل حتى انتهى القداس الإلهى فتقدم للتناول ..ثم خرج مسرعاً إلى القلاية حيث استراح قليلاً ، ومن ثم اتجه إلى مكان عمله .

كانت الساعة قد قاربت التاسعة ، حين وصلت إلى المبنى أول مجموعة من الضيوف فى صحبة أحد الآباء ، فجرى نحوه وتبارك منه ثم انحنى أمام الزائرين فى أدب شديد ، ومضى ليعد المائدة . كان كل شىء مرتباً ونظيفاً . وتواتر الضيوف على المكان ، ولكنه استطاع بنعمة المسيح ، وتجلده وصبره أن يلاحق طلباتهم ويسدد احتياجاتهم جميعاً ..

وبين الحين والآخر كان يختطف بعض الوقت ، يسرع فيه إلى قلايته يقرأ ويصلى ، ثم يعود مسرعاً قبلما يزدحم المكان مرة أخرى.

فإذا ما انقطع سيل الضيوف من المكان عند حوالى الرابعة،اعاد ترتيب كل شىء فى موضعه ..و اطمأن إلى نظافة المكان وترتيب كل ما فيه استعداداً ليوم جديد،ثم ينطلق من ثم إلى قلايته يغسل وجهه ويغير جلبابه لكى يمضى إلى الكنيسة لحضور تسبحة ورفع بخور عشية .. ثم إلى الحجرة مرة أخرى لكى يستريح قليلاً من الجهد الشاق الذى يبذله خلال اليوم ، حتى يتسنى له أن يسهر قليلاً قبل أن ينام مرة أخرى استعداداً ليوم جديد .

وصار منظره مألوفاً عند الآباء فى الدير ، و إن كان أحداً لا يعرف قصته وهو كذلك لم يحاول التقرب إلى أى شخص فى الدير سواء أكان راهباً أو عاملاً و إنما أحب أن يهتم بخلاص نفسه و أن يكون أمينا إلى أبعد حد ...

ولكن بعض الآباء دفعتهم الشفقة،إلى محاولة العطف عليه ببعض المأكولات أو الملبوسات.. ولكنه كان يعتذر فى كل مرة بأدب شديد عن قبول أى شىء ، إلا فى بعض مرات قبل ما قدّمه له البعض ، بعد ضغط شديد ، ولكنه اعطاه بدوره إلى بعض العمال فى الدير . كذلك تعرّض لبعض المواقف المحرجة من جانب الضيوف ، فقد حدث ذات مرة بينما كانت إحدى الأسر تغادر المكان ، مرّ الإبن الأصغر (15سنة) عليه فى المطبخ حيث مال قليلاً عليه ثم دسّ فى يده بشىء فى جيبه ، فأسرع راجى ليخرج مادسّه الفتى فإذا به جنيهان !

فوجىء ...وتمنّع فى حياء شديد ...ولكن الفتى أصّر وهو يربت فى حنان على ظهر راجى ..وصمت راجى ، ولكن بعض قطرات من دموعه فرّت من عينيه ..وشكر الشاب النبيل على كرمه ولطفه ..ثم وضعهما فى صندوق العطايا بالكنيسة فى صباح اليوم التالى ..

كذلك أعطته إحدى الفتيات كيساً به ساندويتشاً وتفاحة وعلبة عصير – فأخذها فى صمت ..حيث اعطاها بدوره لواحد من العمال ..

ولم ينج كذلك من الأسئلة التى كانت توجهها له بعض الأسر عن اسمه وعن أسرته ..زوهل تعلم أم لم يستطع أن يدخل المدارس !

بل عرض عليه أحدهم ذات يوم لآن يأخذه للعمل معه فى مزرعته بطريق القاهرة / الاسكندرية الصحراوى ، و أغراه بمبلغ شهرى كبير يصل إلى مائتى جنيها فى الشهر ، ولكنه اعتذر بأنه سعيد فى هذا العمل و أن الأجر الذى يتقاضاه هنا يكفيه ويزيد .

والحقيقة أنه كان يتقاضى أجراً قيمته جنيها ونصف فى اليوم ولكنه تعرض لأفكار كثيرة فى مساء ذلك اليوم فقد تذكر درجته العلمية ...ومستوى أسرته الاجتماعى ..والمستقبل الباهر الذى كان ينتظره فى العالم ...وكيف أنه كان من الممكن له أن يعمل بالنيابة وتحت أمرته العديد من العاملين . عوض التعب الذى يتكبده هنا وكونه محسوباً كأحد العمال ...وكيف أن بعض العمال ضايقوه أكثر من مرة ..

ولكنه انتبه ! و أسرع ليقرع صدره مراراً ويبكّت ذاته على هذا الجهل ..وتذكر قول أحد الآباء "هوذا الناس يموون وتموت كراماتهم

معهم ثم قال : و هل لي أن أشتهي شيئا بعد أن وهبني المسيح ذاته .. أنني أغنى من الكل و أوفر كرامة من كثيرين . وبكى من شدة التعزية .. و تمنى أن يكمل حياته بلا كرامة غريبا صغيرا .. و لا ينكر أنه تعلم من العمل و من العمال , تعلم الصبر و البذل .. تعلم المحبة الأخوية .. تعلم الهدوء و الإحتمال .. و الإتضاع بالطاعة .

و عاد عدو الخير ليلقي بسهم آخر , فذكره بذلك الأب الذي وبخه منذ أسبوعين على أمر لا ذنب له فيه .. ولكن راجي رشم ذاته بعلامة الصليب و طرد تلك الأفكار قائلا لقد قيل عن سيدي أنه ظلم أما هو فتذلل و لم يفتح فاه .. و قد كان -له المجد- و هو السيد و مع ذلك كان يخدم و يغسل الأرجل و يتعب لأجل خلاص الآخرين .

وإزاء هذه الأفكار تمنى من قلبه أن يتسنى له حضور تلك الإجتماعات التي تقام للآباء في الدير .. و انتهز أول فرصة للإجتماع من هذا النوع .. فأسرع يسأل رئيس الدير إن كان يمكنه الحضور..و لكن الأب اعتذر له عن عدم إمكانية حضور (العلمانيين)اجتماعات الآباء..فاعتذر و صمت .

وفي الطريق إلى قلايته , بكت نفسه قائلا كيف تحسب ذاتك مستحقا لذلك .. و في القلاية أسرع إلى الإنجيل يقرأ بنهم و يضع خطوطا تحت بعض الآيات .. ثم عاد ليفكر أنه محتاج لتعلم الأدب الرهباني , و كيفية التعامل مع الأفكار و خطر له خاطر فذهب إلى مكتبة الدير في الصباح واشترى من المال القليل الذي معه كتاب بستان الرهبان .. واشترى كذلك كتاب خدمة الشماس .. و أما باقي المال فتصدق به على أحد العمال , عرفه بطريق الصدفة أنه يعول أسرته بعد و فاة أبيه .

و حاول راجي خلال السنوات الثلاث الأولى أن يحفظ بقية تسبحة نصف الليل , و أعطاه الله فهما و و عيا و استطاع أن يقارب الإنتهاء من حفظها و قد ساعده في ذلك , جهاز الكاسيت الذي اشتراه بأجر شهرين مع بعض الأشرطة المسجل عليها التسبحة بألحانها .. و بنفس الأسلوب استطاع أن يحفظ بقية المردات و الألحان .

وانتظمت حياة (راجي) فهو يعمل و يصلي و يسبح و يقرأ في البستان و الإنجيل .. و ما بين يوم و آخر تعود على الخروج إلى البرية للصلاة و التأمل .

ويقول (راجي) أنه تعرض لترك الدير ذات مرة بينما كان الدير يخلي من فيه من عمال بمناسبة أحد الأصوام التي يحبذ فيها الآباء الهدوء التام و خلو الدير من كل زائر ومن كل عامل .. و لكن الله دبر له من يشفع فيه لدى رئيس الدير في أن يبقى لكي يهتم بالسرج التي تضاء ليلا في كل مرافق الدير .

وقد سألته إن كان قد طرد بالفعل من الدير ماذا كان سيصنع .. قال في هدوء : (أبدا كنت سأمضي إلى مكان آخر ريثما يعود الدير إلى عادته بعد انقضاء فترة الصوم)

وحدث أن تكلم بعض الآباء مع الأب الرئيس بخصوصه , لكي يضمه إلى مجمع الدير و يلبسه الزي الرهباني .. متعللين بأنه شخص بارك .. و اقترحوا عليه أن يقوم الدير بإعالة أسرة راجي إن كان يعمل هو لإعالتها .. إذ أنه من الخسارة أن يعيش شاب كهذا في العالم , أو بهذه الطريقة , و على الرغم من معرفة رئيس الدير مسبقا بأن (راجي) لن يوافق إلا أنه وعدهم بعرض هذا الإقتراح عليه , و اعتذر (راجي) بالطبع و شكر للكل محبتهم إذ هو سعيد على تلك الحال و لا يود لها بديلا .

وقد تعرض لحروب كثيرة في صلواته ..و في بقائه بالدير .. و أفكار كثيرة حاربته بخصوص مستقبله و بخصوص أسرته .. و لكنه جاهد .. و تعب و صبر .. فأعطاه الله من نعمه .. و فرحه بثمر تعبه و عزى قلبه و أعطاه قدرة فائقة على احتمال الحروب و على محبة الطريق ..

وسألنا الأب أكسيوس عن السبب الذي حدا (براجي) ليسلك ذلك السبيل و لم يدخل فيما نسميه بالقناة الشرعية للرهبنة .. قال :

راجي شخص يندر وجود مثله .. فهو هادئ .. له محبة في قلبه للمسيح .. و للناس .. و لكل شئ .. و الذي ساعده في الطريق أنه معتدل و غير متشنج .. ليست له أية آمال سوى أنه ينتظر الملكوت في صبر ورجاء ثابت .. و قد عرف أن للرهبنة كرامة عند أهل العالم .. و الراهب موضع تكريم منهم فآثر ألا يكون له وضع يجلب له المديح .

فقلنا للأب أكسيوس اما كان يمنكنه ان يصير راهباً ويبتعد عن الناس وكراماتهم ومديحهم.

قال: كانذلكممكناً،ولكنه خشى ان يكتفى بكونه راهباً ويتكاسل قليلاً فى الجهاد.. هذا وقد قال لنفسه انه لا يستحق أيضاً هذا الزى المقدس.ولا يريدأن يعرفه أحد.

قلنا : هذا حق فإنه ليس له شكل الراهب , في حين أن له صفات الراهب القديس،كما أن المكان لا يقدس أحدا بينما الإنسان هو الذي يقدس المكان و هكذا يمكن لشخص مبارك مثل (راجي) أن يكون أكثر تأثيرا من عشرة أماكن مقدسة

والحق يقال أن قلاية (راجي) (و أسميها قلاية) قد أصبحت من أقدس الأماكن في الدير , كما صارت حياته و سلوكه مثار تبكيت لكثير من رهبان الدير الذين تواتروا عليه يفرحون لمجرد رؤياه أو الحديث معه .. و لكنه مع ذلك , إعتاد من جانبه أن يتهرب و يختفي في إتضاع ..

كذلك لم يفكر في زيارة أحد من الرهبان أو يتحدث إلى أحدهم

ليس ذلك فحسب و إنما لم يكن يعرف قلاية أي أحد منهم بل كان يجهل أسماء معظمهم .

ولكن مقابل هذا أغناه الله بنعمته و سربله بمجده , إذ قيل : " إن التعزيات البشرية تمنع التعزيات السمائية" .

و أحب راجي قول للقديس نيلوس و كتبه على لوحة و علقها في قلايته يقول:" إذ لم يقل المرء أنه لا يوجد في هذا الكون غيري أنا و الله فلن يصادف نياحا "

ومرت عليه تسعة أعوام و هو على هذه الحال .. عرف خلالها الطريق إلى ميامر مار اسحق .. والقديس يعقوب السروجي .. و حفظ أغلب أقوال الفيلوكاليا (باللغة الإنجليزية) .

وخلال هذه الفترة كان يستأذن الأب المسئول عنه في العمل في اجازة لمدة يومين أو ثلاثة –شهريا– يقضيها في عزلة تامة في حجرته مع بعض الخبزات و حبات الزيتون..و بعض الماء .

واختفى من الدير فجأة ! إذ لم يجدوه بعد إحدى خلواته هذه , فبحثوا عنه،وانتظروا عدة أيام،فبلما أتى ذات مساء إلى الدير يعتذر عن تأخره،ولكنهم عوضا عن أن يعاتبوه انتشر الخبر في , الدير , و التفت حوله الآباء يقبلونه و يسألونه أين كان..ولما لم يجد ما يجيب به .. كفوا عن السؤال.

وأسرع "راجي" فحلق ذقنه بعد أن طالت خلال هذه الفترة و عاد إلى حجرته ثم إلى عمله في الصباح , بشوشا لطيفا يشرق وجهه ببهاء عجيب و ملائكية،و قد عرف الأب أكسيوس أين كان راجي كل هذه الثمانية أيام و لكنه لم يقل لنا شئ وقتها .

ومرت سنوات و سنوات , و قارب عمره على الثانية و الأربعين عاما و كان يقلق أحيانا عندما يفكر في المكان الذي سوف يدفن فيه عند نياحته , غير أنه انتهر نفسه بأن الجسد سوف يعود للتراب أينما دفن و أن ما ينبغي أن يشغل باله هو : أين تذهب روحه ... و كان ذلك الفكر يأتيه كلما دق ناقوس الدير يعلن نياحة أحد الآباء , فكان يطوبه و يتمنى لو كان مكانه ...

وحدث ذات يوم إن مر " راجي" على قلاية الأب أكسيوس , و من خارج الباب همس في أذنه بشئ عاد أدراجه بعدها إلى حجرته .. فخرج خلفه الأب و طلب إلى الأب المسئول عن العمال أن يرسل آخر إلى مكان " راجي " اليوم .

وعند الساعة الثانية بعد الظهر مضى الأب أكسيوس إلى حجرة راجي و فتحها بهدوء فوجده قد تنيح و بجانبه رسالة كتبها قبل نياحته قال فيها :

" شكرا لله على كل عطاياه التي لا يعبر عنها .. و شكرا لكل آبائي الذين احتملوني و آزروني بصلواتهم و تشجيعهم .. شكرا لإخوتي " العمال " الذين تعلمت منهم أكثر ما تعلمت .. شكرا لكل من سيضيع بعضا من وقته الثمين في تكفين هذا الجسد الذي صنع شرورا كثيرة .. صلوا لأجلي لكيما أجد رحمة عند الله عند خروج روحي .."

و خرج الأب أكسيوس و أخبر رئيس الدير و الآباء .. و السؤال الذي فرض نفسه على الكل أين سيدفن راجي .. و قد فاجأنا رئيس الدير بأنه سيدفن تحت مذبح الكنيسة الصغيرة لكي يكون بركة لكل المكان ...

وناح عليه الآباء أكثر مما ناحوا على بعض من إخوتهم الذين تنيحوا قبله .. استطاعوا أن يحصلوا على صورة فوتوغرافية له و أعدوا منها نسخا لهم و ضعوها في قلاليهم , كما تسابقوا في الحصول على أي شئ من حجرته كبركة و لم يجدوا فيها سوى جلبابا آخر و قطعتين من الملابس الداخلية , و وجدوا

في الطاقة ثمانية كتب ما بين كنسية و نسكية و فوق المكتب الخشبي البسيط وجدوا ستة جنيهات و نصف , ثم كوب ما فارغ و صليب يد خشبي متآكل .

هوان ومجد

"حدث ذلك في القرن الخامس ببرية سيناء"

.. فلما ازدحم الدير براغبي الموت عن العالم .. و محبي الفقر الإختياري اشتاق بعضهم إلى الإنفراد في بعض المغارات .. و من ثم بدأوا في أن يتخذ كل منهم لنفسه مغارة تبعد عن الدير حوال ميل واحد من جهات مختلفة ..

وكان الراهب الشاب زكريا ينظر إلى أولئك الذين بدأوا في الحياة في الوحدة و كله شوق إلى أن يحذو حذوهم .. و كان بذلك الدير الكائن في برية سيناء تسعة عشر شيخا مملوءين بهاءا و لهم وجوه الملائكة , فكان زكريا يتعلم منهم و يسألهم في أفكاره و كان يجد فرحا و راحة بالحديث معهم , و هم بدورهم لم يمتنعوا عن إجابته إلى أسئلته و استفساراته .

فلما سألهم ذات يوم أن يباركوه ليتخذ له مغارة في بطن الجبل كسائر الذين سبقوه .. باركوه قائلين:الذي عال أبينا يعقوب و حفظه في غربته , هو يمسك بيدك و يرافقك في كل أيام حياتك .

ونهضوا بنفس واحدة يشتركون معه في إعداد المغارة , و لهم في ذلك خبرات كثيرة لكونهم قد بنوا ذلك الدير منذ سبعة و عشرون عاما و تكبدوا في ذلك أتعابا لا تقدر من أجل عظم محبتهم في المسيح , و محبتهم لأولئك الذين سيأتون و يعيشون معهم في ذلك الدير .

واختاروا معه صخرة تبعد عن الدير مسافة سبعة أميال , أي حوالي إثنى عشر كيلو مترا , واشترك بعضهم في عملية الحفر و البعض الآخر حمل الماء اللازم من الدير .. و البعض يتفقد العمال ,

بالطعام , ثم الشيخ العجوز " بترا " الذي تجاوز السبعين عاما من عمره , إذ أخذ على عاتقه أن يقطع بنفسه الخوص اللازم لإتمام هذا العمل .

فإذا ما كمل إعدادها , إجتمعوا معه و صلوا و باركوا الموضع قائلين : " أثمر و اكثر و ليكن أعداؤك كالحصى الذي تطأه , و ليكن الرب هو طعامك و شرابك و مشتهى نفسك , ثم ودعوه و عادوا إلى الدير مبتهجين بعد أن أوصوه أن يداوم الصلاة و الطلبة عنهم .

فأقام في تلك المغارة فرحا , و كان يذب إلى الدير مرة كل أسبوع ليتزود بالخبز و بعض البقول و الماء , و كان الآباء يرسلون معه راهبا شابا ومعه حمار يحمل مؤونته إلى المغارة .

وحدث أنه تعلم صنع (الطواقي) و رأى أنه من الممكن أن يسلمها لأحد الخفراء الذين يمرون بمغارته كل بضعة أيام , لكي يبيعها له ثم يشتري من ثمنها بعض ما يحتاج إليه الأب زكريا من خبز و بقول و غيرها .. و قد خصص باقي الثمن للفقراء ..

وعرف الأعراب القريبين من هناك الطريق إلى المغارة , و اعتاد كثيرون منهم المرور به للصلاة .. أو للتصدق .. و أحبوه .. و هو بدوره ازداد شفقة بهم فتشجع بعضهم و ضرب خيامه على بعد ميل واحد منه , بل أنه مع مرور الوقت ازدادت عدد خيام الأعراب بالقرب من المغارة .. و حسبه أكثرهم أنه أبيهم !

واقتصر ذهابه إلى الدير على مرة واحدة كل أربعين يوما , يشترك فى القداس الالهى ويتقرب من الاسرار المقدسة ،ثم يتزود ببركة الآباء فى الدير ثم يعود أدراجة فى صباح اليوم التالى الى مغارتة

وتردد اسمة على كل لسان فى ذلك المكان ..وقصدة كثيرون للبركة والانتفاع بة ..بل يذكر أحدهم الأعجوبة التى حدثت معة ، فقد تعرض لتجربة قاسية فمضى من فورة الى مغارة الأب زكريا يبث عندة شكواة فإذا بة يفاجئة بقولة "كيف تترك الأتن تذهب وحدها إلى شاطىء البحر! ودهش الاعرابى ...ولكن الأب عاجلة قائلا إذهب حالا وستجدها فى المكان الذى سأصفة لك، وانطلق الرجل بصحبة بعض الرجال إلى المكان الذى أخبرهم عنة فوجدها هناك ،وكانت المسافة التى قطعوها تقدر بثلاثين كيلو متراً .

وشهدوا لة بالفضل وروح الوداعة الساكن فية وحكى أحدهم عن أنة مضى ذات يوم إلى الأب زكريا أحد البدو الساكنين على مسافة بعيدة منة بصحبة ابنتة طالباً الصلاة الاجلها ..فلما صلى عليها ،عاد اليها نطقها الذى فقدتة منذ عام ونصف .

ولكنه مع ذلك كان يأبى أن يأخذ منهم هداياهم ،أو يقبل مديحهم ،بل وكان يقول لهم : مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا وكان يقصد بذلك أن الموهبة الت تأخذ مجاناً من اللة تعطى بدورها مجاناً للمحتاج ..

وحدث بينما كان يصلى ذات ليلة ،وكان الليل قد تجاوز متصفة بقليل ، أن استرعى انتباهة منظراً غريبا ناحية الشباك الصغير – على شمالة –ءاذا رأى من الخارج انسان لة رأس حيوان قد برز منها قرنين قويين وعينين تقتدحان شرراً ،كما كان كلة مكسو بشعر أبيض :وكان يلطم وجهة بيدية ، ثم مالبث أن صار يصرخ بطريقة هستيرية ويضرب بأقدم من حديد فى الأرض .فرشم المجاهد ذاتة بعلامة الصليب وهنا صّر الشيطان على أسنانة ثم تلاشى مثلما يتبدد الدخان.

وخاف القديس قليلاً..ولكنة ما لبث أن عاد وتشجع ءذا راح يردد الاسم الحلو لربنا يسوع المسيح بلذة، وبذلك استمد قوة ءالهية ،وأكمل صلاتة بفرح ،ولكن تولد لدية ءاحساس قوى بأنة لابد فى الطريق ءالية أن تجربة قاسية يجرها علية عدو الخير .

وقد كان ..

ءاذحدث من بعد خمسة أيام ،أن كان أحد الأعراب الشبان يسير ءالى بعض شئونة ،فوجد فى الطريق خيمة ومال عليها ليروى ظمأة وهناك وجد فى الخيمة فتاة بمفردها ،وتحركت الشهوة فى داخلة ولم يقدر على ان يضبط نفسة ، فأذلها وسقط معها فى الدنس .ثم عند ءانصرافة توعدها بالقتل ،ءان هى قالت أنة هو الذى أفسد عفتها،وءانما عليها أن تقول أن زكريا المتوحد هو الذى غرر بها .

وجاء ذووها ورأوها تبكى فلما سألوها عن سبب بكاؤها فقالت ءان زكريا قد مر بخيمتها وءاحتال عليها وأخطأ معها.

وغلى الدم فى عروق والدها ،واجتمعت كل ميولة الرديئة فى آن ،وتمثلت فى مخيلتة صوراً كثيرة أهاجتة،وتخيل ما قد حدث، وما يمكن أن يترتب علية، وما يجرة

من عار،فأقسم بكل كبير وصغير أن ينتقمنّ لشرفة .

وأرسل فاستدعى رجال عائلتة الأشداء،واستطاع أن يلهب قلوبهم بالغيرة الكاذبة وظل يثبت فى ضمائرهم سموم الانتقام ،حتى صاروا كلهم مستعدين لقتلة.

فى الطريق حيث كان يحمل الرجل سيفة وبصحبتة الستة رجال الآخرين أعدوا الخطة ..فلما وصلوا إلى مغارة القديس طرقوا بابة فى عنف.

خرج الأبؤ فى هدوء ليستجلى الأمر ،ففوجىء بشرذمة من الرجال ، ألهب الغضب وجوهم بنيرانة وقبل أن يرحب بهم أسرع الرجل ورفع يدة بالسيف ليضربة بة فإذا بيدة تيبس (تشل)ويسقط السيف!

وارتعد الرجال..ولم يفهم زكريا البار شيىء مما يحدث، ولما حاول الاستفهام منهم كانوا قد حملوا الرجل على جمل كان معهم وانطلقوا مسرعين.وفى الطريق عادت يد الرجل إلى طبيعتها ولم يرجعوا إلى خيمتهم وإنما اتجهوا صوب الدير وهناك تقابلوا مع الأب رئيس الدير ،وبثوا لدية شكوتهم المرة من سلوك المتوحد وهم الذين اعتادوا خدمتة وبيع عمل يدية واحضار ما يحتاجة ،وكيف أنة أعثرهم فى الكنيسة وفى الآباء–ثم قالوا لة أنهم سيتركون الأمر بين يدية ليعمل ما يراة مناسباً.

وعزاهم الأب بكلام كثير،وأحسن إضافتهم ثم صرفوا هادئين.

ولكنة أرسل فاستدعى الأب زكريا إلى الدير ،فلما جاء اجتمع بعض الآباء بة وخجلوا فى البداية من سؤالة عما حدث ...ولكن الأب الرئيس تشجع واستفسر منة عما سمع من الأعراب ،فلم ينكر بل صمت ،كعادة الآباء الذين يحتملون الهوان فى شكر بينما يهربون من الكرامة .وألحوا علية فى السؤال وازداد هو إصراراً على الاعتذار... وطلب الصفح ..واعطاءة فرصة للتوبة .

وجلس الآباء يتشاورون فيما بينهم ،بينما جلس هو مطرقاً إلى أسفل يبكى ،ثم قطع بكاءة قائلاً : افعلوا بى ما تريدون ...ولكن فقط لا تطردونى من هذا الموضع لأن فية توبتى .

واستقر رأى أكثرهم فى النهاية على الاكتفاء .بإعفائة من ممارسة الكهنوت لمدة ثلاث سنوات .وقبل هو الحكم شاكراً راضياً وأردفوا قائلين لة :من الآن أيضا يليق بك ألا تستقبل أحداً فى مغارتك

أوتخرج للقاء أحد ..ونحن بدورنا سوف نرسل لك من الآباء من يتولى تسلم عمل يدك وامدادك بما تحتاج إلية .

ومن ثم رجع إلى مغارتة معزياً..يصلى ويسبح ويشكر اللة الذى أعطاة أن يشترك معة فى الآمة ،وفتح لة ينبوع تعزية جديد،ويدخل فى زمرة المستحقين لتحنن اللة وكثرة رأفاتة .

فى الأيام التى تلت تلك الأحداث كان المار بمغارتة يمكنة أن يسمعة يصلى قائلاً: "يا إلهى الحنون ..لقد أصابنى هذا كلة بسبب كبريائى وسابق خطاياى ونجاساتى، فكيف احتملت أنت الذل والهوان من أجلى أنا الخاطىء ،رغم أنك بلا خطية لم يكن هناك من يقف معك فى شدتك ،مع أنها كانت لإذابة شدتنا ،أما أنا فإنى خاطىء وقد غمرتنى باهتمامك وعظم خيراتك ،ليتنى أفضح وأهان هنا ،على أن تضمنى إلى حضنك هناك فى بيتك الأبدى ،ليقال عنى ما يقال ،فلست أجعل سلامى فى أفواة الناس ولن أضع قلبى على كل الكلام ...بارك عملى وقدس فكرى وأجعل شخصك أكلى وشربى وحياتى . وأقبل طلبتى لأجل أولئك الذين جلبوا على رحمتك ..بسبب افتراءاتهم على عبدك ،باركهم وانهض قلوبهم بالتوبة ليكونا لك ".

وكان يحضر إلى الدير مرة كل أسبوعين ،يتبارك من الآباء ويصنع ميطانية لكل واحد طالباً الحل والصلاة عنة ،ثم يقف فى أخر الصف كأصغر الموجودين ،ثم بعد ذلك يترك عمل يدية الذى كلفة الدير ببيعها لة ،ويأخذ ما يكفية من الطعام والماء وينطلق إلى مغارتة وحيداً رافضاً أن يصحبة آخر.

وخلال السنة التى تلت هذة الأحداث ،كان إذا رآة ذلك الأعرابى عن بعد أنة يطلق علية كلابة لتؤذية ..ثم يشتمة ويسبة بأقبح الشتائم ...ولكن البار كان يحتمل كل ذلك فى شكر وصبر عجيبين.

وحدث أن أتى بعض الأعراب ذات يوم إلى الدير ومعهم شخص بة روح نجس يطلبون إلى الآباء إقامة صلاة عنة لكى يفارقة الروح النجس ،فلما سلمة الآباء إقامة صلاة عنة لكى يفارقة الروح النجس ،فسلمة الآباء بدورهم إلى شيخ فاضل لكى يصلى لة ،وعندما بدأ ذلك الأب فى الصلاة صرخ الروح النجس ..زفتجمع آباء آخرون مع الأب المصلى ،فإذا بالروح النجس يتكلم فى المريض معلنا_بغير

إرادتة_أنة هو الذى أخطأ مع ابنة الأعرابى وأن الأب زكريا برىء ! ثم خرج لتوة من المريض بعد أن صرعة على الأرض .

فلما أفاق أعاد علية الآباء الكلام الذى قالة الروح النجس ،فاعترف بكل شيىء ولم ينكر .كما أصر كذلك على الاعتراف لوالدها لينال بذلك جزاء شرة المضاعف.

فلما ذهب إلى والدها وأخبرة بكل شيىء. تحير الرجل وارتعد وأسرع فجمع أفراد قبيلتة الذين ذهبوا قبلا للانتقام من الأب زكريا ،وتجمع كثيرون أيضا معهم واتجهوا جميعهم إلى مغارة الأب ...

وهناك وجدوا مجموعة من الآباء الرهبان عندة فى المغارة ،وسجد الرجل عند قدمى القديس الذى سجد لة بدورة،واعتذر الاعرابى ولكن الأب زكريا طمأنة أن كل الأشياء للخير وسألهم إن كان الشاب اعترف بالفعل وأنهم لم يفعلوا ذلك مجاملة لة ،ولكن الرجل الخاطىء كان معهم فاعترف للمرة الثالثة أمام القديس ،وحينئذ طمأنهم الأب جميعا مرة أخرى بأنة غير متضايق وليست لدية أية كراهية لأحد منهم .وأخبرهم بقصة الشيطان الذى ظهر له فى ذات الأسبوع الذى اتهموة فية بالزنا .ثم أخبرهم أيضاً بأن هذة الضيقة قد جلبت علية بركات كثيرة ، وصرفهم هادئيين البال منتفعين ومتزودين بالحكمة .

وطلب الآباء بجورهم الصفح .. ولكنة قال لهم : أنهم كان من يجب عليهم أن يفعلوا ذلك من أجل منفعة الخطاة ولأجل سلام الدير وعثرة الناس. ومع ذلك طلب إليهم أن يحاللوة فى أن يترك المكان إلى موضع آخر يختارة هو ،فحزنوا وألحوا علية فى أن يبقى معهم ولكنة أصر على الرحيل ، وأسرع حيث ترك مغارتة إلى موضع آخر لم يعرفة أحد منهم وعاش هناك بعيداً عن كل كرامة من المحتمل أن تأتية نتيجة ما حدث، وذاق عربون بهاء القديسين ومجد ابن اللة إلى أن تنيح بسلام بركاتة فلتكن معنا آمين .

عن كتاب أقوال الآباء الشيوخ (بتصرف).

تضحية أب

ما أن دخل الراهب نفير إلى الإسطبل ، الكائن فى الركن الغربى البحرى من الدير بجوار الباب ، حتى رمقة الحمار المربوط بالداخل ، بنظرة توسّل وكأنة يرجوة أن يرحمة من ذلك العمل الثقيل والمملّ، والذى لم يتغير لسنوات طوال .

ولكن الراهب كان مظطراً ، فهذا ترتيب الأب الرئيس ، وهذا هو الاحتياج الذى لا بديل لة ، فقد اهتدى الآباء إلى طريقة يحصلون بها على مادة يستخدمونها فى البناء وفى (محارة) الحوائط ، فكانوا يجمعون الجبس من الصحراء ويقومون بإحراقة فى الفرن ومن ثم يقومون بطحنة فى طاحونة خاصة .

دخل الراهب فى خطوات محسوبة (لتكرارها) وانحنى فوق الوتد ، ليحل منة الحبل الممسك بالحمار ، لاختار الأسر فى الوتد على العمل تحت النير ، ربت الراهب على ظهرة قائلاً (هيا يا مبروك) ، وولى ظهرة لة ثم سحبة فى هدوء إلى الخارج ، بينما الحمار يتعثر فى مشيتة وتتشبث حوافرة فى الأرض ، يتمنى كل الأيام أحاداً وكل الأوقات ليالٍ ، ليعتق من هذا العمل.

وفى حجرة الطاحونة ، شُد الحمار إلى النير ، بعد أن وضع ساتراً على عينية (هكذا يفعلون لكى ينظر أمامة فقط) ثم لكزة بيدة وكأنة يعطية إشارة البدء ، ويدور الحمار فى دوران بطىء ، مديراً معة عارضة مثبتة فى قائم يدور هو الآخر ولكن حول نفسة ، وحول العارضة يدور حجر طاحون صلد ، ليطحن الجبس .

ويمضى الوقت وئيداً، ويدور الحمار ، وتئز الحصى تحت الحجر ، وتنتشر ذرات التراب البيضاء لتدخل إلى رئتى الراهب ، ولتكسو ملابسة ووجهة بطبقة رقيقة بيضاء ، بينما هو واقف يراقب سير

العمل ، وبين آن وآخر يعيد الحصى _ الذى فرقة الحجر _ فى صف واحد فى إنتظار أن يطحنة الحجر – وبين آن وآخر يتمتم بصلوات سهمية قصيرة ..

وكلما أتم طحن شيىء من الجبس ناعماً ، عبأة فى أكياس ، وأعدة للعمال الذين سوف يستخدمونة فى أعمال البناء.

وتمضى الأيام ...ويتطرق الملل إلى الراهب نفسة ، ويجلس ذات ليلة يحدث نفسه..

(.. وما الدعى لكل هذا ؟!

يقولون أن الهدف من العمل هو اقتناء الفضائل ، ولكن الإرهاق يمنعنى من إتمام واجباتى الروحية ، ويجعلنى أكثر تذمراً وأقل احتمالاً..)

ثم تحسّس كتفة الأيمن ، مكان الرقعة التى مات الجلد فيها من فرط ما حمل عليها من قفف الجبس من وإلى الطاحونة ، تلك التى قضى فى العمل فيها ما يزيد على

أربعة سنوات ونصف السنة ، ثم الثياب التى تحتاج كل يوم إلى غسل ... والسعال

الشديد الذى يعانى منة بسبب امتلاء رئتية من ذرات الجبس .

وسرح بفكرة .. وفى يقظتة حلم حلماً .. فقد وجد الطاحونة وقد اختفت تماماً من بين أبنية الدير– ثم إذا فى مكانها أقيمت قلاية صحية ومريحة ... وسكن هو فيها ... وصار يقرأ ويصلى ويرتل..

ثم لاحت لة فكرة لماذا لا يذهب إلى أب الدير ، ويسألة أن يعفية من العمل فى الطاحونة ؟ ولكنة عاد ليبتسم ساخراً من نفسة ، فمن أين لة بذلك ، وليس لة من الحجة ما يجعل الأب يجيبة إلى طلبة ؟

وإنتبة مرة أخرى فإذا الحمار قد تعثر فى سيرة ، فقام ليصلح لة السرج، والنير، وبعد ذلك تراجع قليلاً حتى استند بمرفقة إلى الحائط ، واستسلم مرة أخرى لملاطمة الأفكار .. ورأى ذاتة يضرب بقدمة فى الأرض وهو يتمتم فى قنوط ..لابد من نهاية ..واليوم...

ففى الليل، تسأل إلى الطاحونة (حيث كان الشيطان يرقص) وغاب داخلها دقائقاً ، وانطلق بعدها فى خفة وهدوء إلى قلايتة ، ثم ماهى إلادقاعق، حتى تعالت الأصوات ، وارتفعت ألسنة اللهب ، وتكاثف الدخان وسمعت قرقعة من الداخل.

وهب الرهبان من نومهم أو من خلوهم ، واندفعوا نحو مصدر الصوت والنار وسحب الدخان ، وكثرت الحركة وزاد اللغط والصياح ..وحمل البعض ماءً فى بعض أوان فخارية مختلفة الأشكال والأحجام ، والبعض الآخر حمل قففاً من الرمال ...وتمتم الشيوخ بصلوات .. واستدراراً لمراحم الرب ولطفة .

وخمدت النار ، ولكن بعد أن أتت على كل ما يسمى خشباًُ داخل الطاحونة ، القوائم والعوارض والأبواب والشبابيك، والنير والسرج والرفوف والسقف، كما لفحت النار بعض وجوة وأذرع الغيورين ...ونظر الأباء بعضهم إلى البعض الآخر فى دهشة وتساؤل ، ولكن ارتفعت أيضاً عبارات الشكر من الأفواة ، لأن الأمر لم يتجاوز ما حدث.

فى قلاية الأب يعقوب جلس الراهب نوفير يروى ما فعل ، وقد اختنقت عبراتة ، ولكن الأب الكبير هدأ من روعة ، وأمرة أن يلتزم الصمت تجاة ما حدث وأن يترك الأمر كلية .

كان الأب يعقوب يعرف أن العقاب المناسب فى مثل تلك الحالة ، هو الطرد من الدير لمن أقدم على مثل تلك الفعلة الشنعاء ولكن قلبة نبض حباً، وتأججت نار الأبوة الروحية بين جنباتة ، خاف على ابنة الروحى من الضياع ، واليأس الذى يفغر فاه ليبتلعة خارج باب الدير.

وفكر طويلاً....ثم قام من فوق الأريكة التى كان يجلس عليها، ودس رجلية فى النعل القديم ، وانتصب يصلى طويلاً، قبلما قبّل (صورة السيد المسيح فى جسثيمانى)المعلقة خلف باب قلايتة ، ثم خرج إلى خارج، وقد باتت نيتة على شيىء ...وقّر فى نفسة قراراً.

أصبحت الطاحونة مسرحاً ،يرتادة بين الحين والآخر ، وراهب أو اثنان ، يعاينا ما حدث، والحوائط التى اتشحت بالسواد ، والرائحة الخانقة التى أمسكت بتلابيب الحجرة، مع شيىء من الضيق والدهشة.

وبالقرب من المكان ،وقف الأب زكريا أمين الدير ، وقد عقد كلتا يدية على رأس عصاة وأراح ذقنة فوقها، يفكر ملياً ، ولعلهم- الآباء وأمين الدير -كانوا يفكرون فى ذلك الوقت فى استشارة الأب يعقوب فى هذا الشأن ، نظراً لحنكتة ومحبتة الدافقة ، ولما هو معروف عنة من حكمة وخبرة ووقار.

حين فاجأهم جميعاً وهو يرتدى ملابساً كاريكاتورية ، ويضحك فى جنون ضحكات

بلهاء، ويشير الي الطاحونه وهو يقول (هذه اولي انجازاتي .. ثم ضحك مرة أخري، كما يضحك السكارى ..

والتفت الآباء وقد عقدت الدهشة ألسنتهم ، فما عهدوا فيه ، إلاّ المشير الحكيم والرأي الراجح ، وخط الرجعه عند كل خلاف!

عند ذلك تقدّم هو ، من الأب زكريا، وقال له في بلاهة مصطنعة: خداع شياطين .. (ثم بصوت أعلي) ما جئنا لنطحن .. وننسي هدفنا .. الفضيله والتوبة .. سأطهّر الدير ، سأرغمكم علي الامتثال للحق الرهباني ..

وأما الراهب نوفير فقد جلس يبكي في قليته ولم يغادرها، ولم يتهمه أحد بشئ، ربما يكون قد ترك مصباحاً مضيئاً نسيه قبل أن يغادرها ، فأجابهم بالنفي .

وبعد تشاور كثير، وأخذ وعطاء ، وشد وجذب ،واختلاف ثم اتفاق ، أقروا جميعاً وجوب أن يعالج الشيخ .. ولم نعد القضية قضية حجرة احترقت وانما بالأحري قضية الأب يعقوب الذي راح عقله (حسب اعتقادهم) ولكن كيف وأين ؟! واصطحب الأب زكريا معه اثنين من الآباء الرهبان, وتوجهوا حيث توجد قلايته ، وهناك في القلاية، لم يحتف بهم ولم يكترث، وهم بدورهم لم يبالوا بذلك ، وإنما بعد تردد كثير..قالوا له " :أنت مرهق ومتعب فوق الطاقة .. وقد رأينا أنه من الأوفق لك أن تستريح في مكان هادئ لفترة ، وتجئ بعدها إلي الدير "

ولم يناقشهم .. ولكنه لم يكن يحسب أن الأمر سيصل به إلي أن يحملوه إلي مستشفي الأمراض العقلية! ورضي بذلك ، وحملوه الي هناك حيث تركوه ومضوا .

وعلى باب الدير،وقف جمع من الآباء يشيّعون الأب يعقوب بنظرات ملؤها التساؤل والشفقة ،وعرض أحد أبنائه الروحيين متطوعاً أن يرافقه في المكان الذي سيتركونه فيه، ولكنهم اعتذروا له ، ونصحوه أن يحول هذه الرغبق الي طلبة يقدمها عنه في كل صلاة . وفيأثناء كل ذلك ، كان الأب يعقوب،يردد بصوت يكاد لا يسمع : عار المسيح غني .. عار المسيح غني ..

في السراي الصفراء ، تم استقبال الأب يعقوب صليبالمسعودي،وقد تم تدوينه فى السجل الذي يحوي نزلاء المستشفي، وتشخيصحالته بأنها (لوثه عقلية مفاجئة) وهناك وضعوه في عنبر المستشفي مع خمسة آخرين ، تحت المراقبة ..

وفي كل التقارير التي دونت عنه، جاء أنه شخص عادي لا يصدر عنه ما يشكك في سلامة عقله ، ولكن أدارة المستشفي لم ترَ في ذلك دليلاً قاطعاً علي سلامته ، أو مبرراً لتسريحه من المستشفي ، بل استصوبوا التحفظ عليه لفترة .

وكان بين نزلاء هذا العنبر ، موجّه سابق للغة الفرنسية، اعتاد هذا علي ذرع أرضية العنبر جيئة وذهاباً _ أعلب النهار _ في اتجاه قطري ، أي من الزاوية الي الزاوية المقابلة وهو تمتم بكلماتفرنسية ، فيما عدا هذه الأوقات ، كان يبدو عاقلاً صدوقاً حكيماً .

وعرف منه الأب يعقوب ، بأنه كان مولعاً باللغة والأدب الفرنسي وأن حادثاًمريراً حدث له فذهب بعقله ، لدرجة أنه كان يصرخ بين آن وأخر بشكل مباغت..

ورأى الأب يعقوب،فى نزلاء العنبر ، الفس البشرية المفعمة تعباًومرارة ، وإن كان متأكداًبحكم خبرته وسنه ، أن المجنون يحسب نفسه دائماً أعقل العقلاء ،كما
ينظر للباقيين نظرة استخفاف، وبأنه (أي الأب يعقوب) مطالببتسديد الخدمة لأولئك المساكين ، فأحبهم وبادلوه حباً بحب، وأسروا إليه بمتاعبهم وأسرارهم ، وهو خبير بالنفس البشرية ونزعاتها ، والشر دخيل عليها.

فأكد لهم فيما أكد ، أنهم أشخاص فوق العادة ، موهوبون يفكرونبإمعان في كل شئ ، ولا يحبون تجاوز أي موقف دون تعليق وتفاعل، وبأن المجتمع أساء فهمهم ، أو فشل في التعامل معهم .

وفي ذات مرة صرح لهم وكأنه ينصب شبكة المسيح .. " كلنا مجانين ، وكل إنسان به نسبة من الجنون ، وإنما هناك من يحرص علي إخفائه ، وهناك أيضاً من يدعه يعلن عن نفسه فيه" .. وحينئذ صاحوا يهتفون : يسقط القسر ... يسقط الفساد .. المجتمع ظلمنا .. يحيا .. وصار أباً لهم .. يحكي لهم ، ويسمع منهم ، ويتسع قلبه لهفواتهم ونزواتهم واذاهم في بعض الاحايين، ولكن حدث أن أقسم له ذلك الموجه أنه لابد أن يعلمه اللغة الفرنسية ، ووافق الأب يعقوب ، حقناً للشجار والخلاف، وثابر الاستاذ في التدريس ، ووجد الأب يعقوب أنه لا مناص من الإصغاءوالامتثال لتعليمات المدرس العلمية ونصائحه ، وفي شهور قليلة استطاع أن يحرز تقدماً لا بأس به .

وازداد المرضي اقتراباً منه ، وظهر تأثيره فيهم خلال تصرفاتهم، فقد قال لهم ذات مرة ما قاله الأب انطونيوس، من أنه يأتي وقت يجن فيه الناس جميعاً ، وأما الذي لا يجدونه مثلهم (يعيش بتعقل(، فإنهم يرمونه بالجنون والبلاهة ، وأنه ليس بالضرورة في شئ ، أن نفعل ما يرضي الناس ، والناس لا يرضيهم شئ واحد ، بل كلٍ له هواه ومنهجه ، وإنما نفعل ما يرضي الروح القدس داخلنا ، وإذا كان لكم تحفظ علي ما أقول من أن الضمير يتأثر بعوامل كثيرة كالبيئة ، وما نقرأه وما نسمعه، قلت لكم يحسن بنا أن نستشير ذوي الفضل والحكمة، وأن نكثر من القراءة .

فرمقوه بإعجاب ، وهزوا رؤوسهم حاثين إياه علي الاستمرار بينما انتاب أحدهم ابتهاج طارئ فرفع طبقاً بلاستيكياً به خضار ثم أيبل جفنيه ، وراح يسكب ما فيه فوق أم رأسه، في هدوء وحبور !!

وأردف الأب يقول .. غير أنه لابد وأن نعي جيداً ،أنه لن تجري الأمور وفق ما نشتهي، ولن نستطيع أن نصلح الكون كله دفعه واحدة ، وبجرة قلم ، ولكن الأمر يحتاج الي تفكير بموضوعية ، وأن يقوم كل منا بالواجب المنوط به في أمانة ، ومن المستحيل أن نحسب كل الناس مثلنا ذكاءً ومنهجاً، بل علينا أن نؤمن بالتفاوت .

حينئذ صاح أحدهم ، ولكن يجب محاربة الانحلال ، بلا هوادة . وأجاب : نعم .. نعم .. ولكن بالحكمة لا بالقوة ، فالقوة كما تعلمون هي سلاح ذو حدين .

ولكن آخر قام وركل الأب يعقوب في جنبه قائلاً : انت " بياع كلام " ، فأجاب في دعه قائلاً: أبداًوإنما أنا أهدي لكم ماتعلمته منكم. وأثناء ذلك كان العنبر يعج بنزلاءأتوا بتصريح من عنابرهم ..

وتمضي الأيام ، ويظهر تقدم ملحوظ علي النزلاء ،فهم أكثر ميلاً إلي الرزانة ، وأقل تهافتاً علي الشجار والهرج ، وصار أكثرهم مستعداً للخروج من المستشفي ، ومدير المستشفي يقول لزائريه من أصدقاءه، وهو يتحدث عن الأب يعقوب .. " جاء علي أنه مريض ، وإذا به طبيب.".

ومرة أخري قال ... " أستطيع أن أوكد الآن ، بما لا يدع مجالاً للشك، أن هذا الأب افتعل ما جعلهم يحملوه إلينا، وأما أنا فقد تعلمت درساً لن أنساه ما حييت : أن لا آخذ بالوجوه ...

فوجئ مدير المستشفي ذات صباح ،بالأب زكريا (أمين الدير) يحضر بصحبة أربعة من الآباء الرهبان يسألون كعادتهم (كلما جاءوا للزيارة) عن الأب يعقوب ، فإذا به يبشرهم بأنهيمكنهم اصطحاب الأب يعقوب في أي وقت منذ الآن ، وأرسل فاستحضر الأب يعقوب لكي يزف إليه البشري بالخروج ومعه ستة من النزلاء الآخرين ، فإذا به يفاجأ الكل بقوله :

" هنا زي هناك ... ويمكن هنا أحسن .. " .

وكتب الدير في التقرير : " أعتقد أ، هذا الأب تظاهر بالجنون ، بينما هو عاقل ومتزن ،ويتمتع بقدر وافر من الحكمة واللباقة ، وهدوء النفس ، وعموماً فقد كانمقدمة بركة لنا ولجميع من بالسراي ". وحمله الآباء معهم ، بعد أن شّيعهم العاملون بالمستشفي بالإكرام .. وبعضهم بالدموع .

وقال الآباء بالدير فيما بعد ، إن تلميذ المسيح بركة إينما حل وشهادة قداسة لكل إحد ، ويقدس المكان الذي حل فيه ..

وكان مدير السراي يأتي الي الدير بين آن وآخر ، ليجلس معالأب يعقوب يسمع له في خشوع ويقبل يديه ، وعندما سألأه ذات مرة لماذا صنعت هكذا يا أبانا ؟ ابتسم في وقار ولم يجب ...

+ + +

هذه لقطة من سيرة المغبوط القمص يعقوب صليب المسعودي .

*** ولد حوال عام 1859 م في قرية الشيخ مسعود بطهطا .**

*** دخل الدير للرهبنة في 4 طوبة سنة 1601 ش الموافق 1884 م**

*** رسم قساً في 9 هاتور سنة 1604 ش الموافق 1887 م**

*** وقمصاً في 14 بابة سنة 1653 ش الموافق 1896 م**

*** وتنيح في 16 توت 1653 ش الموافق 26 سبتمبر 1936 م**

وجدير بالملاحظة – أنه شقيق القمص عبد المسيح صليب المسعودي البراموسي) العلامة الشهير

سردنا هذه الواقعة بتصرف, في قالب قصصي معتمدين في ذلك على التاريخ الحديث المدون في الدير مع التقليد المتوارث من الآباء في تاريخ الدير الحديث, بل يوجد من شيوخ الدير من شاهد ذلك الأب عياناً قبل نياحته.

ومازال الآباء حتى اليوم يذكرون هذه الواقعة بإعجاب شديد و تقدير كبير كدليل رائع على محبة الأب وتضحيته لأجل اولاده فإن كان المسيح وهو البار قد مات عن الخطاة فقد تعلم هذا الأب من سيده ولم يجد غضاضة في أن يعاقب بدلاً من ابنه, في رضى و فرح.

بركة صلاته فلتكن معنا آمين.

محبة المسيح غربتى

تخرج (ياسر) في الخمسينات في كلية الهندسة, والتحق بالعمل في شركة اجنبية بالإسكندرية ،قد تجاوز راتبه الشهري آنذاك (المائة جنيه)،وكان وحيداً لأسرة موسرة لها أملاك واسعة وعدة أرصدة في البنوك،وربما كان هذا هو السبب خلف اعتياده أن ينفق ببذخ ويحيا حياة أرستقراطية مترفة،وأما البعد الروحي له فقد كان باهتاً , كانت له اهتمامات أخرى.

فقد ألف الحفلات و السهرات،يخرج في الثامنة مساءً ليعود عند الفجر،أما أفراد أسرته فقد كانوا لاهين،أحدهم عن الباقين – كان لكل منهم عالمه الذي يغوص فيه.

وعرف بعض الآباء الطريق إلى منزلهم ،وزاروهم مرة واثنين ،ونصحوهم بالالتفات إلى خلاص نفوسهم والاهتمام بحياتهم الروحية ،وودوهم (أي الأسرة) خيراً،غير أن اهتمامات العالم عادت لتحوطهم وتحاصرهم من جديد.

فى ذات مساء تقابل ياسر مع أحد الآباء الرهبان،كان الراهب واقفاً على رصيف إحدى المحطات في طريقه إلى مستشفى فيكتوريا، فرقّ قلبه له، وأوقف سيارته و دعاه ليركب معه ينقله إلى حيث يشاء، ولكن الراهب تمنع قليلاً في حياء قبل أن يصعد إلى جانبه, ولم يقل طوال الطريق الذي استغرق نصف ساعة, سوى أسم المستشفى، وحالما هبط الأب من السيارة، انطلق ياسر إلى حيث كان أصدقاؤه ينتظرونه، وأكمل ليلته كما اعتاد أن يقضيها.

في تلك اليلة، عندما لجأ إلى سريره لينام، داعبت مخيلته صورة الراهب، فتعجب.. وشرد بذهنه قليلاً, فتخيل لو أنه صار راهباً !ولكنه سرعان ما سخر من نفسه ضاحكاً، ولطم خده لطمة خفيفة، يعاتب بها نفسه.

كان أبعد ما يكون عن أن يترهب! لقد سمع عن الرهبان الكثير, فسمع أنهم يموتون ويدفنون بعيداً عن مدافن أسرهم وربما لا يدري أهل الراهب بموته إلابعد مدة طويلة (شىء مؤلم) وعرف أنهم يحيون داخل جدران أربع, لا نزهات ولاحفلات ولا أصوات طرب و مرح .. بل ذرف دموع .. وقرع صدر .. سجود دائم .. حزن دائم .. مسوح .. رماد .. نحيب, والشعر مخفى, والملابس سوداء, .. شيءيفوق الوصف .. تعب لا ينتهي!

وانزعج وحاول طرد هذه الأفكار لينام .. فنام.لقد كان يشتري ملابس كاملة كل شهرين! حتى تكدس صوان ملابسه بعشرات الأطق ، ما أن يرى شيئاً جديداً على جسد آخر، أو في فترينات العرض، حتى يسارع باقتناء مثله، عدا العطور و المشغولات الذهبية وإسرافه في الطعام و الشراب، ولقد امتلأت حجرته الخاصة الفسيحة في منزلهم بكل ما تتخيله وما لاتتخيله.

وترهب ياسر !!!

وفوجئنا جميعاً بذلك، ولم نجد مبرراً لهذا التغيير الطارىء، ولا يمكن ان يقال أنه أعد ذاته لتلك الحياة،والدليل على ذلك أن كل شىء في حياته الديرية كان جديداً عليه.

فقد سأل هناك_ في اليوم الثاني أو الثالث لدخوله الدير – ماذا تعني كلمة ميطانية؟ وإذا صادفني راهب في الطريق فماذا أقول له، وماذا يقول الراهب لأخيه عندما يصافحه في الكنيس , إضافة إلى أسئلة كثيرة تتعلق بالبديهيات.

وقد تكّبد في الرهبنة أتعاباً شديدة, لقد أسند إليه المسئولين في الدير, أن يعمل في تنظيف حمامات الدير وبعض مواضع أخرى, فكان يقضي شطراً كبيراً من يومه في ذلك العمل, وشيئاً فشيئاً يبس جلد يديه وامتلأت ملابسه بالبقع واتسخ وجهه، لقد صرف ليلة كاملة حتى الثالثة صباحاً –حتي دق ناقوس التسبحة_ وهو يقوم بتفريغ خزان الحمامات (الترانش).

كانت نفسه تصعب عليه كثيراً فينتحى جانباً ليبكي بمرارة ولا يكف قبل أن يشيع الله الطمأنينة في قلبه، لقد كان في حياته السابقة مدلل الى حد غير مقبول، وعندما شاهدته أمه على حين غرة وهو في

ملابسه القذرة وبؤس حاله، بكت مشفقة عليه مما هو فيه، وقد قابل شفقتها بصمت مطبق وملامح هادئة وعينين مرخيتين.

فبعد أن كان يحيا في بحبوحة من العيش في منزل كبير عريق، تعمل فيه عدة خادمات وطباخ وسائق وعامل حديقة ، الآن يحيا حياة العوز فقد كانت قلايته هي الأكثر بساطة بين قلالي الرهبان ، وكنت تراه جالساً فيها فوق حصير بالٍ يرتق جورباً أو يركب زراراً لثيابه، وكان مايزال في الثامنة والعشرين من عمره.

أما أسرته والتي روّعت لخبر رهبنته، فقد كانت تحضر له بين الحين والحين يزورونه حاملين معهم طعاماً شهياً أعدوه، وملابساً مناسبة وبعض الهدايا له، مع هبات أخرى للدير، أضافة إلى دموع غزيرة يسكبونها في حضرته وهم جلوس معه.

وكان هو إزاء ذلك، متجلداً قوياً، يطلب أليهم في أتضاع أن يصلوا عنه، ثم يوزع كل ما أحضروه من طعام و ملابس وهدايا، مكتفياً بما يقدمه له الدير.

هذا وقد اتخذت الشياطين من هذا الفارق الشديد، بين حياته في العالم و حياته في الدير، مادة هامة و غزيرة و خطيرة، في حربهم معه، فقد استطاعوا أن يجمعوا كل مواقف حياته الهانئة السهلة الناعمة منذ طفولته حتى تركه للعالم، وصاروا يوجهونها اليه كالسهام، بين الآن و الآخر لكي يقلقوه. مختارين أشد الأوقات حرجاً وضعفاً بالنسبة له.

وأما هو فقد كان مسكيناً يتألم ويبكي، وينظر إلى صورة السيد المسيح، تلك الصورة التي يرى فيها السيد المسيح واضعاً الكتاب في شماله ورافعاً سبابته اليمنى، ينظر إليها في صمت ودونما كلام.. ثم يهدأ ويبتسم حالماً يخيل اليه أن الله يطمأنه بأنه معه.

لقد كان يخجل من كثرة الطلب الى الله!.. يخجل من الإلحاح! .. فيكتفي بالنظر, أو بتقبيل الصورة فيسري السلام بين جنباته.

وكان بعض من أصدقائه، وكلهم من طبقة الأغنيا، يأتونه بين آن و آخر في سياراتهم الفارهة، ليس على سبيل الوفاء فقط،بما تقتضيه الصداقة، وإنما رغبة منهم كذلك في الإطلال على تلك الحياة

التي اختارها رفيقهم ودون مبرر مقبول في نظرهم، وحقيقي أن مثل تلك الزيارات كانت تحرك أوجاعه قليلاً، في بدايتها إلا أنها فقدت سلطانها عليه بعد ذلك.

في ذات مرة وبينما هو يجلس تحت أشعة الشمس يقرأ في الكتاب المقدس، ويضع خطوطاً خفيفة، جاءه من أخبره بأن عمه قد وصل في أمر هام، فلما انتحى به جانباً عرف منه خبر أنتقال والده،وفزع.. وصمت طويلاً، وتجلد لكي يخفي إنفعالاته، غير أنها كانت أكبر من احتماله فبكى منتحباً.. ولما هدأ وعرض عليه عمه أن يرافقه ليخفف عن أمه وأختيه، اعتذر وتمنع في جدية و حياء.

وظل شارداً قلقاً، إلى أن جاء عمه مرة أخرى بعد مرور أربعين يوماً، ولكن بصحبته والدته وأختيه في هذه المرة، كانت آثار الحزن بادية على ملابسهم ووجوههم وأصواتهم، وقبل انصرافهم طلبوا إليه أن يصحبهم لإنهاء إجراءات الإرث، ولكنه رفض بشدة قائلاً " إن ميتاً لا يرث ميت،إمضوا واصنعوا ما يحلوا لكم، لأنه لا رأي لي في ذلك, بل إني مستعد للإقرار بتحويل كافة حقوقي لكم" وحاولوا ثانية،ولكنهم أمام إصراره تركوه و شأنه.

اتجهوا إلى رئيس الدير ،يعرضون عليه تقديم نصيبه إلى الدير ،وكذلك سيارته التي كانت لا تزال موجودة،ولكن الأب الرئيس أبى ذلك بشدة.. وألحت الأسرة فلم يجنوا إلا مزيداً من الإصرار على الإعتذار مع مزيد من الشكر و الدعاء.

ومرت شهور وسنوات ..وصار راهباً محبوباً..نشيطا.. مطيعاً ، كان يذكر الآباء بينيامين الابن الأصغر لأبينا يعقوب.. يأتي في هدوء ويرحل فى هدوء ..
لا يشعر أحد بوجوده ولا برحيله.. تماماً مثل النسيم..مبهج فى حضوره ككوب الماء البارد فى قيظ الظهيرة..

ومع أنه لم يكن يفكر قط فى عامة المقبل أو غده ،يعيش يوماً بيوم ،إلا أنه صار هدفاً هاماً للشيطان.. الشيطان الذى يصطاد الضعفاء مثل صغار السمك.. بينما يقف طويلاً أمام سمكة كبيرة.. وهكذا تركزت علسه الحرب طوال الخمس سنوات التى قضاها فى الدير..

وهاجمته الأفكار الشريرة بلا هوادة..فكر فى دراسته ..وفى عمله .. ثم فى الراتب

الكبير الذى كان يتقاضاه ، ثم فى الفتاة التى أملت يوماً ما أن ترتبط بـه..فى الكازينو الذى أعتاد–لفترة طويلة– السهر فيه مع مجموعة من أصدقائه..

كان ما يزال فى الثلاثين من عمره.. عندما تذكرذلك انزعج حين تصور انه سيحيا على تلك الحال إلى سن السبعين مثلاً...

وقال فى حرقة : إن لم يبن الرب داخلى بناءً مستمراً: فلن أستطيع المواصلةفى هذه البرية.

والحقيقة أن تلك الليلة، كانت من أقصى الليالى التى مرت به فى الدير، وقال ما قاله القديس موسى الأسود حين مر بمثل تلك الحرب (يارب أنت تعرف أنى أريد أن أخلص لكن الأفكار لا تتركنى..).

ونظر إلى الصورة المعلقة على الحائط الشرقى لقلايته ، فلم يشعر بتلك المشاعر اللذيذة التى كانت تسرى فيه كلما نظر إليها ، وزاد كآبة على ذلك السماء المكفهرة فى الخارج والريح الذى يزأر مولولاً ، والأمطار التى تهطل بغزارة فى ذلك الوقت المتأخر من الليل.

ووقف أمام الصورة يبث إلى سيده لواعج نفسه ، فلم ينل تلك الراحة التى أعتادها فلما زاد قصف الرعد فى الخارج عاد إلى مرقده واندس فى فراشه البالى وجلس مسنداً رأسه إلى راحتيه المشتبكتين خلفها.. وظن أنه سينام ، ولكن النوم عصى عليه، فسحب كتاباً ليقرأ فيه، ولكنه سرعان ما اكتشف شروده فعاد وأغلقه ووضعه فى رفق بجانبه.

وجاءه فكر أن الشياطين تحاصر القلاية، وأنهم مستبسلون فى حربهم معه مصرين على صرعه.فبكى..ووجد راحة فى أن يبكى..وعاد ينظر إلى الصورة مرة أخرى ثم قال فى زفرة محرقة (لماذا تتخلى عنى يارب؟!)..

وبينما هو يكفف دموعه، إذا بخشخشة خلف الباب! ، فاضطرب وازدادت ضربات قلبه..وجمد فى مكانه لا يبدِ حراكاً..ثم إذا بالباب يفتح فى هدوء ، وشخص طويل مهيب ، يشع وجهه ضياءً ، وملابسه بيضاء فوقها وشاح أحمر.

فخاف وحبس أنفاسه ، وثبت عينيه على ذلك الشخص ، فإذا به يتحرك..ولقدميه حفيف كحفيف الشجر..وكالنسيم الهادئ تحرك نحوه- ثم تقدم منه ، فصار مبهور الأنفاس ..

ووقف السيد المسيح إلى جواره وانحنى فوقه وهو لا يستطيع حراكاً..فربت على كتفيه فى حنان، ثم قال له بصوت عذب:".. مالك تبكى..أتراني قد تخليت عنك..ثقإنى أنا معك..".

وبنفس الهدوء عاد إلى الباب وخرج منه ، ثم أغلقه برفق خلفه.

وانتبه إلى الشخص الذى كان معه داخل القلاية ،هو هو السيد المسيح نفسه !!،

فانفجر باكياً..ليس دموع صغر النفس، وإنما دموع التعزية..وقد غسلته دموعه فى تلك الليلة..وشعر أنه تعمد من جديد-وهدأ-وهدأت كذلك الأمطار فى الخارج..وسكنت الرياح..وانتهى الرعد،وعادت السماء صافية..

ومنذ ذلك اليوم عاش هائماً على وجهه ،يأكل اى شىء وينام فى أى مكان ..

يعمل بلا كلل ..مقلاً فى الكلام..شارداً حالماً..منتظراً ذلك اللقاء..بثقة.

الطريق والطريقة

قالت ونشيجها يمزّق كلماتها:

إسمى (......)

...أرجوكم لا تقاطعونى...

ولدتُ فى إحدى المدن الساحلية.

حصلت على ليسانس الآداب ، قسم اللغة الفرنسية ، وكان ضمن دفعتى فى الكلية اثنتان من الطالبات وفدن أيضاً إلى القاهرة مثلى ربطتنا ببعضنا البعض علاقة روحية وطيدة ، وكنا قد اتفقنا على أن نتجه إلى الرهبنة، حالما تتهيأ لنا الظروف،ويساعدنا الله فى التخلص من العقبات المألوفة للرهبنة.

وقد كان..

فقد التحق ثلاثتنا بأديرة ثلاثة (كما نُصحنا سابقاً) وذلك بعد مرور عام ونصف العام على تخرجنا، حيث كنا خلالها قد التحقنا بأعمال مرموقة.

أما أنا فقد رحبوا بى كثيراً فى الدير، وفرحوا بقدومى، لاسيما الأم الرئيسة والتى كانت أقرب إلى الملاك منها إلى الإنسان، وقد أمضيت فترة الأختبار والتى وصلت إلى ثلاث سنوات بخير.

كنت جدّ سعيدة بحياتى الرهبانية الجديدة، أحببت أخواتى، وهن بدورهن احببننى، وكان عددنا فى ذلك الوقت حوالى العشرين راهبة أكثرهن جامعيات.

وكنت أنا (فى حالى) كما يقولون، كنت أمينة فى تدريبى الروحى، مخلصة فى عملى، محبة لقلايتى، بل إنى اعتدت فى بعض الأوقات على أن أقوم بأداء بعض خدمات للأمهات دون أن يشعرن بذلك، وأقوم ليلاً –والكل نيام– بتنظيف الحمامات وبعض مواضع أخرى فى الدير، ولما عرضت على الأم

الرئيسة أن تسمح لى بأن أتولى غسل ثياب الأمهات، اعتذرت لى وشكرتن، وأفهمتنى فى لطف بأن ذلك غير لائق رهبانياً، ولكن يبدو أنها خشيت على من المجد الباطل وأنا مازلت مبتدئة فى الحياة الرهبانية.

ومضت حياتى هادئة..سعيدة..لا شبع من السهر، ولا أرتوى من القراءة..ولا أملّ من الصلاة.

إلى أن كان يوم

حين جاء إلى الدير، شاب مهندس لإصلاح جهاز التدفئة فى عنبر الدواجن الذى أعمل فيه، فى ذلك اليوم لم يستمر إصلاح العطل أكثر من نصف الساعة، غادر بعدها الدير، ولكنه مع مغادرته، غادرنى أنا أيضاً شئ ما!.

فمنذ ذلك اليوم ، وأستطيع أن أقول ، أن حياتى إنقلبت رأساً على عقب ، إذا صليت طاردتنى صورة شاب..أى شاب، وإذا قرأت إكتشفت بعد نصف ساعة من
القراءة أننى كنت شاردة!، وإذا نمت حلمت أحلاماً مختلفة..وجديدة ، نوع جديد من
الأحلام.

"...أرجوكم لا تسرعوا بالحكم علىّ ، فلن تكونوا أقسى منى على نفسى!."

دموع... ثم استطراد...

ورحت فى الأيام التالية لذلك، أستحضر فى ذهنى أسماء بعض من صديقاتى من الجامعة، اللائى تزوجن وأنجبن، وبعض منهن زرننى فى الدير،ولا أنكر أنهن فاضلات يقمن بدور إيجابى فى المجتمع ودون أن تنال إهتمامهن من علاقتهن بالمسيح،بل كان للمسيح فى حياتهن (نصيب الأسد) بل اعترف أن أكثرهن، كن يفقننى فى نواحٍ متعددة ، ولكن منذ ذلك الحين تحولت محبتى لهن وتقديرى لهن إلى شكل من أشكال الغيرة..وأحياناً الحسد ، مع مقارنة كاملة ومستمرة بينى وبينهن وحياتى وحياتهن.

وازداد شرودى ولاحظت الأم ذلك ، ولم أكن قد صارحتها بعد، لظنى أنها فترة عصيبة وستمرّ ، ولكن الأم بادرتنى بالحديث معى ، بحنان أم وحنكة مدبرة ، فهى أم بكل ما تحمل الكلمة من معانى ، بل هى لنا فى الدير كل شئ ، الأم والأب والأخت ، بل وأحياناً الإبنة!

فصارحتها بما يعتمل فى صدرى، وأننى أكاد أهوى من علو شاهق ، ولكن الأم طمأنتنى بكلام حلو ، وقالت لى أنها فترة وستمر ، وأشارت علىّ بمزيد من الصوم والصلاة والهروب من الفراغ ، بل طلبت منى طلباً عجيباً وهو أن أدون ملاحظاتى عن نفسى، كل يوم..ربما قصدت بذلك أن أفرغ توتراتى ومشاعرى وأفكارى فى تلك المذكرات.

وحاولت....ولكننى لم أحقق فى ذلك نجاحاً يُذكر.

وأحسست بعد ذلك ، أننى أتقلَّب فوق نار هادئة ، وكثر خروجى من القلاية ، وأصبحت أسترق السمع لأصوات الزائرين ، كلما سنحت الفرصة بذلك ، واتسقط أخبارهم ، وأحس براحة كبيرة فى وجودى بينهم ، ومع كل ذلك كنت فى الليالى

أصرخ بدموع حارقة لا لكى ينقذنى من هذا التغيير الطارئ وإنما لكى يدبر حياتى كما يشاء لأنى اصبحت فى الحقيقة لا أدرى ماذا اصنع .. كنت اشك فى اننى دخلت الرهبنة خلسة.!

وهكذا بدوت وكأنى قصبة تحركها الريح....

لم يكن يهمنى هل يليق بى ان اترك الدير ام لا او كيف سأعيش فى العالم إذا خرجت من الدير أم لا أو كيف سأعيش فى العالم ولكن أكثر ما كان يشغلنى هو التأكد من جدوى استمرارى فى الحياة الديرية

ولا اخفى عليكم أننى فزعت عندما لاحظت قلايتى بالدير قد بدأت أن اسلك بطريقة غريبة وهى الاهتمام بملابسى وشعرى واشياء اخرى تعد غريبة فى الحياة الرهبانية ولا سيما الراهبات.

بل كثيرا ما أطلقت لنفسى العنان فى التفكير فى الحيا الزوجية فتخيلت نفسى زوجة تعد الطعام لزوجها ثم ام ترضع وليدها أو تمشط شعر صغيرتها.

مع كل ذلك كنت أمينة فى أعترافاتى وكان أبى ينصحنى بالتحلى بالصبر ويصلى معى ولأجلى وأما الام الرئيسة فقد كانت قلقةجدا على

لا تألو جهد فى الاهتمام بى.

ولكنة لن يكن من السهل على أن استمر على تلك الحال ففى ذات صباح اتخذت قراراً خطيرا! أخطر من القرار الذى نقلنى من العالم إلى الدير.

لقد قررت ان اترك الدير .. أن اعود أدراجى إلى العالم..

أن أتزوج .. أن أعيش حياتى وشبابى وأمجد الله فى سلوكى(هكذا كان مضمون القرار)

ولن أطيل عليكم فقد كان يوما عصيبا بالننسبة لى بل بالنسبة للأمهات جميعا فى الدير إذا تسللت خلسة دون أن اصافح اى منهن حيث فتح ل الباب والبواب الطيب يتمم بوقار(صلواتك يا أمنا).

يومها شعرت اننى أساق إلى موضع تنفيذ حكم بعد تنفيذ آلمنى طوله وأختلطت المشاعر داخلى مابين فرح غامر وحزن غامض لم أكن فى حياتى فى حالة عدم اتزان غير ان الشعور الذى طفأ على السطح فى ذلك اليوم هو شعورى بأننى افلت من قبضة حديدية !

كانت محطة القطارات تبعد مسافة نصف ساعة سيرا على الاقدام قطعتها فى دقائق معدودة وفى المحطة واجهتنى مشكلة لم أكن أعمل لها

حساب شأن عدة مشاكل واجهتنى فى اليوم الاول لخروجى من الدير

هذه المشكلة هى ملابسى !! ماذا اصنع بها.. هل ادخل بها البيت وكيف سأتخلى عنها بعد ذلك .. هل استبدلها فى المحطة!! أم ماذا..

وعدت إلى البيت بعد خمس سنوات منذ تركتة.

هل تعلموا كيف قابلت امى هذا القرار؟

أمى بكت وشنجت يوم ذهابى إلى الدير؟

أمى التى وقعت مغشيا عليها وضعف بصرها بعد ذلك بسبب رهبنتى؟

أمى هذه ..صرخت حالما رأتنى وبكت ولطمت خديها مرارا وأبى..

أبى الذى حاول مستميتا أن يثنينى عن قرارى وقتها

أبى الذى إتحد فى مناقشتة مع الأم الرئيسة لكى ترفض قبولى بالدير وتقتعنى بالعودة للعمل والزواج؟؟

أبى هذا سلم على بفتور وقطب مابين حاجبيه!

وندمت أنى لم اعمل بنصيحة الذين نصحونى بأن أنزل أولآ إلى بيت عمتى.

المهم أننى شرحت لهم فى هدوء وجهة نظرى قلت لهم أنى مازلت فى مقتبل العمر وليس من اللائق أن يضيع عمرى كله

وقد فقدت سبيل الخلاص ثم أن احيا حياة زوجية هنا هذا أفضل من أن احيا فى الديربلا ثمر لقد كان جسدى فى الدير بينما كان فكرى فى عش زوجية لم اخترةبعد!

ودخلت حجرتى وحبست نفسى فيها مدة وصلت إثنى عشر يوما كانت أمى خلالها تتردد كثيرا فى الإعلان عن عودتى من الدير ووجودى فى المنزل فقد كانت أمى من أهل الصعيد ممن ينظرون إلى مثل تلك الامور نظرة خاصة.

فى تلك الاثناء جرت إتصالات بين أبى وبين المكتب الذى كنت اعمل فية بشأن إمكانية العودة إلى عملى وعدت إلى عملى فى مكتب الترجمة فقد كان مديرة يمت لنا بصلة قرابة.

حاولت فى البداية أن أبدو طبيعية ولكن احساسا غريبا انتابنى وهو شعورى بأن زميلاتى فى المكتب يتهامسن على ويتغامرن وهن ينظرون

إلى خلسة بين أن واخر وسواء كان ذلك حقيقة أم مجرد إسقاط فقد كرهتهن فما كان منهن إلا أن بادلننى كرها بكره.

وتركت المكتب والتحقت بالعمل فى مكتب سياحة وحلت مشكلة العمل

بل أن شابا تقدم لختبطى فى العام الاول ذلك بعد أن تعرف على على متن طائرة ونحن فى طريقنا إلى(بروكسل) فى واحدة من عدة رحلات

قمت بها بعد ذلك

وفرحت ورقص قلبى طربا وقلت أن حياتى سوف يكون لها معنى وعدت إلى اسرتى أزف إليهم البشرى فجاملونى بكلمات مبتورة !!.

ولكن ولشد ماكان أسفى فقد كان هناك من تبرع وروى ولذلك الشاب ظروفى فأرسل يعتذر لأسباب أخرى واهية دون أن يسمع تعليقى

وفهمت وإبتلعت الإهانة وصمت..

وتقدم إثنين وثلاثة غير أن السبب الذى دفع الأول إلى التراجع والتخلى عنى دفع الباقين إلى اتخاذ نفس الموقف وقد علق أحدهم قائلا..

إنسانة متذبذبة كيف ائتمنها على بيتى وأولادى ؟؟ ومن أدرانى فقد أفاجأ ذات صباح بهروبها من البيت!.

تصوروا..!

دموع تلهم تجفيف الدموع ..

وتحيرت وكتمت غيظى وشعرت كذلك بأن أفراد أسرتى يعاملونى فى شئ من الحساسية لاسيما أختى التى تصغرنى بسبع سنوات

كانت تعاملنى بطريقة تجمع مابين العطف والاحتقار والإستياء وربما يرجع ذلك إلى أن أمى والتى إنحدرت من صعيد مصر تحمل الكثير

من مفاهيم الشرف والعار والتشكك والتفاؤل والتشاؤم.

وتجاوزت الثانية والثلاثين من عمرى وقطار العمر منطلقا لا يهدأ وأنا ناجحة فى عملى ودخلى كبير .. كبير جدا وأصبح لى رصيد فى البنك عدا الشقة التى استطعت الحصول عليها

ولكن شعورى بأنى منبوذة قد ازداد مثل إنسانة مرتدة عن الإيمان وبعد مدة من التفكير أن أمى كانت تتباهى بأننى راهبة !

وكان صديقاتها وقريباتها ينادينها بأم الراهبة ويمتدحونها كثيرا لأنها أحسنت تربية أولادها والدليل الدامغ على ذلك هو رهبنتى !! كما أن الصورة النادرة والتى كانت أخذت لى بزى الرهبنة قد طبعت منها نسخا كثيرة وزعتها على كثيرات عدا عدة نسخ زينت بها جدران شقتها

كل ذلك بالإضافة إلى احاديثها التى لم تكن تنقطع عنى وعن الدير وعن الراهبات.. والهدايا الكثيرة التى جلبتها من الدير ومازالت تحتفظ بها.

ورويت بؤسى لأب أعترافى وقلت لة فى صراحة أننى أأمل فى حيا زوجية هادئة وأن الوقت يمضى وأنا خائفة وهأ أبى من روعى ..

ووعظنى بكلام كثير حلو ومعزى وقال لى أن القداسة ليست وقفا على فئة بزاتها حتى ولو كانوا رهبانا وأن الإنسان يستطيع أن يرضى الرب فى أى مكان بشرط أن يحفظ الأمانة ..ثم وعدنى أن يبحث لى عن شاب مناسب

وجاء الشاب المناسب أرمل له ابنان ترددت كثيرا وأنا اخرج معة لأول مرة ورحت ابحث عن طريقة مناسبة لكى أطلعة على قصتى

وحاولت أن اخفى ذلك أو على الأقل أرجى ذلك لوقت أخر ولكنى لم استطع ان أكون مخادعة ففى المقابلة الثانية بيننا صارحتة بذلك فى تردد وحياء وحالما سمع هو ذلك ..بهت.. وصمت وفهمت ماذا يعنى صمتة هذا لعلكم كذلك فهمتم فقد ذهب ولم يعد على أن أكثر ما آلمنى هو التعليق الذى قاله أمام إحدى صديقاتى لقد تشكك فى الزواج من راهبة لئلا تصب عليه اللعنة !..

فلما وصل سنى إلى الخامسة والثلاثين قررت أن أجازف وأقبل أى زوج ولو من خارج مصر من البلاد التى أسافر إليها منتفعة فى ذلك بالتذاكر التى تمنحنى إياها الشركة ووجدت هذا الزوج فى (كوبنهاجن) وكأنه كان ينتظرنى هناك وفى الزيارة التالية اتفقنا على كل شئ أن يأتى إلى مصر ونتزوج هنا ومن ثم نسافر لنحيا هناك فى الدنمارك

وعدت إلى مصر وأنا أشعر أن قدمى فى الأرض بينما رأسى فى السماء ونسيت ماضى وقلت أن اللعنات التى كانت تطاردنى قد تحولت إلى بركات وأن الله قد نظر إلى صبرى وسيعوضنى عن كل ما فاتنى وكل ماعانيتة من حرمان وانتظار وفرحت بالاكثر لأننى سأبتعد عن مصر بكل ما فيها من ذكريات مؤلمة .. وأهرب من ملاحقات التقاليد ونير الأفكار الراسخة فى أذهان الناس تجاه ظروفي .

وإشترك معى أفراد أسرتي فى تتويج فرحتى، ربما لشعورهم بطول تعبي وإنتظاري،أو لفرحتهم بسبب قرب تخففهم من عبئي عليهم،وسرحت بخيالي فى العالم الجديد الذى ينتظرني،وقلت وداعاً للحزن والكبت،وذهبت إلى (الشوينج سنتر) القى نظرة على ما قد أحتاجه.

فلما عدت إلى منزلي وجدت هناك رسالة تنتظرني ، أرسلها مجهول ، كانت الرسالة والتى كتبت بالإنجليزية تقول"..إحذري فإن الشاب المزمع ان يتخذك زوجة له،هو رجل متزوج وله ثلاثة أطفال تركهم مع زوجته فى (بون) منذ عامين متخلياً عنهم.."ويبدو ان التوقيع كان توقيع الزوجةنفسها !.

وصدمت وحاولت أن أبكي فلم أستطع ، وعرفوا فى منزلى فحوى الرسالة ، فانزعجوا هم أيضاً ، ولكنهم شجعونى وطلبوا إلي أن أشكر الله أن أمر هذا الشاب قد تكشف قبل الزواج .

وجلست متهالكة ..أفكر وأغوص فى الماضى،وأسترجع كل ما مر بى، وإسترحت،واعتبرت هذا بمثابة عتاب لي من الله،على نكثي للعهد الذى قطعته معه على نفسي،ليس عهد البتولية فحسب،وإنما ان أحيا له بكليتي .

وفى غمرة شعورى بالذنب ، أرسلت إلى الأم الرئيسة فى دير الراهبات الذى كنت فيه راهبة،أسألها إن كنت أستطيع العودة إلى الدير ومواصلة مسيرتى الرهبانية من جديد، وانتظرت طويلاً قبلما ردت على تعتذر لى فى لطف شديد عن عدم إمكانية ذلك،والأسباب كثيرة،غير أنها إقترحت على،إذا كنت قد غضضت الطرف عن فكرة الزواج،أنألتحق بأي عمل رعوى بأي كنيسة،مثل بيوت الأرامل والأيتام والمسنات .

وراقت لي الفكرة..على أهدا وأشعر بالراحة،ووافق أب إعترافي،فتركت عملى وتوجهت إلى احد الآباء الأساقفة أرسلنى إليه أب إعترافى،وتقدمت إليه مستعدة للقيام بأية خدمة،

على ان احصل على مكان هادىء أسكن فيه ، ورحب الأب الأسقف.

واشتركت فى خدمات كثيرة بين افتقاد الأيتام والأرامل والمسنات،إلى تنظيم رحلات للفتيات،غير أنه لم يكن يؤلمني سوي تلك الرحلات المتجهة إلى الأديرة .

أذكر ان إحدي الفتيات وكانت فى الحادية والعشرين من عمرها،سألتني عن رأيي فى ان تترهب،ووجدت نفسي آخذ نفساً عميقاً،وكأني اجتذب به العشرين عاماً الأخيرة بعد خروجي من الدير،وجمعت كل مافي من حب ومن مرارة ومن تجربة وخبرة ،وقلت لها:أن تترهبى..هذا حسن،وأما أن

تستمرى وتثبتى فى الطريق الرهبانى..فهذا احسن،ولكن أن تحفظى الأمانة إينما كنت فهذا هو كل شيء..".

وازدات الاسئلة التى توجه إلى سواء أكان ذلك فى الاجتماعات التى أقوم بالخدمة فيها، أم فى الافتقاد،وحوصرت جيداً..

إلى أن سألنى طفل بريء فى الثامنة من عمره:"هل أنت حقاً راهبة ؟ ولماذا لا تلبسين مثل الراهبات اللائى رأيتهن فى الدير ولماذا لا تعيشين معهن هناك ؟"

والحقيقة أننى استطعت بحيلة بسيطة،الإفلات منه وتحويل نظره واهتمامه إلى موضوع آخر،ولكني لم احتمل أكثر من ذلك ،فقد كان سؤاله هذا هو القشة التى قسمت ظهر البعير(كما يقولون) فعدت إلى منزلى سراً،وأغبقت بابا حجرتى علي، لا أخرج إلا نادراً،لا أقابل أحداً ولا اتحدث مع احد .

وها أنا جالسة..أجتر فى آلامى واحزانى..وبين الوقت والآخرأنظرإلىالوراء فتنتابنى إرتجافة ويهتصرالألم قلبى..واتساءل :

هل تسرعت فى الرهبنة..وهل كان لزاماً على أن أكمل حياتى فيها،مهما كانت النتائج؟

لست أعلم .. أنا متحيرة ..

الراهبة فى معسكر النازى

مقدمة

انتبه الشيطان فى بدايةالقرن الرابع،إلا أمرغايةفى الخطورة،فقد فوجيء بانه تسبب فى (تصدير) مئات الالاف من الشهداء،إلىالسماء،وذلك كنتيجة للأضطهاد الذى أثاره على الكنيسة،عبر ثلاث قرون!،وهى النتيجةالتى جاءت عكسية،لما كان يامله من الاضطهاد،وهو إجهاض المسيحية،والقضاء عليها فى مهدها .

ومن ثم فقد قام بإيقاف الإضطهاد!!،حين صدر مرسوم التسامح الدينى من قبل الملك قسطنطين فى سنة 313م،ومن هنا بدأت الكنيسة فى المعاناة من الشقاقات التى دبت بين أبناء الكنيسة الواحدة،فظهرت البدع والهرطقات وأطل آريوس وغيره برؤوسهم من الجحور! .

كانت الكنيسة أقوى ما كانت،عندما كانت دماء الشهداء ترويها،فقد كان كل رجل أو إمرأة تقبل على الاستشهاد،يترك رسالة هامة ذات طابع إسخاطى (أخروى) للمجتمع الذى كان الششهيد يحيا فيه .

وتكرر نفس ما حدث فى القرن الرابع،ولكن فى روسيا وفى بدايات هذا القرن العشرين،حين أثارالشيوعيون على المسيحين إضطهاداً عنيفاً،فأفرخت الكنيسة الروسية الأرثوذكسية،عدداً هائلاً من الشهداء،لكل منهم قصة إستشهاد،غاية فى التأثير والقوة من ناحية،والغرابة والعجب من ناحية أخرى،فقد كانوا يسخرون من الموت ويستهزءون بمضطهديهم،حتى الأطفال،أعطاهم الروح االقدس ، الشجاعة والقوة لإستعذاب الألم وتحدىالموت .

هذه قصة إستشهاد رائعة،لأم راهبة،تشرفت بنوال بركة الإستشهاد فى إحدى معسكرات الإعتقال بفرنسا فى عام 1945م .

الخليقة التى نشأت عليها الأم ماريا :

ولدت أليزابيث (هذا هو إسمها قبل الرهبنة) فى ديسمبر 1891م،من اسرة تمتلك مساحات كبيرة من الحقول والمزارع،فى وقت كان فيه عامة الشعب يرزحون تحت ثقل الفقر ،ويعانون من البؤس

والشقاء،محرومين من ضروريات الحياة،فقد كان أولئك الفلاحين يعملون فى مزارع الأغنياء،وكان الأخيرون يعاملونهم معاملة فيها كثير من الإزدراء والتحقير،فيهبونهم أقل الطعام واللباس فى حين أسكنوهم فى أكواخ حقيرة،إضافة إلى إرهاقهم بما لا طاقة لهم به فى العمل،وعنج أقل خطأ كان ينتظرهم عقاب قاسى .

فى ظل هذه الظروف السيئة من قهر وجوع وبرد لقى عشرات الألوف الموت فى كل عام ،بينما الأغنياء يحيون بطريقة مبالغ فيها[1] ،أثارت حقد عامة الشعب،فأحسوا بالقهر والقسر، مما دفع الكثير منهم إلى التفكير الدائب فى الثورة،للإحاطة بالقيصروحاشيته،فى حين عمل البوليس السرى من جهته على مطاردتهم وقتل المئات منهم ونفى عشراتاالألوف إلى سيبريا

وأما اليزابيث،والتى كانت قد تربت تربية مسيحية فى الكنيسة الروسية الأرثوذكسية، وبالرغم من ثراء عائلتها،فقد كانت متعاطفة مع الفقراء الذين حولها،وحاولت أن يكون لها دور بناء وإيجابى،بما يتناسب مع طبيعتها وإمكانياتها،مثل العطف عليهم،بأن تهبهم بعضاً من طعامها وملابسها،وكانت برقتها تشيع الأمل والرجاء فيمن حولها .

إن مجرد الرغبة فى عمل المحبة،امر يسر قلب الله،حتى القليل الذى نقدمه يستسمنه الله ، شريطة أن يكون قد م بفرح.وقدم من الأعواز،لا من البقايا .

تلقت أليزابيث تعليمها الأساسي في منزلها،شانها في ذلك شأن الأغنياء في زمانها، الذين كانوا يجلبون المدرسين إلى منازلهم لتعليمهم،وفى سن الثامنة عشر إتجهت إلى جامعة القديس بيتر سبرج Petersburg،حيث تقابلت هناك مع بعض الطلبة الذين يخططون للثورة

1-كان القيصر مثلاً ، فى شم النسيم يهدى أولاده البيض المصنوع من الذهب والمرصع بالأحجار الكريمة ، والمحشو باللعب الفضية الصغيرة ، وكانت الأسرة المالكة تسكن فى أعظم خمس قصور فى روسيا ، حيث يحتوى كل قصر منها على أكثر من ألف غرفة .

الثورة الإشتراكية :

ريما تكون أليزابيث قد ساورها الفكر فى الإنضمام إليهم،غير أنها فكرت بطريقة عملية، تناسب طبيعتها فقد اتجهت إلى تعليم الأميين من الفقراء وذلك فى فصول مسائية،حيث لجأ إليها الفقراء والفلاحون ننذاك فى بعض المصانع خارج المدينة .

كذلك فقد قامت أليزابيث بنظم بعض القصائد الشعرية،تطمئن بها الفقراء والمتألمين من شعبها،وقد أتاح لها تعرفها ببعض كتاب وشعراء عصرها،بتنمية هذه الموهبة فصدر لها كتابان.

فى سنة 1917 م قام الفلاحون والعمال الروسيون ، بقيادة لينين ونروسكاي **lenin and trotsky** ، بالإنقلاب الذي أطاح بالقيصر وحُكم القياصرة في البلاد، ومن ثم بدأت الثورة الإشتراكية الشهيرة، وفي البداية شعر الناس..كرد فعل أولّي للثورة – بالحرية ولكن قليلاً قليلاً اكتشف الجميع أن الوضع مازال كما كان من قبل،من حيث الفقر والعري والقحط والقهر، مما دل علي وجود خطأ ما! فقد استُبدل الحكام المستبدون بآخرين أكثر استبداداً،ومن ثم فقد مات الآلاف من الجوع، وقبض علي عشرات الألوف، وكان مصيرهم القتل والنفي.

هذه هي الظروف التي ولدت فيها الأم ماريا (أليزابيث) وعاشت فيها سني شبابها،وبدوأنها أحست أكثر بتفاهة العالم وأنه لا شيء ثابت فيه ولا أحد، ولكن الحقيقة الواحدة الوحيدة الثابتة وغير القابلة للتغيّر أو التطور،هي الله (الحق = الحقيقة) ولذلك فقد آثرت أن تربط مصيرها به لتضمن أبديتها وسعادتها.

رهبنتها :

تركت أليزابيث روسيا, واتجهت إلي باريس حيث تعرفت في الكنيسة هناك، إلي بعض الفتيات اللائي عزفن عن الزواج وآثرن البتولية، ومن ثم فقد قامت أليزابيث بالاشتراك معهن، في تأسيس جماعة رهبانية صغيرة أسمينها "**Religious order**" (الرهبنة الأخوية) حيث عشن حياة بسيطة، وعملن علي كسب قوتهم من العمل اليدوي، علي أن يقضين بقية الوقت في الصلاة والتأمل، وأن يقمن

بمساعدة الآخرين، وذلك بقدر ما تسمح به طبيعتهن وإمكانياتهن، وبحسب التقليد السائد فقد أستبدل اسمها إلي الراهبة ماريا "Mother Maria" كان ذلك في سنة 1932م (1) .

ومنذ ذلك الحين، وقد انحصر اهتمامها في محبة الفقراء، فكات تتردد علي أماكن سكناهم في باريس فعملت علي عيادة مرضاهم، وإعانة المحتاجين، بقدر ما تسمح به ذات يدها، من ثم صارت الشخصية الخادمة الباذلة في صمت وحب وفرح، الفلاحين الفقراء عبروا عن ذلك كثيراً بقولهم (أننا أبداً لن ننساها).

أما عن حياتها الشخصية، فقد اكتفت بالثياب السوداء الرثة، وحول رأسها إرتدت الشال البسيط حسب عادتهن، وكانت تلبس حذاء من النوع الرجالي، المتهرئ، ولكنها كانت سعيدة بحياتها، يمتلئ قلبها بالشكر والرضي.

ولم يكن لديها الكثير لتقدمه للفقراء، ولكنها أعطتهم محبتها ولطفها وكلماتها الرقيقة المشجعة، وعندما تيسرت لها بعض الأموال القليلة من بعض الغيورين، قامت علي الفور بإنشاء مستشفي صغير لتعول فيه المرضي والأيتام، يساعدها في ذلك بعض الأمهات الأخريات، وبالرغم من التعب والمجهود المضني الذي كانت تبذله، كانت سعيدة بأن ترسم البهجة علي وجوه الآخرين، هي عبرت عن ذلك بقولها (فرحتي وقمة سعادتي هي راحة وسعادة الآخرين)(2).

---

(1)بالطبع لم تلحق أليزابيث بأحد أديرة الكاثوليك ولكنها عاشت مع بعض الفتيات الأرثوذكسيات حياة رهبانية داخل إطار خاص بهن.

(2) هناك نوعان من الرهبنة، إحداها الرهبنة العابدة، والتي يلتزم فيها الراهب قلايته حيث يتحدد دوره تجاه العالم، في الصلاة لأجله، والثانية الرهبنة الخادمة وهي التي يضطلع فيها الراهب بالقيام ببعض الأعمال التطوعية مثل التدريس وخدمة المرضي ورعاية المحتاجين، ويغلب هذا الاتجاه علي معظم رهبنات الغرب.

حب بلا حدود :

عندما سقطت فرنسا في يد النازيين بعد نشوب الحرب العالمية الثانية سنة 1940م، تعرض اليهود الذين فيها للإضطهاد العنيف، وتهدّدهم خطر الفناء الشامل، ومن ثم رأت الأم ماريا في ذلك فرصة لمساعدتهم بشتي الطرق المتاحة. فإن المحبة المسيحية لا تعرف حدوداً ولا تفرق بين شخص وآخر، فالمحتاج والمريض هو إنسان وحسب، بغض النظر عن جنسيته ومعتقده، إنه رمز البشرية المعذبة المحتاجة.

فالله يعطي الكل بسخاء، فإنه يشرق شمسه علي الأشرار والصالحين ويمطر علي الأبرار والظالمين (مت 5: 45)، حتي أولئك الذين ينكرون وجوده، فعطية الله قائمة علي أساس تحننه لا علي أساس تحننه لا علي أساس احتياج الإنسان أو إستحقاقه أو طلبه !!!.

اضطهاد اليهود :

اعتقد هتلر ومعه القادة النازيين Hetler and Nazins، أن الشعب الألماني هو شعب متميز وسيد لكل الشعوب، فقالوا أنهم مخلوقون لحكم العالم لآلاف السنين، وأنهم سيدمرون أولاً كل من يقف في طريقهم ثم يحكمون مثل الآلهة، ومن ثم اعتبروا أن بقية الناس من الأجناس الأخري، يجب أن يكونوا عبيداً لهم، بل اعتبروهم جماعة من الفئران، ويتضمن هذا كل المعوقين جسدياً وذهنياً، والمجانين ذوي الأمراض المستعصية، وأكثر من كل هؤلاء وأولئك اليهود، كأنهم أعداء العالم، فبنوا لهم المعتقلات في كل أنحاء أوربا، وطاردوهم في كل مكان وزجوا بهم في السجون وحظائر المواشي دون طعام أو ماء، وفي النهاية كانوا يساقون إلي الموت بطرق وحشية، رغبة منهم في إفناء اليهود من العالم، أطلقوا علي هذه السياسة (الحل النهائي لمشكلة اليهود).

إن بشاعة المعتقلات كانت أشبه بالأساطير، من فرط ما كان يجري فيها من ممارسات يأباها الدين والعقل، فقد مات ملايين من الأطفال والنساء المسجونين، بسبب الجوع والبرد والتعذيب البشع عن طريق الجلد أو التعرض للتمزق بين أنياب الكلاب البوليسية المتوحشة والمدربة علي القتل، آخرون ماتوا شنقاً

وآخرون ماتوا رمياً بالرصاص، وبالغاز السام في عنابر الموت فالنهاية واحدة لكل الجثث وهي الحرق في أفران كبيرة مجهزة لذلك.

حوالي ستة ملايين ماتوا في تلك الأفران، وملايين آخرين من جنسيات أخري، قتلوا لمجرد الاشتباه في ذلك ! أو لمخالفتهم لأوامر الفوهرر هتلر.

القبض علي الأم ماريا :

هذه هي الظروف التي دفعت الأم ماريا، بأن تغامر بمساعدة اليهود المساكين، فحين أعلنت السلطات النازية مطاردة اليهود في باريس، قررت أن تجعل من المستشفي الصغير الذي أنشأته، ملجأ لأولئك المطاردين، وحاولت أن تجعل هذا العمل في غاية السرية، ولكن عدو الخير أهاج عليهم المضطهدين، ففي ظل التضييق الشديد للسلطات النازية، والنشاط غير العادي للمخابرات الألمانية، فيما يسمي بفريق الجستابو المخيف The dreaded Gestapo، تعرضت للخطر.

فإنكشف أمر المخبأ (المستشفي) الذي إلتجأ إليه أعداد غفيرة من اليهود البائسين، فتم القبض علي كل من فيه وعلي رأسهم الأم ماريا، حيث أرسلت فوراً إلي معسكر الإعتقال المسمي رافنز براك– Ravens bruck، وذلك دون محاكمة، وبالتالي فقد حرمت من الحق الشرعي في التعبير عن الرأي والدفاع عن النفس (1)، وكان ذلك المعسكر من أسوأ المتعقلات الموجودة في ذلك الوقت. الحياة في معسكر رافنز براك Ravensbruck

الإحساس العام الذي ينتاب كل من يدخل هذا المعسكر، هو الموت الرابض في أركانه وأروقته، متربص بنزلائه، بحد أقصي شهرين أو ثلاثة علي قيد الحياة في المعسكر، كان المعسكر محاطاً بسياج

---

(1) الدولة التي يهان فيها الحق، مالها إلي الفشل والتخلف (المترجم).

مزدوج من السلك الشائك، تقوم علي حراسته كلاب بوليسية وحشية مدربة علي القتل، وبين مئة متر وأخري أقيم برج للحراسة والمراقبة، محاط بمدافع ورشاشات، لكي يصبح حتي مجرد التفكير في الهرب أمر مستبعد بل مستحيل.

أما طعام النزلاء فقد كان قليل من الشوربة (المائعة) مع كسرة صغيرة من الخبز (في الغالب كانت عفنة) وفي مقابل ذلك كان يُلزم

المعتقلين, بالعمل لساعات طويلة فى المناجم المظلمة, منذ الصباح الباكر و حتى مغيب الشمس, و مع استمرار هذا المجهود لعدة اسابيع, كان اكثرهم يسقطون موتى بسبب الإعياء الشديد. والبعض الآخر كان يعمل فى قطع الأشجار من الغابات, ليمدوا حراسهم بوقود التدفئة!!

غير أن أصعب الأعمال و أبشعها هى حفر خنادق كبيرة فى الجبال بعمق واتساع كبيرين, حتى إذا إنتهوا من حفرها, يتم تكديسها بآلاف من المعتقلين الآخرين, دون تفريق فى ذلك بين أطفال رضع فى أحضان أمهاتهم أو شيوخ, حيث يجبرونهم على القفز داخل الخندق, ليقوم فريق آخر من المعتقلين المساكين بردم الخندق عليهم ليموتوا أحياء(1) وكان إختيار المحكوم عليهم يتم بطريقة عشوائية.

وهكذا كان الحال بالنسبة للذين حكم هليهم بالموت خنقاً بالغاز السام، ففي الصباح ينادى الحراس على بعض الأسماء، ويوهمونهم بانهم ماضون إلى الحمام للإغتسال (حيث يظن المعتقلون البؤساء أنه نوع من الترفيه أو التخفيف بسبب حرمانهم من الإستحمام لشهور طويلة) ولكنهم كانوا يروعون عندما يكتشفون بأن تلك الحمامات، ما هى إلا غرف إعدام بالغاز السام، فعندما تمتلئ الحجرة (العنبر) عن آخرها، يتم إغلاقها بإحكام ومن ثم يطلقون فيها ذلك الغاز الرهيب فيلقون حتفهم فى دقائق معدودات. وبعد ذلك تحرق الجثث في افران كبيرة، وبسبب إستمرار إحراق الجثث كانت هناك غمامة كثيفة سوداء تغطي سماء المعسكر. هذا هو المكان الذى أرسلت إليه الأم ماريا.

---

(1) فى أغلب الأحوال كان المتعلقون الذين يقومون بردم الخندق يؤمرون بحفر غيره ومن ثم يلقون ذات المصير،مما كان يشكل عبئاً نفسياً لا طاقة لأحد بإحتماله،المترجم.

شهادتها للمسيح داخل معسكر الإعتقال:

عملت الأم ماريا مع المعتقلين, وعانت معهم وحاولت التخفيف عنهم, ولتعطيهم مثالاً صادقاً فى الصبر على الضيقات فى شكر, محاولة بث روح الرجاء فيهم, وجذب انظارهم إلى الأبدية.

كانت لديها القدرة على أن تحيا فى فرح, وتشيع جواً من البهجة عى المعتقل, حتى الحراس العتاة الذين خلت قلوبهم من أى شفقة, أحبتهم وصادقتهم, كما أحبت اليهود و صادقتهم حتى قادتها محبتها لهم إلى ذلك

المكان الموحش فى إنظار الموت, ومن ناحيتهم فإن الحراس أنفسهم أحبوها وأجلوها رغم وحشيتهم, بقدر استطاعتهم كانوا يحاولون مساعدتها, فقد كانوا يعطونها نصيباً أوفر من الطعام, بالرغم من مخالفة ذلك للوائح وقتئذ, وهي بدورها كانت تقاسم المعتقلين في ذلك الطعام, كذلك فقد عاونها الحراس إلى حدود ما, فى الإختلاء للصلاة بمفردها.

وعن محبتها للحراس تقول الأم ماريا (يسوع المسيح أحبنى بلا حدود فمات من أجلى, أفما يليق بي أن أعيش له).

أما الحراس أنفسهم فقد عبروا عن تأثرهم بها فى قول أحدهم (كانت معروفة لنا بالأم الراهبة الروسية الرائعة, ولم نكن نريد لها أن تموت, إن موتها كان خطأ منا, نحن آسفون عليه).

مرت سنوات والأم ماريا, تزداد روحها ابتهاجاً, فى حين يعجز جسدها الهزيل ويذبل أكثر, حتى صارت أشبه بهيكل عظمى تستره ملابس بالية, ويوخزه الكثير من القروح, في الوقت الذي عيه كانت استشهادها:

أسنانها آحذة في التساقط, إذا لم يكن لها حذاء يقيها من البرد, فقد لفت قدميها فى قطعتين من الخيش.

أحد المعتقلون الذين نجوا من الموت, يقول عنها (كانت قديسة,الجلوس معها كان عبارة عن جلوس مع الرب يسوع, هذا ما يجب على كل مسيحى أن يعمله).

هناك ثلاثة دوافع رئيسية, توفرت فى كل شخص مقدم على الاستشهاد, وبدون أحدها, لم يكن أحد ليستطيع الإقدام بفرح وشجاعة وسلام على الموت فى شتى صوره وما يرافقه من آلام رهيبة تفوق الوصف والاحتمال في اكثر الأحوال:

1- ألا يكون مغلوباً من شهوة ما.

2-ألا يكون مرتبطاً بأحد ما أو شئ ما (أكثر من الله أو بدلاً من الله).

3-أن تكون عينه مفتوحة على الأبدية (مترقباً لها).

وهذا يفسر لنا فى بساطة كيف أقدمت الأم ماريا على الإستشهاد على النحو الذى سنورده.

فقد حدث ذات صباح, وبينما كان بعض النسوة والفتيات يتهيأن ذلك الحمام الرهيب, حمام الموت, الذى كان يبدو من الخارج مثل الحمامات العامة, حتى لا يشعر المساقون إلى حتفهم فيه, بالحظ فتحدث منهم بلبلة ويتعطل عمل الحراس!

في ذلك الصباح سرت إشاعة سريعة بين المعتقلات بأن هناك خطر ما ينتظرهن..فى ذلك الحمام المزعوم, ومن ثم فقد أخذت صبية صغيرة فى الصراخ والتشنج, ثم البكاء الهيستيرى, مما كان يهدد بإشاعة جو من الفوضى وإفزاع بقية السجينات اللائى كن فى العادة يدخلن فى هدوء إلى حمام الموت, حيث يفاجئن فقط هناك بشبح الموت عقب إغلاق الأبواب وبدء تسرب الغاز السام.

ولكن إثنين من الحراس إنقضا كالوحوش الكاسرة نحوها, إلا أن الأم ماريا, كانت أسرع حين قامت بإحتضان الصبية وبدأت فى تهدئتها وملاطفتها.

غير أن العمل على تهدئة السجينة (لا سيما إذا كانت حديثة السن) مقبلة على عقوبة إضافية, أو إعدام, لهو أمر غاية فى الصعبة, وإن كانت مثل هذه المحاولات تحدث دائماً, ولكن المفاجأة الرائعة وغير المتوقعة, هى تلك التى أعلنتها الأم ماريا للصبية: (لا تخافى..أنا سآتى إلى الداخل معك..), قالتها بصوت يشبه خرير المياه الكثيرة, مجسدة بها حب الفادى للبشر مستعدة بها لبذل حياتها..

وبالفعل, فقد دخلت معها إلى ذلك الحمام, وهناك إحتضنتها بقوة, وعندما أغلق الحراس الأبواب بإحكام

من الخارج وبدأ الغاز السام فى التسرب كانتا قد صارتا جسداً واحداً, واستشهدتا معاً والحراس الذين أغلقوا الأبواب شهدوا كيف كان يكسو وجهها بهجة وسعادة غامرة وهى فى مواجهة الموت.

البعض قالوا أنها ماتت بدلاً من تلك الفتاة, وهو أمر كان مسموحاً به فى أغلب المعسكرات النازية, ولا سيما إذا كان المطلوب هو التخلص من عدد معين من المعتقلين, بغض النظر عن الشخصيات(2), ولكن سواء كانت ماتت عنها, أو ماتت معها, فالأمر سيان, فالمهم أن حياتها لم تكن ثمينة عندها وأنها قدمت حياتها وقابلت الموت بفرح وشجاعة.

ولم تمضى سوى أيام وانتهت الحرب العالمية بهزيمة النازى بعد أن قبلت السماء ذبيحة الراهبة..وحياتها..

دير البراموس

2-مثلما حدث مع الأب ألكسندر الذى مات بدلاً من شخص آخر (فى غضون الأضطهاد النازى),وكان ذلك الشخص ما يزال حياً إلى وقت قريب(المترجم).

راهبات دير شاموردينوShamordino

في سجن سولوفكيSolovki

وهذه قصة أخرى لبعض من الراهبات , قبض عليهن الشيوعيون وزجوا بهن في إحدى معسكرات التعذيب , حيث كان يتحتم عليهن الاشتراك في أعمال شاقة لا تتناسب مع إمكانياتهن وطبيعتهن .. وقد استطعن أن يشهدن للمسيح هناك ولم يرضخن ، رغم ما تعرضن له من آلام وضيق

ففي صيف سنة 1929 م أحضر إلى سلوفاكيا ، ثلاثون من الراهبات ، ينتمي أغلبهن إلى دير شاموردينو ، ولم يسمح المسئولون في المعسكر ، بأن ينزلن في سجن النساء ، ولكنهم وضعوهن في سجن منفرد.

ولما راح الحراس يطابقون بياناتهن على ما هو مدرج بقائمة الاعتقال التي جئن بها ، رفضت الراهبات الإدلاء بالبيانات الخاصة بهن ، مثل بيانات عائلاتهن و أعمارهم وأماكن سكناهم ، وبعد صراع مع الحراس وتهديد وضرب ، تم عزل كل منهن في مكان منفرد ، حيث تعرضن للجوع والعطش.

ولكن الراهبات لم يتأثرن ، إنما على العكس من ذلك كن على قدر كافٍ من الشجاعة ، إذ رفضن العمل بالسخرة (أعمال التسخير. (

وبعد أيام وصل أحد الأطباء (هو الدكتور زيزيلنكوDr. Zhizhlenko طبيب سجن تاجانكا Tagankaفي موسكو ، قبل الرهبنة سراً ، بل أصبح فيما بعد أسقفاً باسم مكسيم) إلى المعسكر قادماً من سجن تاجانكا حيث يعمل هناك ، يصحبه طبيب آخر (هو طبيب قبل المسيح سراً وكان يعمل في المعسكر) يعمل في نفس معسكر

سلوفاكيا ، حيث أمرهما القادة هناك بتوقيع الكشف الطبي على الراهبات ، لمعرفة مدى قدرتهن على العمل بالسخرة .

وقد قدم الطبيبان تقريراً يفيد بأنه لا قدرة للراهبات على العمل في مثل تلك الأعمال الصعبة ، وهكذا وجدت الجهات الإدارية نفسها (ولأول مرة) في حرج شديد ، لأن التصرف المعتاد مع أولئك

الذين يرفضون العمل بالسخرة هو التعرض للتعذيب ، ربما حتى الموت ، إذ كان المتمردون يرسلون للنفي إلى جزيرة أنزرسك ، التي لم يعد منها أحد حياً أبداً !

ومما يثير العجب أن أولئك الراهبات لم يرسلن إلى هناك ، وعندما وجّه الطبيبان المذكوران هذا السؤال إلى مدير القطاع الطبي في المعسكر أمرهم الالتزام بالصمت (يبدو أنه كان مسيحياً في السر ، وهو الذي أوحى إلى الطبيبين بإعفاء الراهبات من العمل بالسخرة .) .

حين دخل الطبيبان إلى المعسكر حيث توجد الراهبات ، شد انتباههما الرصانة غير العادية للراهبات و سلامهن وتماسكهن ، وهن في ملابسهن الرهبانية البالية و المرقعة والنظيفة ! ، كان هناك حوالي ثلاثين منهن ، ويمكن تقدير عمر كل منهن بحوالي الثلاثين ، كانت وجوههن ملائكية ، فرح في الحزن ، حتى حزنهن كان حزناً مجيداً !! ، أما اتضاعهن فقد كان يشف جمالاً روحياً يستثير الشعور بالندم العميق (على أسرهن) والإجلال لهن .

يقول الدكتور المكلف بالمسئولية الطبية عنهن في المعسكر :

أن الطبيب المكلف و المنتدب من قبل القطاع الطبي في المعسكر والذي كان يرافقهن طلب أن يخرج لكي لا يسبب لهن أي مضايقة ، وبقيت أنا وحدي معهن .

– يوم سعيد يا ماتوشكي Matushki قلت هذا وانحنيت أمامهن .

وفي هدوء أجبنني بإنحناء أكثر حتى الوسط .

– أنا طبيب ، أرسلت لأفحصكن .

(أصوات كثيرة قاطعتني) .

– نحن بخير ولسنا في حاجة لكي تفحصنا .

– أنا مؤمن ، مسيحي أرثوذكسي ، وأنا هنا في المعسكر كسجين بسبب انتمائي للكنيسة .

(فقلن معاً) :

– المجد لله .

ثم أردفت قائلاً : أنني أفهم سبب إضرابكن عن العمل ، وأنني سوف أصنفكن ضمن فئة غير القادرين على العمل ، وإلا فإن إدارة المعسكر سوف ترسلكن إلى عمل أصعب ، ولكنهن أفهمنني أنهن لن يعملن ، سواء أكان العمل سهلاً أم صعباً ، فسألتهن في دهشة :

– لماذا ؟

– لأننا لا نريد أن نعمل لنظام ضد المسيح .

فسألتهن – وأنا مضرب – عن السبب في ذلك ، ثم أفهمتهن أنه في سولوفكي هنا ، كثير من الأساقفة و الكهنة وكل منهم يعمل على قدر قوته ، وعلى سبيل المثال فإن أسقف (فياتكا Vyatka) يعمل كعامل مكتبة في مصنع للحبال ، وفي قسم الفضلات يقوم كثير من الكهنة بالعمل في نسج الشباك ، وفي أيام الجمع كانوا يعملون 24 ساعة لينتهوا من حصتهم ، حتى يتسنى لهم الاستفادة بليلة السبت و يوم الأحد في الصلاة والتسبيح ، ولكن الراهبات مع ذلك ردَدْن بأنهن لن يعملن لنظام ضد المسيح، فهدأت من روعهن قائلاً أنني وبدون فحص سوف أصنفهن ضمن غير القادرات على العمل البدني الشاق ، فقلن :

سامحنا .. لا .. نحن في غير احتياج إلى مثل هذا التقرير ، فإننا سوف نقول للمسئولين أن التقرير غير سليم و أننا قادرات على العمل ولكننا لا نريد ، لأن هذا العمل هو لنظام ضد المسيح وأننا لن نعمل ولو إضطررنا إلى تقبّل الومت .

إنهم لن يقتلوكن ولكنهم سوف يعذبونكن حتى الموت (قلت هذا في همس وبوجع قلب ، لأن الخطر فوق الرؤوس) .

فقالت واحدة من الراهبات الله سوف يساعدنا على تحمل العذاب أيضاً وعند ذلك طفرت الدموع من عيني وإنحنيت أمامهن في هدوء ، بل إني أردت أن أنحني لهن إلى الأرض وأقبل أقدامهن .

في خلال أسبوع من ذلك الوقت ، دخل المسئول عن القسم الصحي ، إلى مكتب الأطباء ، وأثناء حديثه معنا ألمح إلينا أنهم قد تعبوا مع هؤلاء الراهبات ، وإنهم اتفقوا معهن أخيراً على العمل في الحياكة

والترقيع ، للسجن الرئيسي ، ولكن تحت شروط (وضعتها الراهبات) أن يكن مع بعضهن البعض، وأن يسمح لهن بالترتيل أثناء العمل (وقد وافق قائد المعسكر بالفعل على طلبهن)

وقد عشن في عزلة عن الجميع حسب رغبتهن ، حتى عنا نحن الأطباء ، الذين لهم حرية التنقل وعمل صداقات كثيرة بحكم عملنا الإنساني ، فقد ظللنا فترة طويلة لا نعرف عنهن شيئاً ولم يحتجن أي معونة طبية منا .

غير أنه قد تيسر لنا معرفة الفصل الأخير من مأساتهن !! ففي إحدى القوافل من الأسرى الآتين إلي سلوفكي ، جاء كاهن ، أصبح الأب الروحي لبعضهن ، وبالرغم من صعوبة الاتصال بين الكاهن و الراهبات ، طبقاً لظروف وقوانين المعسكر ، إلا أن الراهبات إستطعن بطريقة ما الاتصال به لطلب الإرشاد والمعونة .

كان تساؤلاتهن منحصرة في الآتي (ها قد أتين إلى المعسكر لنعاني ، وها نحن نعمل في هدوء ونرتل معاً ونصلي ونشعر بالمتعة والفرح ، ولكن ترى هل أصبنا في قبول العمل لغير حساب المسيح ؟ أم يجب علينا أن نعتزل مثل هذا العمل أيضاً ؟) .

أما الأب الروحي ، فقد أوحى إليهن بأنه من اللائق الامتناع عن العمل ، وهكذا فقد تركن العمل بشجاعة وهدوء ، ولما بحثت إدارة المعسكر عن السبب في هذا التغيير الطارئ ، توصلت إلى حقيقة ما حدث ، ومن ثم فقد أطلقوا النار على الكاهن فمات شهيداً للمسيح ، وعندئذ صرّحت الراهبات بأنه ما من أحد الآن يستطيع أن يعفينا من قرار الإمتناع عن العمل .

أما إدارة المعسكر والتي مارست في الحقيقة الكثير من الصبر وضبط النفس تجاه هاته الراهبات ، فقد قامت بعزلهن الواحدة عن الأخري و عبثاً حاول البعض تتبع أخبارهن فقد اختفينا دون اثر ولكن بعد سنوات استطعنا ان نستقي بعض المعلومات عن نهاية حياتهم عن طريق سجين أمريكي في معسكر آخر حيث ألقي لنا بعض الضوء علي أخبار بعضهن

اللالىء الثلاثة

(معجزة راهبات شاموردينو shamordino)

روى السجين الامريكى– وكان الحديث قد تحول بين الجلوس الى أمور الدين – فقال سمعت عن حديث عجيب يقولون عنة معجزة ! دثت لتوها فى فركوتا, رواها لى بعض الجنود بلهفة وعجب شديدين أثبتا بلا شك أنة حتى الستار الحديدى لم يقدر أن يبعد الله عن البلاد وعن عقول وقلوب الشعب.

ففى شهر نوفمبر من عام **1950** م أى بعد وصولنا الى المعسكر بأيام, وصلت ثلاث راهبات محكوم عليهم بالأشغال الشاقه , جدير بالذكر ان الاف السجينات اللائى فى فركوتا , لم يعملن فى المناجم ولكن كى يعملن الاعمال البسيطة , وأما الراهبات فقد أسند اليهم العمل فى ورشة تصنيع الطوب المستخدم فى أعمال الانشائات فى كل القطب الشمالى التابع لروسيا.

ولكن الراهبات الثلاث رفضن العمل , وقلن للمشرف على المصنع أنهن يعتبرن العمل للنظام الشيوعى عمل للشيطان , فى حين أنهن خادمات للمسيح ولذلك فلن يعملن , برغم أى تهديد أو عقاب فبعد أن تم تجريدهن من زى الرهبنة أصب سلاحهن هو الايمان وحدة وأصبن مستعدات لمواجهة أى شيئ للمحافظة على نذرهن.

كان العقاب أن يأكلن كسرة خبز وشوربة فاسدة , وقد أستمر هذا العقاب لعدة أيام , ومع أستمرارهن فى رفض العمل , كان بنتظرهن عقاب أشد , فقد أشتد غضب القائد , بسبب طول عنادهن , حيث خشى من تأثير ذلك على بقية السجينات وعلية فقد أمر بأن توضع كل منهن فى سترة من الخيش , وعلى أن تقيد أيديهن الى الخلف وكذلك أقدامهن , ثم قام الحراس بشد اليدين الى القدمين بقسوة , حتى أصبت أرجلهن مرفوعة للخلف و أكتافهن مرفوعة ومشدودة للخلف أيضا , فى وضع مؤلم للغاية.

تألمت الراهبات جدا ولكن فى صمت يث لم يخرج منهن أية كلمة تذمر أو احتجاج ولكن القائد قد زاد غيظة إبان هذا الاتمال الصامت فعمل على زيادة المهن , فقد أمر أن يصب الماء عليهن تى أنكمش الخيش فأزداد المهن جدا تى أغمى عليهن فنمن فى هدوء , بعد ذلك تم حل القيود , فلما تنبهن تم تقييدهن ثانية وفى هذة المرة أغمى عليهن , وكان ذلك بركة من الله حتى لا يشعرن بالالم وقد ظللن

لمدة ساعتين هكذا حتى كادت الدورة الدموية أن تتوقف عند أطرافهم من شدة القيود ولما كدن يسلمن الروح , تم ل قيودهن.

ولكن النظام الشيوعى اراد عبيدا للعمل , لا هياكل عظمية فقد تم نقلهن كل هذة المسافة الى فركوتا ليبحثن عن الفحم فى المناجم , لا ليقتلن هناك , فى حالة واحدة كان يتم التخلص من السجينات , ذلك عندما يقل انتاجهن , ومن هنا فقد أراد القائد أن يعذبهن حتى يعملن وأخيرا قرر القائد قتلهن , إن هن أصررن على عدم العمل , فقد أسند لهن عمل ما فى العراء , ولكن الراهبات رفضن ذلك أيضا , ومن ثم فقد أخذ الى نتوء على جبل جليدى , حيث تركن هناك مقيدات فى الجو القطبى القارص طوال اليوم.

وعند غروب الشمس شوهدن راكعات , فذهب الحراس متوقعين أن يجدوهن متجمدات ولكن يا لدهشتهم اذ وجدوهن سالمات يصلين راكعات.

بعد ذلك أمر القائد أن يؤخذ منهم القفازات والقبعات , على أن يتركن لمدة يوم أخر فى العراء , وقد قضت الراهبات ذلك اليوم أيضا راكعات يصلين فى هدوء ودفء مع أن السجينات اللائى يعملن فى المعسكر يشتكين من شدة البرد , وقد توقع الحراس تجمد الراهبات , لكنهم أندهشوا عندما أكتشفوا أنهن سالمات تماما وتكرر ذلك لمدة يومين فى درجات حرارة تحت الصفر بكثير , وفى اليوم الثالث أخذوا منهن الوشاحات ومع ذلك عدن سالمات أيضا.

عندئذ تأكد الجميع أن الله قد صنع معجزة مع الراهبات الثلاثة , فقد ذاع صيتهن فى جميع المعسكرات وكان لا حديث للناس سوى الراهبات الثلاثة , حتى الحراس المتشددين من معسكرات أخرى كانوا يأتون الى المنطقى الواقع بها مصنع الطوب لكى يشاهدوا الراهبات ويتباركوا منهن بالقرب من جبل الثلج.

من هنا بدأت بقية السجينات , فى الصلاة ورشم علامة الصليب قبل البدء فى العمل أقتداء بالراهبات الثلاث , وقد أدرك القائد بعد ذلك ومعة بقية الحراس أنة هناك قوة ليست أرضية تحمى الراهبات وتافظ عليهن لذلك تم رفع العقوبات عنهن , وتركوهن للصلاة والعبادة فقط , وكان يحضرن لأنفسهم الطعام وكذلك الملابس , ومع أنهن كن سجينات كانت لهن رية العبادة ولا أحد فى الاتحاد السوفييتى فى ذلك الوقت , وعندما تركت فركوتا بعدها بأربع سنوات (يقول الطبيب الذى روى المعجزة) كانت الراهبات

مازلن فى المعسكر , دون أن يعملن ليوم واحد فى مصنع الطوب , وقد بذلن الكثير من الجهد فى تثبيت الايمان فى قلوب وعقول الالاف من المساجين والحراس.

يقول الطبيب لنفسة , بعد ذلك بسنوات , عندما كانت تتاح لى الفرصة للتحدث مع الشيوعيين الاكثر تشددا عن أمور الدين , كلهم بدون إستثناء ذكروا معجزة الراهبات الثلاثة.

فكرة

بعد أن قضى ساعات هائما شاردا .... تقدم بخطوات بطيئة نو أبة ثم قال فى توسل:

– بابا

قال أبوة وهو لا يزال يدفن رأسة فى الجريدة :

– نعم حبيبى

فشد الطفل الذى لم يتجاوز السادسة – الجريدة من يد أبية والقاها جانبا , فأخذة أبوة بين ذراعية وطبع قبلة حانية على جبهتة ثم كرر قائلا:

– نعم حبيبى

– أريد أن أكون راهبا

أجاب الاب بغير أكتراث:

– عندما تكبر يمكنك ذلك

– انا كبير

– عندما تكبر أكثر وتصبح طبيبا أو مهندسا يمكنك عندئذ أن تكون راهبا

– أكبر هناك

– كل الرهبان كبروا هنا أولا ثم ذهبوا الى الدير

ضرب قدمة فى الارض فى عناد قائلا:

– (ماليش دعوة)

وشعر الأب بإبنه جاداً في رغبته فاستهوته المواصلة فقال:

- ألا تحب أن تكون مهندساً ؟

- أحب أن أكون راهباً

- هل رأيت الأب تكلا ونحن في الدير اليوم ؟

هز رأسه إلى أسفل بالإيجاب

- كان طبيباً

- ولكنه يصنع الخبز في الدير..أعطى كلينا أنا ومايكل خبزتين.

- في الدير لا يقبلون الصغار

- لماذا ؟

تمتمت الأم الجالسة عن بعد، في سرور وراحت تتابع باهتمام صامتة ، وإستطرد الأب قائلاً:

- في الدير سوف يقصون لك شعرك

- سوف أغطي رأسي .. كلهم مغطون رؤوسهم

- وفي الدير لن تستطيع أن تلبس البنطلونات الشورت والقمصان الملونة والأحذية الكوتشي التي تحبها.

- سألبس مثلهم ... انهم لا يلبسون الشورتات.

- ماما لن تكون معك

وثبتت الأم وجهها على طفلها لترى رد فعله وتسمع جوابه .. إنه وحيدها وفلذة كبدها .. واختار رداً عفوياً ولكنه دبلوماسياً فقال:

- ستأتي لزيارتي معك

- وأصدقاءك الذين يطلبونك كثيراً في التليفون وتقابلهم في المدرسة والكنيسة

- سأصادق الرهبان

- لا شوكولاته هناك ولا جاتوه .. فول ، عدس ، خبز يابس

فهز كتفيه في غير مبالاة واستطرد الأب :

- كما أنه لا يوجد هناك لحوم ..

فأجاب بأسى :

- ولا دجاج ؟!

وفرح الأب الذي كان قد تصبب عرقاً .. وظن أنه قد وجد العقبة الكؤود لإرغامه على الهزيمة وإنهاء الحديث فقال :

- طبعاً لا دجاج هناك .. ولا أرانب وأنت تحب الدجاج (قالها في إغراء) أليس كذلك ؟ وجاءت إجابة الطفل كالصفعة فقال :

- لا أحب الدجاج .أحب أن أكون راهباً

وعاد الأب ليواصل الكفاح ..

- هل يضربك المدرس في المدرسة ؟

فهز رأسه نفياً

- هل يخطف منك أحد ساندويتشاتك ؟

- لا

- هل نُضايقك انا وأمك ؟

وقبل أن يجيب نادت عليه الأم فلم يستجب ، أغرته بأنها تحفظ له هدية اشترتها له ، فضرب الأرض بقدمه ، ثم وهو يهمّ بالبكاء :

- أريد أن أكون راهباً

وهمس الأب ناحية الأم :

- من يدري !

ثم استطرد ناحية طفله قائلاً :

- سوف أخذك مرة أخرى إلى الدير ونستأذن الأب الكبير هناك.

فرد في سرعة وعيناه تلمعان ببريق النصر :

- وافق ، قلت له ووافق ..

- ولكنه لم يقل لي.

- قال سنسميك أبانوب .. وأعطاني صورة .. أنا أحب أبانوب.

وقامت الأم في هدوء وأخذته لتذهب به إلى حجرته ، ولكن جسده الصغير تقلّص بين ذراعيها ، وبحركة عصبية تخلّص منها وقفز ثانية إلى جوار أبيه وفي مواجهتها ، ولما لم يجد الأب مناص من المواصلة استطرد مكملاً :

- ألا تخاف من الجلوس وحدك في الدير ؟

ضرب بقبضته الصغيرة على ركبة والده وهو يقول في عناد .

- لا

- إذا ماذا تحب أن نحضر لك عندما نأتي أنا وأمك لزيارتك ؟

فرفع عينيه نحو سقف الحجرة .. وفكر قليلاً ومازال أصبعه على شفته السفلى ثم قال :

- لا شيء

واستدارت الأم الناحية الأخرى لتمسح قطرات من الدمع طفرت من عينيها .. ثم وكأنما لم تعد تحتمل المزيد قالت له :

- هل تأتي معي غداً ؟ إني ذاهبة إلى هناك .

فتهلل وجهه الصغير فزاد بذلك ملائكية ، ووجدت بذلك السبيل لحمله إلى فراشه قائلة :

- إذاً عليك أن تستريح الأن لنبكر في الصباح .

وما لبث أن غط في نوم عميق ، وأحلام الطفولة السعيدة تضفي على وجهه سيماء البراءة .

وفي الغدّ كان يتشاجر شجاره الطفولي المعتاد مع أمه حول ما سيحمله معه من سندويتشات إلى المدرسة !

واليوم .. هو طبيب متزوج وله ثلاثة أطفال ويعمل في بلد إفريقي أظن أنها الكاميرون !

صانع القربان

كان بشوشاً وكان لطيفاً معطاءا ، نذكره جيداً حين كنا أطفالاً دون العاشرة بينما تخطى هو الثلاثين من العمر ، إنه (عمو يوسف) كما كنا نطلق عليه في تلك القرية النائية في وسط صعيد مصر .

كنا نحبه .. وكان يعطف علينا إمّا بقليل من الحلوى أو تلك القطع النقدية الصغيرة التي كان يحتفظ بها في جيبه ، وكنّا نحن نشاكسه ايضاً وهو جالس في وداعة أمام حجرة القربان عقب القداس ، عندما كنّا نسأله أسئلة بريئة كان يبتسم ويلاطفنا ، والأن أتذكّر أنه في كل مرّة كان يشرد قليلاً بذهنه قبل أن يصرفنا عنه بلطف .

وكان أبي ناظراً للكنيسة (وهي أثرية على اسم السيدة العذراء) وبين آن وآخر وحين كنا نجلس إليه بعد العشاء ، كان يروي لنا شيئاً عن ذلك القرابني الجديد الذي جاء يعمل كخادم في الكنيسة ، كيف أنه رفض أن يتقاضى أجراً .. وكيف إكتفى بالطعام الذي يقدّم له ، وبتلك الحصيرة المتهرّئة لينام عليها بجوار (بيت لحم).

وإعتاد أن يدخل إلى حجرته عقب السابعة مساءا ولا يُرى إلّا عند الصباح بعد أن يكون قد قام في نصف الليل ليخبز القربان ، ويُدخل (طبق الحمل) في مكانه أمام الهيكل ثم يرتب المذبح ويعمر القارورة ويصلح الشمعدانين اللذين فوق المذبح ويملأ إبريق الماء الفخاري ودرج البخور وكل ما يحتاجه الكاهن ، وهو ماهر جداً في جعل الكنيسة وما يحيط بها ، في غاية الحسن والبهاء ، فقد غرس بعض الورود والشجيرات حول الكنيسة .. وكنا نلعب كثيراً بجواره، وكنا نهابه بقدر ما كنا نحبه..

كانت فى عينية نظرة شفقة وحب وسر عميق ، وكان من بيننا ونحن أطفال جورج وهو ابن كاهن الكنيسة ،وكان (عم يوسف) يخصّ جورج باهتمام أكبر إذا كان معلّقا برعايتة، مثل مرافقتة إلى المدرسة ،والعودة بة عند الظهر إلى بيتة ثانية ،وكنا نراة فى بعض الأحيان يجلس إلى جوارة أمام حجرتة فى الكنيسة ،يراجع معة بعض دروسه ، وكان يوسف يعرف القراءة والكتابة ، وكنا نلمحة فى بعض الأحيان يقرأ على شمعة وباب حجرتة مفتوحاً.

وأذكر أن بعض الصبية ضايقوه ذات صباح ، إذا راحوا يهتفون فى سذاجة بما يضايقة ويهينه،وقد رأيتة فى ذلك الصباح وهو يشخص إليهم بعينين منكسرتين ثم يتراجع بهدوء إلى الخلف حتى يدخل حجرتة ويسحب بابها وراءه فى هدوء، وما أن أغلق الباب حتى قذف أحدهم الباب بحجر كبير ،ثم هرول الجميع ضاحكين ، وفى المساء وجدتة بشوشاً كعادته، وقد زالت من قسمات وجهه عبوسة ذلك الصباح .

وعندما تجاوز سنّه الخامسة والثلاثين، أشفق الكاهن على وحدة يوسف ومسكنته، فعرض عليه تزويجه من إحدى العاملات بمصنع النسيج،ولكن يوسف أعتذر فى أدب جّم ،بأنة لا يفكر فى الزواج ،

ظن الكاهن وقتها أن المانع هو ضيق ذات اليد ، فطمأنه بأنه سيتكفّل بنفقات هذا الزواج ، ولكنة أعتذر مراراً.

قال إن أهلة فى إحدى محافظات الوجه البحرى، حاولوا مراراً تزويجه من قبل ، ولكنه أحبّ أن يحيا وحيداً ، وقال الكاهن :

–فلماذا لم تترهب فى أحد الأديرة ؟

– أنا لا أستحق ...إنى شرير ..

وتأثر الكاهن، ومنذ ذلك الحين حاول توفير حجرة صحيّة له، يؤثثها له ،ولكنة أعتذر أيضاً مكتفياً بتلك الحجرة البسيطة التى تشبة الكوخ ، واكتفى أيضاً بالقروش القليلة التى تعود عليه من الأطباق الخوص التى يصنعها فى أوقات فراغه.

و أحبه أهالى القرية ، واعتبروه بركة ، وكانوا يراقبونه فى ارتياح ، وهم يسير بين آن وآخر يحمل شيئاً إلى بيت الكاهن ، أو وهو يرافق جورج ابن الأب الكاهن إلى مدرسته ، أو إلى خاله فى الحى الغربى من القرية ، كان طويل القامة، نحيفاً، هادئاً، وثابتا فى خطواته .. رأسه مطرق إلى أسفل قليلاً ، ينتعل فى قدمه نعلاً بسيطاً...ويعتمر طاقية بنيّة اللون وكانت له لحية خفيفة جداً.

وفى ذات مرة فوجىء يوسف عند منتصف الليل، بأن القربان لم يختمر ..فلم تكن الخميرة نشطة بالقدر الكافى ، فإن خبزه على ذلك النحو، فسيخرج من الفرن وهو أشبه ما يكون بالفطائر لا القربان ، ولم يكن الوقت يتّسع لعمل قربان آخر، وتحيرّ فى نفسه وتضايق و أوشك أن يضطرب ويفقد سلامه ، وفى النهاية لم يكن من مفرّ من وضعه فى الفرن كما هو ..وخرج القربان بشكل سيىء ..وباكراً جاء الأب الكاهن ومعه الشمأس ، فتلقاه يوسف بالترحيب ، وتردّد قليلاً قبل أن يعتذر له بأن القربان اليوم ليس على ما يرام.

وتغيرت ملامح الكاهن وزمجر وراح يعاتبه على إهماله بكلمات قاسية ولكزه بيده غاضباً،وراح يوسف يعتذر بعبارات كثيرة ويطلب الحل والصفح فتركه الكاهن مستاءاً، والحقيقة أنها لم تكن عادة الكاهن فى مثل تلك المواقف ولكن مزاجه لم يكن على ما يرام فى ذلك الصباح .

وطفرت الدموع من عينيه ولكنه تماسك وعالجها بسرعة ، انتهى القداس وخرج الكاهن من الكنيسة فتلقاه يوسف ببشاشة ، ولكن الكاهن لم يعتذر له، ولكنه تظاهر فقط بأنه قد نسى الأمر والتفت إلى أعماله ، وإذا تحدث مع يوسف فى شأن آخر .

وكبر جورج (ابن الكاهن) شيئاً فشيئاً، وألحقه أبوه بالكلية الإكليريكية أملاً فى أن يساعده مستقبلاً فى أعباء الكهنوت والخدمة ، وكان شاباً مشهوداً له بالفطنة والذكاء وإتضاع القلب والكل يحبونه أيضاً، وكثيراً ما كان يوسف ينتظره على محطة القطار عند زياراته للقرية ليحمل عنه حقيبته وليصحبه إلى منزله ، وكان جورج يحمل ليوسف – كلما جاء إلى القرية – هدية لطيفة من البندر ، مرة شالاً و أخرى طاقية أو علبة من الحلوى .

وتقدم الكاهن فى السن وشاخ واحتاج إلى أن يطلب من الأسقف أن يرسم له أبنه كاهناً معه– وكان قد تخرج منذ ثلاث سنوات – وفى إحدى الليالى المبهجة حضر الأب الأسقف ليبيت ليلته فى القرية وبصحبته بعض الكهنة والأراخنة ، ليقيم فى الصباح ذلك الشاب الفاضل كاهناً ، وسعدت البلدة بذلك. ومن ثّم بدأ يشترك مع أبيه فى حمل أثقال الخدمة ، وبدأ فى حملة افتقادات واسعة محاولاً أن ينهض بالكنيسة وأنشطتها.

واستمرّ يوسف فى عمله المعتاد ، من صنع القربان إلى تنظيف الكنيسة وملحقاتها من مرافق مختلفة ، مع قضاء بعض أمور الكنيسة مماً يكلّفه به الأب الكاهن، ويقول الذين تردّدوا على كنائس أخرى أنهم لم يروا ، أفضل و أروع من القربان الذى يصنعة يوسف ، كان دقيقاً فى عمله، مهتماً بالعودة إلى حجرته بعد انتهاء أعماله ، ولم يزر إنساناً فى بيته ، حتى بيت الكاهن لم يدخله مطلقاً وإنما يقف على الباب يسلّم شيئاً أو ليأخذ شيئاً ، وبالتالى لم يزره أحد فى حجرته ولم تكن له دالة مع أحد.

وأمّا أكثر الناس تعقلاً، فقد رأى فيه إنساناً يؤثر العزلة والهدوء، بينما اعتبره الآخرون شخصاً يعانى من الانطواء ، فى حين حسده البعض وكرهه البعض الآخر واشتكى عليه بعض الأشرار فى القرية .

ويحكى والدى فى تأثر بالغ وحزن شديد ، كيف حاول هو نفسه ذات مرة أن يطرد يوسف من مكانه بسبب بعض التوسعّات التى كان يرغب إجرائها فى الكنيسة ، فحمل يوسف عدة كتب كانت له مع بعض

حوائجه ووقف بجوار الحجرة من الخارج مسكيناً لا يدرى ماذا يصنع ، ولكن بعض المحبين توسلوا إلى الكاهن الذى قرر تأجيل تلك التعديلات إلى حيت آخر ومن ثم فقد أعاده إلى موضعه ، ولفترة كان يوسف كلما رأى والدى، ينظر إليه فى مرارة !

عندما مرض الأب الكاهن الكبير ، لزم منزله لا يخرج إلا نادراً ، واعتلت صحته وفيما أوصى أبنه ، أوصاه بيوسف ذلك القرابنى الطيب الذى رافقهما فى رحلة طويلة وأصبح مسئولا منهما بعد مرور عشرين عاما منذ وصوله إلى القرية .

وتنيح الكاهن العجوز..

واهتم الكاهن الصغير بشئون كنيسته الصغيرة ، وحاول الاهتمام أكثر بيوسف ، فكرر محاولة والده تزويجه ، فكرر بدوره الرفض مع إبداء شعوره بالامتنان ، وقام بعمل تعديلات كثيرة على مرافق الكنيسة ، وبالتالى فعرض عليه أن ينتقل إلى المبنى الملحق بالكنيسة ، فاعتذر أيضاً بلطف وحياء ، متمسكا بذلك المكان الذى بدأ فيه منذ خمسة وعشرين عاماً.

وتقدمت به الأيام وناهز الستين من العمر ، وما يزال مسئولاً عن صنع القربان وإسراج القناديل فى الكنيسة وتنظيفها وترتيبها ، وكذلك الحديقة التى أصبحت بقعة جميلة تزينها الورود المتعددة الألوان وأصص الزرع المنسقة بيد فنان مرهف الحس ، مع قضاء بعض احتياجات الكنيسة واحتياجات الكاهن .

ولكنه لم يخرج من البلدة طوال تلك المدة .. حتى عندما ألّم به ألم فى كليتيه ونصحه البعض ممن يؤمّون عيادات الأطباء فى المدن بالذهاب إلى الطبيب . واكتفى بتناول بعض المشروبات المفيدة للكلى وتخطى آلامها..

ويروى لنا معلم الكنيسة ، أنه كثيراً ما كان يسمع يوسف يردد بعض الألحان الطويلة ، فيسأله متعجباً ولكن يوسف كان يرد مستخفا بنفسه ، وبأنه كان يحفظ الكثير منها لا سيما وهو حديث السن و لكنه أصبح وقد نسى أغلبها.

وفى ذات مساء فوجىء الأب الكاهن بطرق على الباب . ولما فتح الباب فوجىء بيوسف يقف فى حياء على بعد من الباب ، غير أنه كان فى صورة بهية ، لم يره عليها مطلقا من قبل خلال ثلاثين سنة مرت عليه معه ،فقد كانت ثيابه نظيفة ..و وجهه يلمع وقد دس قدميه فى حذاء جديد..

و دهش الكاهن ,فهى المرة الأولى التى يأتى فيها إلى بيته دون أن يطلبه,فدعاه الى الدخول,فتردد قليلاً قبل أن يدخل فى حياء شديد ,إذ كانت هذه هى المرة الأولى أيضا التى يدخل فيها داخل البيت,و جلس فى وقار أمام الكاهن الذى دعاه للجلوس ..و بعد فترة من الصمت تخللتها بضع كلمات متفرقة و تقليدية قال يوسف:

–جئت إليك الليلة فى أمر هام.

–خيرا...

–نعم,فأنت تعرف كم لى من السنين هنا و أنا معكم.

–بالطبع فأنت معنا منذ ما يزيد عن الثلاثين او الأربعين عاما.

–كيف كنت أخدم الكل بفرح و أتمم عملى بقدر ما استطيعه من أمانة محاولاً ألا أقصر فى شىء.

–نعم..و لكن ما هو الأمر ..ماذا تقصد...

–إننى أشعر بقرب رحيلى.

فقال الكاهن مداعبا:

–أنت ما تزال شبابا.. أطال الله فى حياتك ..أنت بركة لنا يا عم يوسف..

–عفواً ..بل إنى خاطىء و مسكين,ولكن لى طلب عندك أرجو ألا تردنى عنه أو تتعجب له.

–إذا كان فى استطاعتى فلن أتردد فى تحقيقه لك.

–أود أن تسمح لى بأن أصلى القداس غداً.

و تخيل الكاهن أن يوسف يود التقدم للتناول,و لهذا يطلب إعفاءه من بعض الالتزامات ,أو ربما يحتاج إلى "حلّ" ,فقال له:

-طبعا و بكل سرور ,يمكنك التناول غداً-محالل مبارك!-

-كلا يا أبى..بل أريد أن أخدم القداس..أرفع أنا الذبيحة..

و دهش الكاهن ..و صدمته المفاجأة و ظن لأول وهلة ان الرخل قد أصابه مس من الجنون,و تمعّن فيه طويلاً,و سرح بفكره ,و تذكّر بعض المواقف التى شعر فيها بغموض الرجل الجالس الآن أمامه,و بأنّ سرٌ ما يكتنف حياته,فقال:

-ماذا تقصد؟!

-أعنى ما قلت,ثم بلهجة فيها من الجديّة أكثر ممّا فيها من التوسُل:

أريد أن أكون الكاهن غداً..إنى راحل..و لهذا أودّ أن أودّع المذبح.

و ازدادت دهشة الكاهن و همّ بأن يعيد الرجل إلى صوابه،فأنتهره بلطف,غير أن الرجل استطرد فقال:

-نعم يا أبى ..أنه السرّ الكبير الذى كنت أحتفظ به طيلة هذه السنين و أنا بينكم,و لم أبح به لوالدك..و لم أكن أنوى الافصاح عنه لأحد ,لولا أن الوقت قد حان.

و هنا شعر الكاهن بالخوف ,فكلمات الرجل تنذر بمفاجأة خطيرة,و بدأ يظهر عليه القلق,فقال مضطربا:

-و ما هو السر؟

-نعم يا أبى ,فأنا راهب قس و قمص

و عقدت الدهشة لسان الكاهن,و قفز من جلسته ,ووقف مشدوهاً لا يصدق و تفرس طويلا فى الرجل الذى أعاد ما قال,فى هدوء و ثقة و ثبات :كلمة كلمة...

و هنا تهاوى الكاهن فى مقعده و هو يتصبب عرقا ,و طلب إليه بتوسل أن يقص عليه قصته, و ما الذى دفعه إلى هذا السلوك الغريب,

و أردف طلبه بوابل من الاعتذارات عن كل ما صدر عنه مما ضايق الرجل..فلم يخل الأمر طوال تلك السنين,من انتهار بين آن و آخر..إلى تجاهل غير مقصود ..فان أفضل معاملة تلقاها يوسف ,هو معاملة غير قاسية لعامل طيب مخلص.

قال الرجل:

منذ ثلاثين عاما ,كنت قد ألتحقت بدير(.....) و كان لى هناك قلاية لطيفة عشت فيها ثمانى سنوات,فقد دخلت إلى هناك و سنى لا يتجاوز الرابعة و العشرين, و عشت فى سعادة غامرة,كان معى فى الدير ثلاثة من الرهبان كانوا من مدينتى و كنت أتعزى بهم ..و كان عملى بالدير هو تصنيع الطوب الرملى و الذى كان له عندنا فى الدير ,ماكينة بدائية الصنع, و كنا نستخدم الطوب فى بناء بعض القلالى و المرافق, ثم اتضح إن المبانى المقامة بمثل ذلك الطوب,غير صحيحة مطلقا,فقررنا فى الدير قطع الحجارة من الجبل لاستخدامها بدلا من الطوب.

صمت الرجل قليلا ..فراح الكاهن يحثه على مواصلة الحديث.

-كان المحجر الذى سنقطع منه الحجارة يبعد عن الدير مسافة كيلو مترين, و لم تكن إمكانيات الدير تسمح باستئجار قاطعى الأحجار,فكنت أبدأ عملى فى التاسعة صباحا لأقوم بعمل حفرة فى الأرض الحجرية على بعد متر واحد من الحافة,و من ثم أضع فى الحفرة وتدا خشبيا ضخما و نقوم بالضغط عليه قبل أن نشبعه بالماء و نتركه ليوم كامل , و حينئذ يزداد حجم الوتد فيضغط على الحجر فيحدث به شرخا طويلا فنقوم بتقطيع هذه الشريحة إلى قطع مناسبة و بعد ذلك نضعها فوق العربة الكارو.

و العربة لها قصة طريفة..

و هنا دخلت زوجة الكاهن و هى ترتجف من الخوف و فى يدها صينية الشاى و بعض الحلوى ,فقد سمعت الحديث بكامله , و أشار إليها الكاهن لتجلس فجلست تستمع و ما تزال آثار دموعها على خديها..

ثم أردف الرجل..

نعم ..قلت لك أن الدير لم يكن به عمال, و كانت العربة الكارو ذو العجلتين يجرها حمار,و كنا قد مهدنا الطريق من المحجر حتى باب الدير ,فبعدما أضع الحجارة فوق العربة ,أوجه الحمار ناحية الدير,فيجر العربة إلى هناك حيث ينتظرها أب آخر يفرغ حمولتها ثم يفعل الشىء ذاته إذ يوجه الحمار ناحية المحجر و هكذا... و كنا نحب الحمار و نشفق عليه و نلاطفه كثيراً و نطعمه بقدر ما نستطيع , ولم نكن نعتبره مجرد حيوان أعجم بسبب أنه صار يفهمنا جيدا و نفهمه كذلك.

و كنت أعمل حتى الرابعة بعد الظهر فيما عدا يوم الأحد من كل أسبوع.

-من كان يبنى لكم إذن؟

-كان من بيننا اثنين من الرهبان ملمان بحرفة البناء,كلما رأيانى يلومانني برفق و دعابة.

-حجارتك ليست مستوية

فأرد معتذرا

-الاستقامة من عند الرب.

و كنت فى يوم الأحد من كل أسبوع ,أخرج إلى البرية , و معى عصا طويلة تعيننى فى السير فوق الرمال..و استمر فى السير حول الدير لساعتين أو ثلاثة..

و فى السنتين الأخيرتين لى هناك,كنت قد تشجعت فى أن أسير بعيدا عن الدير مدة أطول,و فى ذات يوم استأذنت أبى رئيس الدير فى أن أتغيب يوم الأثنين عن العمل ووافق لعلمه أن ذلك إنما من أجل رغبتى فى الهدوء و الخلوة , و طلب إلىّ أن أصلى عنه, و لكن أين ذهبت فى هذين اليومين؟لقد سرت من صباح الأحد بعد القداس الإلهى , و بعدت عن الدير حوالى أربعين كيلو مترا,و عندما مالت الشمس للمغيب, و أضطررت للمبيت فى الصحراء,نمت فى ظل صخرة كبيرة بعد أن رشمت ذاتى بعلامة الصليب و رسمت دائرة حولى.

وصمت الرجل وشرد طويلا قبل ان ينتبه على صوت الكاهن وزوجته يحثانه على المواصلة ... و كان الكاهن عندئذ يتخيل الرجل فى ملابسه الرهبانية !!

اردف الرجل قائلاً :

بكرت فى الصباح لاواصل سيرى ، و تلذذت بذلك ، واحسست بالغربة عن الجير و اخوتى تجذبنى نحو الله و تهبنى الهدوء الذى انشده و تجعل ذلك الخط الذى يربطنى بالله سليماً غير منقطع ، فلم اعد الى الدير !! سرت هائماً على وجهى لمدة شهرين من الزمان ومن ثم و بعد صلاة طويلة ، قررت الا اعود ثانية للدير !!

– فأين ذهبت ؟ (قال الكاهن بينما زوجته الطيبة تجلس الى جانبه خائفة)

– نزلت بكوخ احد الاعراب الذى احتفى بى وترك لى كوخه ليسكن هو فى كوخ اخر بالقرب منه ، و عملت معه فى رعى الاغنام لمدة شهرين ، ارسلت خلالها الى ابى الروحى عن طريق البريد استأذنه فى ان اكمل حياتى على هذا النحو ، او على نحو مشابه ، وقلت له ان يرسل لى رده بأسمى العلمانى (يوسف) وأملانى الاعرابى عنواناً لاقاربه فى المدينة ، طلبت من ابى ان يرسل لى عليه و هنا قاطعه الكاهن

– ماذا كان اسمك فى الدير ؟

– توماس ... كان اسمى القمص توماس

– اكمل من فضلك ...

– وصلنى خطاب ابى الروحى وكان مكتوباً فيه عبارة واحدة

(تشدد و تشجع و الرب معك) وكاد قلبى يطير من الفرح و احسست بلذة الحرية ، و اتساع الافق امامى وكأن ابواب غنى مجد الله قد انفتحت و لم يعد هناك من مانع لكى أخذ و أعترف .

واشتهيت ان اتناول من الاسرار المقدسة ، و سألت ذلك الاعرابى عن اقرب كنيسة فأشار إلى كنيسة هذه البلدة ، حيث تبلغ المسافة من الكوخ اليها حوالى خمسة عشر كيلو متراً ، فجئت الى هذه القرية وبالطبع فقد كانت ملابسى عادية و قد لبست طاقية مثل التى البسها الآن فلم يكن هناك فارق بينى و بين اى رجل اخر سوى هذه اللحية وهى صغيرة جداً كما ترون .

وفى يوم من الايام التى جئت فيها لاتناول تأخر القداس فى البداية طويلاً ، وعرفت – بطريقة عابرة – ان السبب فى ذلك يرجع الى تأخر عمل القربان ، فقد ترك القيم البلدة غاضباً و ليس من يحل محله و بنفس كفاءته .

وهنا هز الكاهن رأسه وتمتم ببعض كلمات مؤمناً بكلام الرجل .

و توجهت لفورى إلى والدك نيح الله نفسه ، وعرضت عليه القيام بتلك المهمة ، و سألنى هل تعرف فقلت له نعم فقد كنت اصنعه فى قريتى ، و يمكنك ان تجربنى و تختبر صدق قولى غداً فوافق لا سيما وأنه لم يكن هناك من بديل و قتها ، ففرح حينئذ ووافق ، و قمت بصنع القربان ليومين متتاليين ، سر به الاب أيما سرور ، وطلب الى ان احيا معهم وأعطانى هذه الحجرة بعينها ، ومن ساعتها عشت على هذا النحو ولم اكشف سرى لاى شخص حتى هذا اليوم ...

الموكب

ما ان انتهى الرجل من كلامه ، حتى وقف الكاهن و صافحه كما يتصافح الكهنة ،

طلب الحل منه ثم دخل إلى الداخل ليعود سريعاً وهو يحمل ثياباً كهنوتية ليسلمها للرجل و لكن الرجل قال انه يحتفظ بملابسه الكهنوتية و الرهبانية ...إنها ماتزال معه فى صندوق يضعه فى حجرته ، فقال الكاهن .

– انزل الآن يا أبى إلى حجرتك ودعنى أنا الليلة اصنع لك القربان ، اسمح لى مرة واحدة نتبادل الادوار .

– أبداً إن هذا لن يكون مطلقاً ..فإنى اتمم عملى حتى النهاية ...

– إذن قل لى انك حاللتنى يا أبى توماس و سامحتنى .

– من اجل ماذا ؟

– فلربما قد أسأت إليك عفواً او عمداً .

– لم يحدث شىء من هذا ، فقد كنتم لطفاء معى ، وإن كنتم قد أسأتم إلى عفواً فلا يحسب عليكم ، وإن عمداً فلكم العذر لانكم لم تعرفوننى ، كما إنى أنا الذى اخترت هذا المسلك .

وهذا قال الكاهن كمن يصدر أمراً و يقر قراراً :

– تصلى قدسك غداً ، و سأقوم أنا بالترتيب اللازم ..والآن تفضل إلى حجرتك ما دمت مصراً على صنع القربان حتى فى هذه الليلة النادرة و الحاسمة .

كانت الساعة عند ذلك قد تجاوزت السادسة مساءاً حين خرج الكاهن يطوف بيوت تلك القرية وهو يلهث و تتلاحق أنفاسه ..تعالوا .. انظروا تلك الاعجوبة ..

يامن هنا ويا من هناك ..اسمعوا و تعجبوا و تحيروا كما يحلو لكم ، كيف أن صانع القربان هو راهب كاهن .

يوسف راهب ..يوسف كاهن ..هيا يا من ازديتم به و يامن اهنتموه ، هيا نالوا الصفح منه ..وإلتمسوا صلاته .

و تقاطر الناس على الكاهن ، يتسألون فى دهشة بالغة ..و الكاهن يروى القصة .. ويعود فيرويها بتفاصيل اكثر ، و وصرخت بعض النسوة و بكت أخريات ، كان مشهداً مؤثراً ..و عرف الجميع انه سيصلى قداس الغد لم تنم القرية فى تلك الليلة ، فقد راح الرجال يستعيدون كل ما كان قد دار بينهم و بين يوسف ففرح كل من كان قد احسن إليه و احبه ولاطفه ، بينما ندم كل من أساء اليه أو حتى احتقره فيما بينه و بين نفسه ، كذلك فقد راح الرجال يسترجعون كلماته و تعليقاته ..

أسرع بعضهم إلى الكنيسة فى تلك الليلة ليروا يوسف و لكنه كان قد انتهى من صنع القربان و أغلق حجرته و لو يفتحها و لم يستجب للطرق على الباب ، فقد كان يعرف أنهم إنما سيحضرون ليستطلعوا الآمر منه ، و يمطرونه بوابل من الآسئلة حول قصته .

و اجتمع كثير من النساء ، كل جماعة منهن فى منزل إحداهن ، يتسامرن و يتهامسن و يروون قصصاً كثيراً من نسج خيالهن عن يوسف و عما سوف يحدث فى الغد ..إلخ .

فى الصباح الباكر قام الاب توماس بخبز القربان وادخله الى الكنيسة قبل وصوصل مرتل الكنيسة (المعلم) وطلائع الشعب ، وكان مرتدياً الملابس السوداء ، وعلى رأسه طاقية سوداء تحتها الشريط الذى كان يلبسه الرهبان حتى الستينات ، وهكذا بدا فى هيئة مختلفة .

و حضر المعلم .. و بدأ فى ترديد بعض مقاطع من نهاية التسبحة اليومية و بعد ذلك جلس فى ركن (الدكة) يتمتم بعض صلوات ...ثم قال – عل أحد الموجودين يرد عليه – ألم يحضر الآب بعد .

ورد صوت من داخل الهيكل ، سنبدأ الان يا معلم ، فتعجب المعلم لان الصوت القادم ليس صوت الكاهن الذى يعرفه ، وإنما هو صوت غريب ، وتخيل لاول وهلة ، انه واحد من الاباء الكهنة الذين يدعوهم للصلاة بدلاً منه حين يضطر هو للسفر ..او بسبب مرض يلم به ، غير ان الصوت لم يكن غريباً تماماً ..فأطرق بسمعه – ثم قال :

– من ؟!! من قدسك ؟!

– أنا يا معلم .

فهتف المعلم :

– يوسف ..عمو يوسف ..أهلاً ..وأجاب يوسف :

– لا يا معلم بل أنا الكاهن الذى سيصلى ، فصمت المعلم قليلاً ثم قال :

– ماذا تقصد ..ماذا تعنى ؟!

– أعنى ما قلت ..هيا لنبدأ

وهم المعلم أن يصرخ محتجاً ، وهنا دخل الكاهن وأخذ المعلم بلطف من يده و همس فى أذنه : إصمت .. إنه راهب .. إنه كاهن .. فصرخ المعلم بصوت مكتوم و بطريقته اللطيفة

وىّ–

(كان المعلم قد نام فى بيته مبكراً و كان يحيا فى منزله وحيداً بعد وفاة زوجته و سفر إبنيه إلى المدينة ، وبالتالى فلم يعرق ما حدث بالامس)

وخرج على الفور ، وراح يتمتم ببعض كلمات ليعود بعدها ، فيجد الأب توماس قد بدأ فى رفع بخور باكر . كان صوته جميلاً رخيماً معزياً ملائكياً، وقد صلى النصف الأول من القداس للقديس غريغوريوس أما النصف الثانى فقد صلاه للقديس باسيليوس (نصفه غريغورى والآخر باسيلى) ورتل الشمامسة خلفه

الأسبسمس الآدام والواطس، وبعد إنتهاء القداس تقدم جميع الشعب للتناول وكانوا حوالى ثلاثمائة فرد، وهو العدد الذى نادراً ما يلتئم فى القداس الإلهى،فى تلك القرية الصغيرة.

وبعد القداس :

وقف فى وقار وريث وأناة يوزع لقمة البركة (الألوجية) وتقاطر الناس عليه يطلبون صلواته ويستفسرون منه، والبعض يطلب السماح والحل لما قد يكون ضايقه منهم و راحت الأمهات يرفعون أصواتهن يطلبن البركة و البعض رفعن أطفالهن وقدمنهم إليه ليباركهم فكان يرشم جباههم بإشارة الصليب، أمطروه بأسئلة كثيرة جداً، غير أنه لم يجب، ولم يفتح فاه بل كان ينظر إلى الجميع فى شفقة وحب.

وفى بعض أركان الكنيسة وقف البعض ينظر إليه باكياً، فلما أنتهى هو من توزيع البركة، وكان كاهن الكنيسة برفقته دخل معه إلى الهيكل ثم جذب الأب توماس ستر الهيكل ليفصل بين الكنيسة والهيكل ، وبعد قليل حرج برفقة الكاهن واستأذن الناس الذين كانوا مايزلون فى الكنيسة، فى أن يمضى إلى حجرته ليسترح قليلاً، وبعد ساعتين تنيح فى حجرته .

+ + +

واليوم لا يتذكر أهل البلدة أين دفن هذا الأب و أين قبره، البعض يقول أن جسده لايزال تحت أرض تلك الحجرة التى كان يعيش فيها، والبعض الآخر يقولون : لا، بل دفن قى الكنيسة مع بقية أجساد الآباء الكهنة الذين دفنوا هناك.

هذه الواقعة حقيقية جرت أحداثها فى النصف الأول من هذا القرن، رواها لى أحد شيوخ الدير نقلاً عن راهب من الدير الذى ترهبن فيه ذلك الأب، وقد عرضها هنا بشئ من التصرف.

دير البراموس فى مارس 1997

المحتال

لم يكن راهباً .. كلا، ولكنه انتحل صفة راهب. تردد بين أعمال مختلفة ولكنة لم يوفق فى أى منهم، واختفى من بلدته تماماً ليظهر فى بلدة أخرى تبعد جداً عن فريته، واختار لنفسه كوخاً يقع فى منتصف الطريق من محطة القطار حتى القرية.

واتخذ هيئة راهب، وفى بداية تعرفة على الناس، وقف أمام الكوخ فى حياء مصطنع، فلما مر به بعض الناس، نادى على أحدهم وانتحى به جانباً، ثم أعطاه بعض المال ليشترى له به شيئاً من الخبز والخضر، فأحضره له فى المساء فى اليوم ذاته فشكره كثيراً فى وقار كثير مع بعض الدعوات غير التقليدية، وعرض عليه ذلك الشخص أن يقضى له حوائجه، كلما أتسع الوقت لذلك، فتمنع قليلاً قبل أن يظهر فرحه ورضاه بذلك.

وأحبه وصار صديقه ...

فى البداية سأله كثيراً عن السبب فى مجيئه إلى ذلك المكان، ولماذا يسكن هذا الكوخ؟ ، فلم يجب بشئ وآثر الصمت/ فاحترم مشاعره.

وسمع به الناس مع مرور الوقت تساءلوا عن هويته، وراحوا يمسحون كوخه بأنظارهم كلما مروا من قدامه، وبين آن وآخر كان يخرج ليسأل بعض المارة عن الوقت .. أو عن الشخص الذى يخدمه، وعرض عليه آخرون الاشتراك فى احتياجاته، واستجاب بحياء مصطنع لبعض منهم.

وفى إحدى مسامراته مع البعض عرف منهم عرضاً، أن زوجة أحدهم لا تنجب وأن لهذا الأمر أثراً كبيراً فى تعاسة تلك الأسرة مما قد يهدد استمرار الزواج، وتجاهل ذلك .. وكأنه لم يسمع شيئاً.

ومن بعد عدة أيام أرسل بيد ذلك الذى يخدمه شيئاً صغيراً ليسلمة للرجل الذى حرم من النسل، وكان ذلك الشئ هو ورقة صغيرة طويت بطريقة خاصة، وطلب منه أن يحرقها ثم يضع رمادها فى كوب ماء تشربه زوجته وستنجب ولداً تسميه (. . . .) وفعل الرجل وأنجبت زوجته طفلاً أسمته على اسم ذلك المحتال، تكريماً له!!

وانتشرت الأخبار بين الناس، ونسبوا إليه من المعجزات والأشفية مالم يحدث مطلقاً، فينظرون إليه نظرتهم لقديس أنعم الله به على قريتهم ويتوافد عليه الناس ومعهم الهدايا والمال، وتسأله إحداهن:

-هل يعود زوجى من الجبهة ؟

-يعود .. (ثم بعد صمت قصير) ولكن بعد فترة .. الزوج بعد فترة يعود .

وتسأله أخرى : هل تلد البقرة؟ وينظر إليها طويلاً دون أن يجيب ... فتقفل راجعة من عنده وهى متشائمة.

وتقاطر عليه الناس من كل جهة يسألونه فى أمور مختلفة، فها هوذا (رامى) يطلب إليه أن يفتح له الكتاب على الإمتحان يجئ من الموضع الذى يفتحه عنده .. وهوذا بعض التجار وبعض الحرفيين والمزارعين .. وهو يجيب بإجابات مختلفة حسبما تنزلق الكلمات على لسانه، فيصيب بعض الكلام ويخفق الآخر .. وعندما يراجعه البعض فى عدم تحقق نبؤته، يرجع ذلك إلى خطايا وشرور السائل!!

ويصدق نفسه.. يكذب ويبالغ كثيراً حتى يصدق أنه عالم بالغيب !!

وتتهمه بعض الأصوات بالاحتيال والخداع، فتهب أصواتاً أخرى لتدافع عن قداسة الرجل ومصداقيته، فأحاط به السذج والجهال وتزداد سطوة الرجل.

ويسمع به بعض اللصوص فيهاجمونه ليلاً، ويصيبونه بجرح بسيط قبل أن يستولوا على المال الذى عنده ويفروا هاربين، ويسمع بهذا بعض الذين يترددون عليه من القرى المجاورة، فيقوموا ببناء حجرة له من الطوب ويجعلون لها باباً من الخشب!! .. ويستنفر فى البداية من السكن فيها، قبل أن يوافق مسروراً فى أعماقه، فقد تثبتت مكانته بينهم وقداسته قد شاعت، ومن ثم فقد وجد من يهتم بإعاشته وينقل إليه ألواناً من الطعام والشراب والفاكهة والهدايا، بل ويدافع عنه!!

وأصبح يمتهن ذلك النوع الحقير من العمل، بدلاً من أن يعمل فى مهنة شريفة، يبذل جهداً وعرقاً فى سبيل الحصول على على قوته، ولكنه رأي فى ذلك مالاً يأتى بسهولة وكرامة بغير وجه وورعاً لا يكلفه إلا بعض النفاق، فراح يخدع الناس وينظاهر بالقداسة، فاستفحل أمره وتزايدت سطوته.

وسأله أحد السكان ذات مرة عما يجب عليه أن يفعله تجاه جيرانه الذين يزعجونه ويتربصون به.

فصمت طويلاً قبل أن يوصف له وصفة غبية، قال له ضع هذه الورقة فى كوب ماء مدة ساعتين وبعد ذلك رش الماء على حائط جيرانك وبجوار الباب.

ولمحة جيرانه وهو يفعل ذلك فثارت ثورتهم وجذبوه إلى الداخل وراحوا يضربونه حتى كادوا أن يحطموا أضلاعه، وأما الورقة التى أخذها من المحتال فقد كانت فارغة وبيضاء!!!

واختلف الناس بخصوص رأيهم فيه وبعض المثقفين الشبان بدأوا فى محاورته ومعارضته، ولكن ذويهم راحوا يحذرونهم من مغبة معاداته، خوفاً عليهم من الأذى فقد يغضب عليهم!! بل أن بعض البسطاء من الأمهات، رحن يعتذرن له عما بدر من أبنائهن تجاهه، وقال لهن :

-كلنا خطاه.. الله يغفر للكل.. أنا أصلى لأجلهم ..

ولم يقل ذلك إلا ليزداد كرامة وتبجيلاً فى أعينهن فيقولون عنه أنه القديس ومتسامح مع أعدائه...

وخاف على مكانته .. وخاف على مكانته .. وراح يفكر فى حيلة كبيرة يجذب بها أنتباههم ويجمعهم حوله .. فيأمر فيهم وينهى .. فقد فاجأهم ذات صباح، وهو يقف أمام باب الحجرة يصرخ بأعلى صوته:

من لم يتب فليتب .. ومن هو شرير فليتعظ .. قولوا لنسائكم وأولادكم .. استعدوا .. لقد راحت أيام المرح واللعب .. لينظر كل منكم إلى نفسه وإلى حاله .. عند تمام الشهر ينتهى العالم ويأتى المسيح !!

وذعر الناس وتقاطروا عليه يلتمسون مزيداً من التفاصيل ويمطرونه بوابل من الأسئلة والاستفسارات، وبدأ هو جامد الوجه، جاد القسمات، يقول بثقة وبالحرف الواحد

-عند نهاية الشهر ينتهى العالم .. وتنقلب الدنيا ويأتى المسيح واختلطت أصوات سامعيه وسألوه ؟

-كيف .. فى أى ساعة .. لماذا ..

فأعاد ما قاله كلمة كلمة :

عند نهاية الشهر ينتهى العالم..تنقلب الدنيا ويأتى المسيح.

وانتاب الناس قشعريرة وخوف ورعب لا قبل لهم بمثله، وتوقف الكل عن أعمالهم ولزموا ديارهم، وكست وجوه الناس مسحة من الكآبة، حتى الأطفال شعروا بالخوف، فتوقفوا عن اللعب والتصقوا بأمهاتهم.

قال إميل لأمه:

-حقاً يا أمى يأتى المسيح –هل سيهدم بيتنا –وأين نذهب..هل ألعب..وآكل الشكولاته...

فنظرت الأم بحسرة والدموع تترقرق فى عينيها، فأعاد سؤالها، وحينئذ ضمته بقوة إلى صدرها وبكت فخاف وبكى هو الآخر..

وتوقفت الأعمال فى البلدة، فقد ترك المزارعون زراعاتهم وجلسوا فى بيوتهم إلى جوار زوجتهم وأطفالهم، وأمتنع التلاميذ عن الذهاب إلى مدارسهم، وأغلق الباعة حوانيتهم، وتوقفت النساء عن إعداد الطعام وأكتفوا فى المنازل بالخبز وبعض الجبن والبقول، قالوا:

-لماذا نطبخ ونعمل ونزرع ونغسل .. إنها أيام وينتهى كل شئ ..

والعجيب أن تلك الأخبار لم تجعل الناس يتوبون عن خطاياهم، بل لقد شغلتهم عن التوبة!! لقد شغلوا فقط بما سيتركونه.. وفكروا فى الرعب الذى سيحل عليهم فى ذلك اليوم وكيف سيموتون...الخ

وسمع الأب الكاهن فى القرية القريبة والتى بها الكنيسة حيث يذهبون للصلاة، وتضايق، وبعد قداس يوم الأحد، وكانت الكنيسة قد امتلأت عن آخرها بالمصلين، قال الكاهن:

-إن فكر الكنسية الذى تسلمته من السيد المسيح، بالتالى فعلينا أن نكون مستعدين دوماً لملاقاة المسيح، وقد لا ينتهى زمننا هذا ولكن كل من يموت منا فسوف يلتقى بالمسيح هناك والأمر فى الحالتين واحد، ولذلك أرجو أن تعتبروا نهاية العالم كل يوم فتتخلصون من السلبيات فى حياتكم وتنتهى الخصومات من بينكم وتجتهدون فى تقديم التوبة عن خطاياكم ..

أما إعطاء مواعيد لمجئ المسيح، فمن شأنه أن يجعل الناس يتبلدون متى جاء الموعد المحدد ولم يأتى المسيح، كما أن قلقكم هذا وتعبكم إنما يدل على عدم استعدادكم لأبديتكم.. انصرفوا الآن إلى دياركم وعودوا إلى أعمالكم وحوانينكم وزراعتكم والأطفال إلى مدارسهم ..إن مخافة الموت ترعب الرجل الناقص كما يقول الكتاب المقدس و قاطعه أحدهم:

-هل يكذب إذاً من قال لنا ذلك؟

-لا أقدر أن أتهم إنساناً ولكن أرجو أن تحتاطوا دائماً وتسلكون

بتعقل ولا تضطربوا لأى خبر.. ولا تسعوا إلى معرفة الغيب إنما عيشوا كما يحق لإنجيل المسيح واجتهدوا ثم ثقوا بعد ذلك فى عناية الله بكم ومحبته لكم، فإن كل من يجعل ثقته فى الله واتكاله عليه، يقيم الله من نفسه عائلاً وضامناً له ومسئولاً عنه ثم باركهم وصرفهم بسلام.

وصلت أخبار توعية الكاهن بالشعب إلى مسامع ذلك المحتال، فصار فى ضيق و تخّبط .. فها هوذا الأيام تمر واحداً تلو الآخر، وانقسم الناس إلى عدة فرق ..والبعض صدّق النبوة الكاذبة فخرج من القرية قبل الموعد بيومين يمشى فى المدينة بلا هدف .. ويسأل الناس هناك.. هل سمعتم بأن المسيح قادم يوم السبت..فيندهشون ومنهم من يستفسر منه ومنهم من يتجاهل قوله وينصرف عنه، ويرى الحياة فى المدينة تسير كما كانت دائماً .. فيتشكّك ويتعجب .. والعض الآخر تبلدت مشاعره.. وأصبح فى غير مبالاة أو اكتراث، والبعض الثالث.. يتردد على الراهب يراجعه فيما أعلن، فيؤكد لهم من جديد ما قاله .. ويتخذ هيئة الواعظ والنبى الذى يتحسر على الشعب وينذر بالكارثة.

ولم تثمر هذه النبوة ثماراً روحية ..

واقترب اليوم الموعود، والناس ما بين مصدق ومكذّب، ولزم الناس بيوتهم عشية ذلك اليوم، والتصق أفراد الأسرة بعضهم بالبعض الآخر، وراحوا يتمتمون بكلمات توسل المرعوب، وساد سكون رهيب فى تلك القرية ولم ينم أحد طوال الليل، حتى إذا ما تحطّت الساعة منتصف الليل راح الناس يتوقعون الكارثة بين لحظة وأخرى.. ومر نصف اليوم بسلام ومازال الناس يتوقعون انفجاراً هائلاً، ودوت فرقعة صغيرة خارج أحد المنازل فصدرت عن أفراده صرخة مدوية سمعت فى البيوت التى حوله فتجاوب صراخ سكانه .. ثم ما لبث الصوت أن تلاشى ليحل محله ذلك الصمت الرهيب حتى إذا ما حل المساء سرت فى الأبدان بعض الطمأنينة، غير أنه كان ما يزال باقياً من اليوم أربع ساعات قضوها متأرجحين ما بين الراحة و الذعر .

وراح هو يسترجع سنين حياته منذ كان طفلاً والتعاسة التى ززز بها طفولته والخلافات المستمرة فيما بينه وبين والديه من جهة، وبين كل من والده والدته من جهة أخرى، إنه يتذكر الآن لليالى التى قضاها مطروداً من بيته والليالى التى مرت عليه دون طعام والحرمان الذى ذاقة، وكيف أنه ترك تعليمه واتجه

إلى العمل فلم يستمر فى عمل واحد أكثر من أسابيع معدودة، وكان أصحاب تلك الأعمال يعذبونه كثيراً، ومنهم من أتهمه بالسرقة وسلمه إلى الشرطة التى اودعته فى مؤسسة الأحداث لمدة عامين، خرج ليتلكأ فى الطرقات يلتمس قوته فى مهانة وذلة.

كان كل مطمعه أن يصير غنياً مشهوراً غير أن ذلك لم يكن له ما يؤهله إليه من علم أو كفاءة أو حتى قوة جسدية، حقيقي أنه كان بديناً وطويل القامة لكنه كان منرهلاً من ذلك النوع الذى يميل إلى لاسترخاء، إلى أن سمع عن أحد النساك الذى يحيا فى مغارة بالجبل وكيف يحبه الناس ويوقرونه وينظرون إليه بكثير من الإحترام و الوقار، بسبب قداسته الحقيقية. فحسنت فى عينه الفكرة، وجاء إلى هذا المكان ونجح كثيراً فى خداع الناس، غير أن شيئاً ما كان ينغص عليه حياته، وهو شعوره الدفين بأنه كاذب .. وليس له الحق فى هذه الكرامة وتلك الهدايا والأموال..وعجز عن أن يواجه نفسه وينصرف إلى العمل الشريف، ولكنه سريعاً ما يطرد عنه أفكار التبكيت ليهنأ بمجاملات الناس وحبهم.

وها هو اليوم منورط فيما لم يحسب له حساب من قبل ....زز الله أن يفضحه للناس ويكشف سره، وقد قارب ذلك اليوم من المجئ.. وعذبته الأفكار ولم يستطع الهرب من المكان.. فإلى أين يذهب.......... واظلمت الدنيا فى عينه.. ولم يسع إلى التوبة واصلاح حاله..فقرر التخلص من حياته..فتناول السم فى عشية ذلك اليوم.

ومر اليوم بسلام و تنفس الناس الصعداء، غير أنهم خرجوا من بيوتهم فى الصباح واجتمعوا جمعاً غفيراً وهم مصممون على مواجهة ذلك المضل، وبالفعل فقد اتجهوا إلى حجرته على الطريق، ولشدة ما كانت دهشتهم عندما اكتشفوا هناك أنه قتيل فى حجرته!!

وأنتشر الخبر كالبرق بين الأخرين، وتقاطر الناس إلى هناك وأبلغ البوليس فجاء ثم تبعته النيابة، وبدأت التحقيقات.. واستدعى الطبيب الشرعى الذى أثبت أن الوفاة جاءت نتيجة الانتحار، وقرروا دفن الجثة هناك فى نفس الحجرة بعد أن رفض أى من الأهالى دفنها فى مقبرة عائلية أو مقابر الصدقة ومن ثم فقد وضعت الحراسة على المكان الذى دفن فيه ولمدة ثلاثة أشهر.

ولقد قرر التخلص من حياته، لأنه لم يكن قادراً على مواجهة الناس، متى جاء ذلك اليوم الذى حدده لنهاية العالم دون أن يحدث شئ

فقتل نفسه، وهدأت مشاعر الناس بعد أن ثبت لهم كذبه وتحقق لهم خداعه.

واليوم يشيع بعض من مريديه ويصرون على قولهم بان قديسهم(ذلك المحتال) قد صلى بحرارة إلى الله لكى ينقذ العالم ويهب البشرية فرصة أخرى علهم يتوبون وفى مقابل ذلك يموت هو بدلاً من الناس ليهبهم فرصة التوبة!!!

وهكذا استمر مخادعاً حتى بعد موته .

دير البراموس/مارس 1997

الفهرس